الاتجاه الصوفي

عند أئمة تفسير القرآن الكريم

أبو حفص النسفي

الفخر الرازي

القرطبي

البيضاوي والشهاب

البقاعي



الأستاذ الدكتور
د/ جودة محمد أبو اليزيد المهدي
نائب رئيس جامعة الأزهر
عضو مجمع البحوث الإسلامية





عند أئمة تفسير القرآن الكريم

للأستاذ الدكتور

جوده محمد أبو اليزيد المهدي

نائب رئيس جامعة الأزهر

عضو مجمع البحوث الإسلامية



الدار الجودية



الدار الجودية

للنشر والتوزيع

برج العمدة – امتداد كورنيش النيل

بجوار مرور شبرا الخيمة

ت: ٠١٢/١٧٥٣٦٧٩ – ٠١٠/٥٤٣٠٥٩٩

٠٢/٤٥٥١٣٠٤

الكتاب: الاتجاه الصوفي عند أئمة تفسير القرآن الكريم

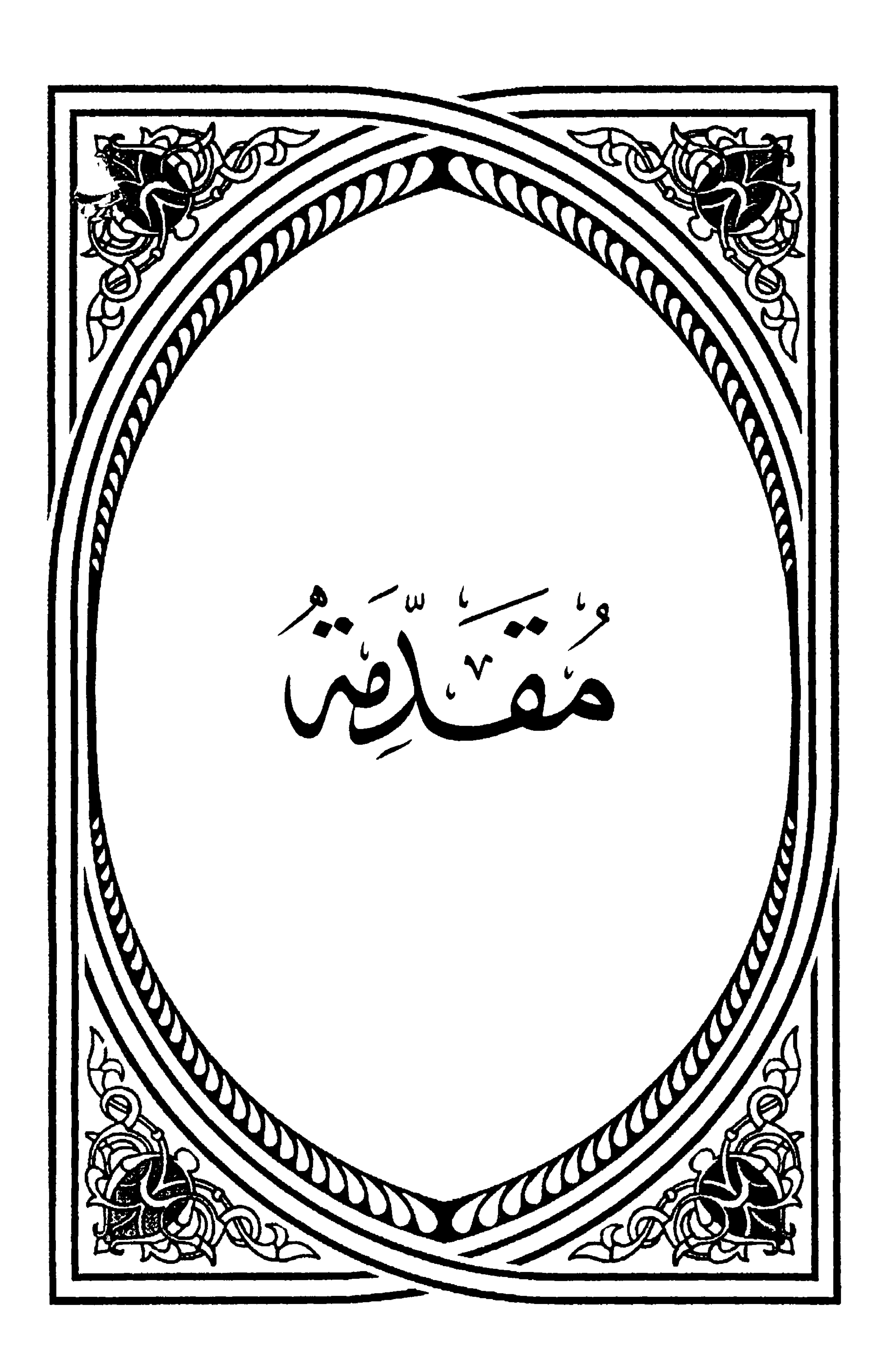
المؤلف: جودة محمد أبو اليزيد المهدي

الطبعة الأولى : ٢٠٠٧

رقم الإيداع: ١٦٧٢/ ٢٠٠٧

الترقيم الدولي: 977-6156-42-8

طبع في القاهرة



مُقَدِّمَة

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذي نزل الكتاب على خير المرسلين تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين .

والصلاة والسلام على سيد العالمين وقدوة النبيين سيدنا محمد ، مجلي الحقائق والكمالات القرآنية المفاضة عليه من رب الخلائق أجمعين صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وورثته بقدر عظمة ذات الله في كل وقت وحين .

وبعد ..

فإن القرآن العظيم هو مجمع الحقائق الكلية والجزئية ومحيط العلوم والمعارف الإجمالية والتفصيلية . فمن بحار معاينة تدفقت علوم الأولين والآخرين ، ومن أعماق أسراره استخرجت جواهره ودرره التي حارت في عجائبها عقول الغواصين والملاحين ، انظر إلى حجة الإسلام الإمام الغزالي قدس الله سره إذ يقول في « جواهر القرآن » :

« أيها المسترسل في تلاوتك ، المتخذ دراسة القرآن عملا ، المتلقف من معانيه ظواهر وجُمَلاً : إلى كم تطوف على ساحل البحر مغمضا عينيك عن غرائبها ؟!

أو ما كان لك أن تركب متن لجَّتها لتُضير عجائبها ؟ وتسافر إلى جزائرها لاجتناء أطايبها ؟ وتغوص في عمقها فتستغني بنيل جواهرها ؟

أو أم تعير نفسك في الحرمان عن دررها وجواهرها بإدمان النظر إلى سواحلها وظواهرها ؟

أو ما بلغك أن القرآن هو البحر المحيط ، ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين ؟؟ كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارها وجداولها ؟؟ »[1]

---

(١) الإمام أبو حامد الغزالي : جواهر القرآن ص ٨ ط/ دار الآفاق الجديدة ببيروت .

بلى فمن مُحيط التنزيل الحكيم تشعبت كل علوم الأولين والآخرين ومنه تدفقت بحار المعارف والأنوار ، وسالت أودية بقدرها في صدور الذين أوتوا العلم ، وظفر باستخراج جواهرها ولآلئها من أهَّلَتهم العناية الإلهية بنور الفرقان فتجلى لهم بهذا النور انشعاب هذه العلوم جميعها من محيط القرآن الزاخر .

وفي ذروتها العليا أشرف العلوم وهو العلم بالله تعالى ، والعلم باليوم الآخر ، والعلم بالصراط المستقيم وطريق السلوك والوصول إلى الله عز وجل.

وإن كثيراً من الناس – ولاسيما أصحاب البدع والمذاهب المتطرفة – يجحدون أو يجهلون شرعية علم التصوف الإسلامي وانشعابه من محيط علوم القرآن الكريم وسنة النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، فهذا العلم بكيفية السلوك إلى ملك الملوك ، وهو العلم الذي انقدح في قلوب الأولياء حين استنارت بالعمل بالكتاب والسنة [1] وهو ذلك : معرفة تزكية الأنفس وقطع عقبات الصفات المهلكات وتحليتها بالصفات المنجيات .

وتحقيقاً عملياً : هو طرح النفس في العبودية وتعليق القلب بالربوبية واستعمال الأخلاق السنية والنظر إلى الله سبحانه بالكلية [2] وهو الصفاء والمشاهدة كما عرفه أبو بكر الكتاني رضي الله عنه [3].

والتصوف أيضاً في المنظور القرآني هو القوامية لله على النفس استجابة لقوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾[4]

وهو من منظور السنة المحمدية الشريفة – ركن الدين الثالث – وهو مقام

---

(١) انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني ٤/١ ط الجيل .

(٢) انظر تهذيب الأسرار للعارف عبد الملك الخركوشي بتحقيق بسام محمد بارود صـ ٢٧ .

(٣) انظر المصدر الأخير صـ ٢٩ وقضية التصوف للدكتور عبد الحليم محمود مع تحقيق المنقذ من الضلال للإمام الغزالي صـ ٤٣ – ٤٤ ط/ دار المعارف .

(٤) سورة النساء / ١٣٥ .

الإحسان الذي عرفه سيد الخلق ﷺ بقوله : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1]

ومع إطباق أئمة علماء الأمة على أن التصوف هو حقيقة مقام الإحسان وأنه بذلك (روح الإسلام) ، وهو (الربانية) في أجلى صورها ، وهو التزكية بأرقي مفاهيمها ، ترى الذين في قلوبهم مرض يمارون في حقيقته وفي انبثاقه من الكتاب والسنة كما تجلى في مصنفات التفسير والحديث وشتى علوم الإسلام .

فكان من واجب أمانة العلم وإظهار الحقائق أن نبرز الاتجاه الصوفي عند أئمة علماء تفسير كتاب الله تعالى باعتبارهم ألصق علماء الأمة بالتنزيل وأقربهم لفهم مراد الله تعالى من كلامه ، وأعرفهم بمعاني الذكر الحكيم ؛ دستور الإسلام ومصدر حقائقه الكلية والجزئية ، فمتى شهدوا وتحققوا من توثيق أصول التصوف ومعالمه بدلالة معاني القرآن العظيم فإن شهادتهم من أقوى الحجج وأنصع البراهين على مصداقية شرعية التصوف واستمدادها من القرآن الكريم .

فكيف وقد صرح أعلام المفسرين بانخراطهم في زمرة أقطاب الصوفية العارفين واستقائهم معارف القرآن من مشكاة عرفانهم ثمرة لتحققهم بتقوى الله تعالى وهي قاعدة الولاية كما قال جل شأنه ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[2] ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾[3]

وهاهم أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته المدركون أسرار التنزيل

(١) أخرجه الشيخان البخاري ومسلم وغيرهما. وتخريجه في الحاج الصغير للحافظ السيوطي ١٢٢/١ط الحلبي.

(٢) سورة الأنفال / ٣٤ .

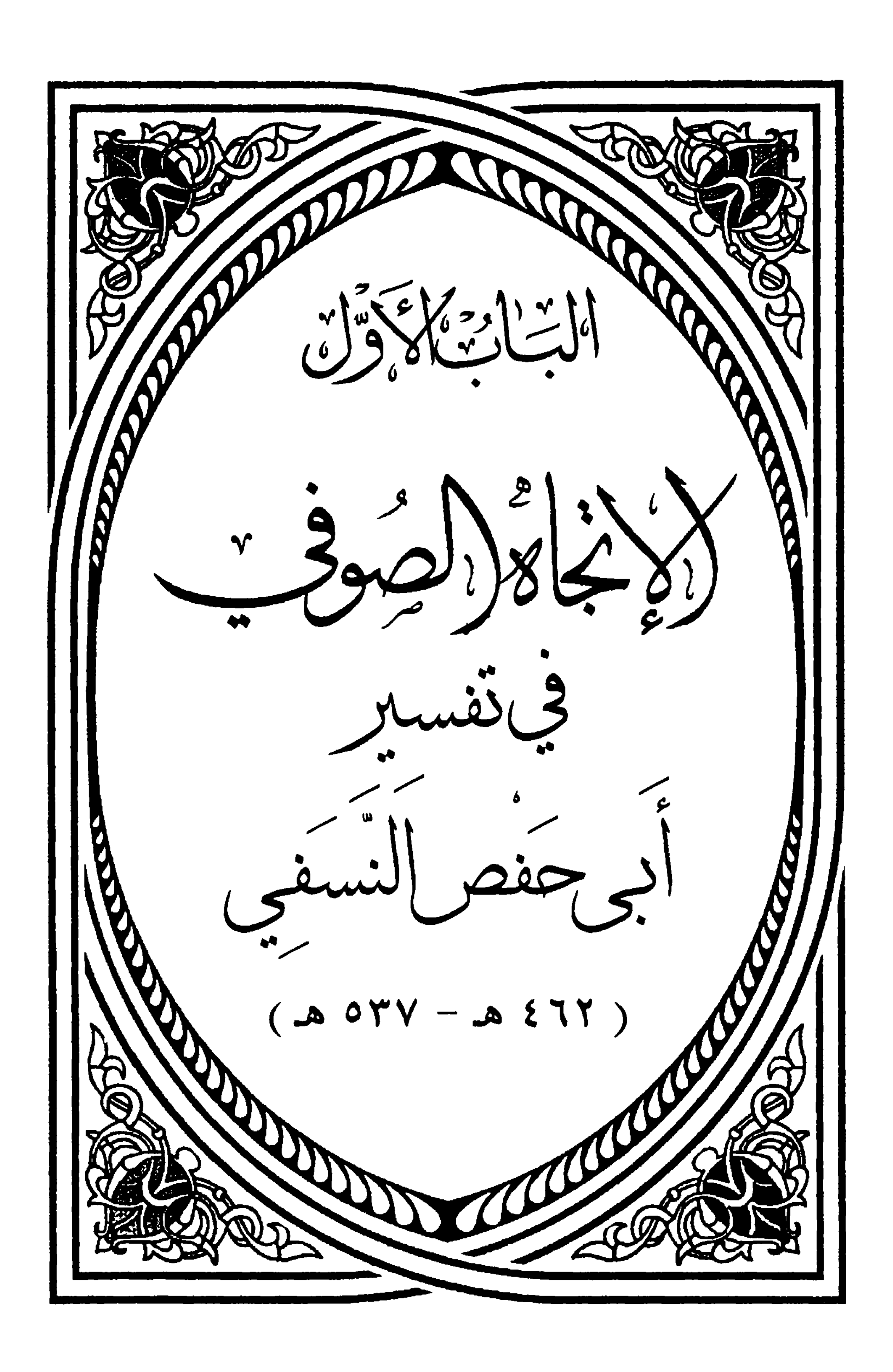
(٣) سورة يونس / ٦٢ — ٦٣ .

يجسدون المنهج الصوفي في القرآن ، فترى في هذا التصنيف طائفة من أئمة المفسرين : أبا حفص النسفي ، والفخر الرازي ، والإمام القرطبي ، والقاضي البيضاوي ، والشهاب الخفاجي ، وبرهان الدين البقاعي : يقررون أن الاتجاه الصوفي الحق هو صراط الله المستقيم الذي أوضحه القرآن العظيم . وأن معالم السلوك والتحقق بالأحوال والمقامات والمنازلات والمشاهدات كلها مستقاة من محيط التنزيل الحكيم .

كما أن أئمة التصوف وأعلامه كالحكيم الترمذي والإمام أحمد البدوي وبديع الزمان النورسي قد أكدوا أن التربية بالقرآن هي من صميم المنهج الصوفي الموصل إلى ذروة التحقق.

فالله تعالى نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن يحققنا بما علمنا لنحظى بعلم ما لم نعلم وأن يحشرنا في زمرة أوليائه المتقين بجاه سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم .

د / جودة محمد أبو اليزيد المهدي ٨٠٩م



البَابُ الأَوَّل

الإتِّجَاهُ الصُّوفي

في تفسير

أَبَي حَفْصٍ النَّسَفِي

(٤٦٢ هـ - ٥٣٧ هـ)

مباحث هذا الباب

- تمهيد
- أقباس من الترجمة الشخصية والعلمية .
- تصوف الإمام أبي حفص النسفي .
- المعالم الصوفية في تفسير أبي حفص النسفي .

المعلم الأول : كثرة نقوله عن الصوفية في تفسيره .

المعلم الثاني : في سلوك الطريق والمجاهدة .

المعلم الثالث : في الشريعة والحقيقة والظاهر والباطن .

المعلم الرابع : في الولاية والأولياء .

المعلم الخامس : في الأحوال والمقامات .

المعلم السادس : في التوسل والتبرك بالصالحين .

تمهيد

على طريق التدبر لأسرار التنزيل الحكيم ارتقت همم أفذاذ المحققين إلى استشراف أنوار الحكمة القرآنية ، والعروج إلى كليات الحقائق والعلوم الإلهية التي لا أنسة لأكثر العقول والأفهام بها ، لعز مدركها وبعد غورها ، وتوقف الوصول إليها على سبق شمول العناية الأزلية ونيل عطاء الوراثة المحمدية بما يقتضيه من التعرض لنفحات الحق تعالى حيث تشرق أنوار الذات على مرآة حقيقة القلب بعد انقشاع الحجب وتلاشي الأقفال والأغيار فيتحقق الفهم عن الله تعالى وتعرف مرامي خطابه في كتابه العزيز واستنباط الحقائق من آيهِ البينات كما قال تعالى شأنه ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ (١).

ومن ثم قال سيدنا علي كرم الله وجهه : « من فهم القرآن فسر به جمل العلم » .(٢)

وهو بذلك يشير إلى أن القرآن العظيم يحوي في بحار معانيه مجامع العلوم ، ولا يقف على ذلك إلا الراسخون من الأولياء العارفين والصفوة الواصلين .

وحينما نقلب النظر على الصعيد التفسيري لرصد وتفحص اتجاهات

---

(١) سورة النساء : ٨٣.

(٢) الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين : ٢٦١/١ ط العثمانية ، وقد روى أبو حفص النسفي في تفسيره « التيسير » عن سيدنا علي كرم الله وجهه نحو هذا القول المثبت هنا إذ قال : « وقال علي ﷺ : ما من شيء إلا وعلمه في القرآن ، ولكن رأي الرجال يعجز عنه » انظر الجزء الأول من « التيسير » ص : ٣ بالمخطوطة ٦٣ « تفسير » بدار الكتب .

المفسرين وتعرف أنماط مشاربهم ومنازعهم ومدى رسوخهم العرفاني في علوم التنزيل نجد ثلة من أفذاذ المحققين قد تضلعت بتوجهها الصوفي من ينابيع الفيض الرباني اللدني ، في فهم الواصلون .

وثلة أخرى آمنت بالعرفان الكشفي والإدراك الذوقي النوراني فجالت بأفكارهم في نتاج القوم واقتاتت من ثمار مداركهم فسرى هذا المدد العرفاني في محصلاتهم ومؤلفاتهم معبراً عن اتجاههم الصوفي الذي اعتنقوه ونشدوا فيه حقيقة حق الإيمان فذاقوا حلاوته وألفوا فيه توهج نور الإسلام وتجلى الإحسان فشعشعت أرواحهم بإشراق ضيائه ، وهؤلاء هم السَّالكون « ومن سار على الدرب وصل » !!

وقد أفاد تراثنا التفسيري من عطاء هذين الفريقين أيما إفادة ، فإن نتائج الأفكار القدسية وثمار المعارف الربانية المنضبطة بموافقة ظواهر النصوص الشرعية والسلامة من المعارضة النقلية والعقلية أعظم معين على فهم كتاب الله تعالى والوقوف على جوهر الحكمة القرآنية وإدراك مقاصد الشريعة واستكناه أسرارها ومراميها .

ومن أولئك الأئمة الأثبات الرواسخ الذين سطعت شمس المعارف الربانية في نتاجهم العلمي وسرى الاتجاه الصوفي في تراثهم التفسيري : إمام من شوامخ أعلام القرنين الخامس والسادس الهجريين ؛ هو العلامة : أبو حفص النسفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورضي عنه .

أقباس من الترجمة الشخصية والعلمية :

حفلت مصادر علمية عديدة بترجمة الإمام النسفي كعلم من أجلاء علماء الإسلام بيد أنها تواطأت على إيراد لمحات يسيرة – وإن كانت بعيدة المدى الدلالي – عن شخصيته ومكانته العلمية ، وبعض هذه المصادر – كلسان الميزان – قد ترجم له ترجمة حديثية باعتبار مكانته في علم الحديث الشريف .[1]

فأما عن اسمه ولقبه وكنيته : فهو الشيخ نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد بن إسماعيل بن لقمان النسفي ثم السمرقندي – وهو غير الشيخ أبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي المتوفى سنة ٧٠١ هـ صاحب تفسير النسفي الشهير المسمى « مدارك التنزيل وحقائق التأويل ».

مولده ونشأته :

وقد ولد أبو حفص النسفي سنة : إحدى أو اثنتين وستين وأربعمائة هـ وعاش خمسة وسبعين عاماً حيث توفي سنة ٥٣٧ هـ « سبع وثلاثين وخمسمائة هجرية » حسبما ذكره الحافظ الذهبي في ترجمته قاطعاً بتاريخ وفاته بينما قال في تاريخ مولده « فإنه ولد نحو سنة إحدى وستين وأربعمائة » [2]

ونص الحافظ الداودي على أنه ولد سنة إحدى – أو اثنتين – وستين وأربعمائة [3]

وكان مولده ﷺ بمدينة « نسف » التي ينسب إليها ، وقد سماها بذلك

---

(١) انظر لسان الميزان للحافظ ابن حجر العسقلاني ٣٢٧/٤.

(٢) الحافظ الذهبي: سير أعلام النبلاء بتحقيق شعيب الأرنؤطي ومحمد نعيم العرقسوسي: ١٢٧/٢٠

(٣) الحافظ الداودي : طبقات المفسرين ، بتحقيق علي محمد عمر ٦/٢.

عرب القرون الوسطى ، أما الفرس فكانوا يسمونها « نخشب » وإليها ينسب العارف بالله تعالى سيدي أبو تراب النخشبي ﷺ المتوفى سنة ٢٤٥هـ .[١]

وتقع مدينة « نسف » بين جيجون وسمرقند ضمن بلاد ما وراء النهر وهي حالياً واقعة في الجنوب الغربي من الجمهوريات الروسية وتسمى الآن « قرشى » .[٢]

وقد نشأ الشيخ أبو حفص النسفي نشأة الصفوة المجتبين لهداية الأمة وحفظ علوم الإسلام ونشر معارفه ، فتلقى العلم عن أساطينه في عصره وكانوا كثرة في مختلف جوانب العلوم النقلية والعقلية حتى ذكر الحافظ ابن حجر في ترجمته إنه بلغت شيوخه خمسمائة وخمسين رجلاً .[٣]

وقد أفرد الشيخ النسفي بالتأليف كتاباً في تعداد شيوخه الذين تلقى عنهم العلم في فروعه العديدة وسماه « تعداد شيوخ عمر ... » وذكره صاحب « كشف الظنون » وقال في التعريف به : « جمع فيه شيوخه وهم خمسمائة وخمسون شيخاً .. » [٤]

كما نقل الحافظ الداودي وغيره عن السمعاني : أن أبا حفص النسفي كان يروي الحديث عن مائة وخمسين شيخاً .[٥]

وقد عرف أئمة من الحفاظ والمؤرخين أصحاب التراجم بشيوخ

---

(١) انظر : طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي بتحقيق نور الدين شريبة / ص ١٤٧ ، وانظر بلدان الخلافة الشرقية تأليف كي لسترونج وترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، وانظر : أيضاً رسالة الدكتوراه « التيسير في علم التفسير للنسفي » تحقيق ودراسة للدكتور جمال مصطفى ٢٩/١.

(٢) السابق .

(٣) لسان الميزان / ٣٢٧/٤ ط دار الكتاب الإسلامي .

(٤) حاجي خليفة : كشف الظنون : ٤١٨/١.

(٥) الحافظ الداودي : طبقات المفسرين ٧/٢.

عديدين للإمام النسفي ، نذكر من بينهم :

- العلامة المحدث الواعظ أبا عبد الله الحسين بن علي الكاشغري المتوفى ببغداد سنة ٤٨٤ هـ له تصانيف كثيرة في الحديث والتصوف تزيد على مائة وعشرين مصنفاً .[١]
- الإمام الحسن بن أحمد السمرقندي المتوفى سنة ٤٩١ هـ ، كان إمام زمانه في الحديث واستوطن نيسابور ، من تصانيفه : « بحر الأسانيد في صحاح المسانيد » جمع فيه مائة ألف حديث .[٢]
- الإمام صدر الإسلام أبو اليسر محمد بن محمد البزدوي فقيه بخارى المتوفى بها سنة ٤٩٣ هـ ، وكان قد ولي القضاء في سمرقند ومن تصانيفه كتاب : « أصول الدين » .[٣]

ثم إلى جانب هؤلاء :

- العلامة المحدث إسماعيل بن محمد النوحي ، والحسن بن عبد الملك القاضي ، ومهدي بن محمد العلوي ، وعبد الله بن علي بن عيسى النسفي ، وعلى بن الحسن الماتريدي وغيرهم .[٤]

ثم إن الشيخ النسفي قد عاصر في القرنين الخامس الهجري والسادس الهجريين كوكبة من أساطين العلماء في مختلف فروع العلم كعلامتي القراءات : ابن الخشاب البغدادي وابن العريف .

وكإمامي التفسير : البغوي وابن عطية فضلا عن الواحدي والزمخشري

---

(١) الحافظ الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٢٧/٢٠ وتحقيق ودراسة « التيسير في علم التفسير للنسفي » للباحثة عصمت عبد الحفيظ ٥/١.

(٢) السابق .

(٣) المصدرين الأخيرين وطبقات المفسرين للداودي ٦/٢.

(٤) الحافظ الذهبي : سير أعلام النبلاء ١٢٧/٢٠.

وكحافظي الحديث الشريف ابن منده والحافظ السلفي .

وكعلامتي اللغة والنحو : الأنباري وأبي نزار البغدادي .

وكإمامي التصوف : حجة الإسلام أبي حامد الغزالي وشيخه أبي على الفارمدي رضي الله عنهما .

وتذكر المصادر واقعة طريفة جرت بين أبي حفص النسفي وبين معاصره العلامة الزمخشري المفسر ، إذ يقول الحافظ الداودي في ترجمة النسفي من طبقاته : « حكى أنه أراد أن يزور الزمخشري في مكة ، فلما وصل إلى داره دق الباب ليفتحوه ويأذنوا له بالدخول ، فقال الزمخشري : من ذا الذي يدق الباب ؟ فقال : عمر ، فقال جار الله : انصرف ، فقال نجم الدين : يا سيدي عمر لا ينصرف !! فقال جار الله : إذا نكر ينصرف !! » [1]

لقد نهل أبو حفص النسفي من ينابيع العلم الدفاقة في عصره ، وأفاد من صحبة الأساطين فارتقى إلى مكانة سامقة بين أفذاذ العلماء الموسوعيين ، ومما يدلنا على إمامته وعموم إفادته أنه كان يلقب بـ « مفتي الثقلين » كما ذكر صاحب « الفوائد البهية » وقد علل لذلك : بأنه كان يعلم الإنس والجن .[2]

كذلك نجد لمكانة أبي حفص النسفي في موسوعات التراجم ولدى أثبات العلماء والمؤرخين شموخاً وتبحراً علمياً في مختلف العلوم والفنون ؛ فقد قال الحافظ الذهبي في ترجمته من « سير أعلام النبلاء » :

« العلامة المحدث أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد بن لقمان النسفي الحنفي ، من أهل سمرقند ، وهو مصنف تاريخها الملقب بالقند [3] ،

---

(١) الحافظ الداودي : طبقات المفسرين ٢/٦.

(٢) أبو الحسنات اللكنودي : الفوائد البهية في تراجم الحنفية ١٤٩.

(٣) القند : بفتح القاف وسكون النون – معناه عسل قصب السكر كما جاء في « مختار الصحاح ص ٥٢٢ »

ونظم الجامع الصغير ، وكان صاحب فنون ، ألف في الحديث والتفسير والشروط وله نحو من مائة مصنف »[1]

كما عرف به الحافظ أبو سعد السمعاني محدث ومفتي خراسان في كتابه « التحبير » قائلاً : « كان إماماً فاضلاً مبرزاً متقناً ، سمع أبا محمد التنوحي ، وأبا الحسين محمد بن محمد بن الحسين البزدوي وغيرهما.

وصنف في كل نوع من العلم (!!) في التفسير والشروط : صنف قريبا من مائة مصنف وقد استقريت مصنفاته فرأيت فيها أوهاماً كثيرة ، فعرفت أنه كان ممن أحب الحديث وطلبه ولم يرزق مهلة التجريد ».

وقد علق صاحب « مفتاح السعادة » على الجانب النقدي الأخير في كلام السمعاني بقوله : « قال صاحب « تاج التراجم » : ومن ذا سلم من ذا ؟ قلت : ولقد أنصف في هذا القول فرضي الله عنه وعن سائر المصنفين »[2]

ونستجلي أيضا مما قاله السمعاني أن وجود ما عبر عنه بالأوهام في بعض تصانيف النسفي ليس مردُّهُ شخصية أبى حفص العلمية ،إنما كثرة تصنيفه مع افتقاد مهلة التجريد والتنقيح والتحرير ، وهي سمة غالبة على الطراز الموسوعي الذي يصنف في كل فن ويقيد الشوارد والأوابد تمهيداً لتحريرها من المسودات العلمية لتأخذ شكلها النهائي بعد في تصانيف منقحة ، وليس هذا بمستغرب فيمن قال في حقه السمعاني : « وصنف في كل نوع من العلم » !!

فيقال سويق مقنود ومقند .

وقد جاء ذكر « القند في تاريخ سمرقند » أبي حفص في كشف الظنون ١٣٥٦/٢ ومفتاح السعادة ١٢٧/١.

(١) الحافظ الذهبي : سير أعلام النبلاء بتحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم ١٢٦/٢٠.

(٢) أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده . مفتاح السعادة بتحقيق كامل بكري وعبدالوهاب أبو النور ١٢٧/١ — ١٢٨.

أجل ، فلقد طوف العلامة النسفي بموسوعيته العلمية في جوانب شتى من العلم وأسهم في العديد منها بنتاج غزير في التصنيف يحتل مكانته بين نفائس التراث الإسلامي .

ففي مجال التفسير القرآني :

له كتاب « التيسير في علم التفسير » وهو من الكتب المبسوطة في هذا الفن كما ذكر صاحب « كشف الظنون »[١] ، وقال في التعريف به إنه ذكر في الخطبة : مائة اسم من أسماء القرآن ، ثم عرف التفسير والتأويل ثم شرع في المقصود وفسر الآيات بالقول وبسط في معناها كل البسط .[٢]

وقد اضطلع ثلة من الباحثين بجامعة الأزهر الشريف بتحقيق أجزاء من هذا التفسير في عدة رسائل جامعية ، وقد شاركت – بحمد الله – في مناقشة بعض الرسائل .[٣]

ولأبي حفص النسفي في التفسير أيضاً : « الأكمل الأطول » وتقع مخطوطته في أربع مجلدات ضخمة ، وهو تفسير موسوعي شامل ، جمع فيه مؤلفه من شتى العلوم النقلية والعقلية ، وضمنه – كسابقه – الأثر والرأي ، وقد عنيت به أقسام التفسير بكليات أصول الدين والدراسات الإسلامية بجامعة الأزهر الشريف ، فتناوله أيضاً بعض الباحثين والباحثات في رسائلهم الجامعية بالتحقيق والدراسة . وكان لي شرف العضوية في لجان مناقشة هذه الرسائل التي كشفت النقاب عن هذا التراث التفسيري النفيس .[٤]

---

(١) حاجي خليفة : كشف الظنون ١/٥١٩.

(٢) السابق .

(٣) من هذه الرسائل : رسالة الدكتور جمال مصطفى في تحقيق الجزء الأول ، ورسالة الدكتورة عفاف شكري ، ورسالة الباحثة عصمت عبد الحفيظ محمد سالم « ماجستير ».

(٤) أعني رسالة تحقيق ودراسة الأكمل الأطول في التفسير للنسفي بدءاً من الآية الثامنة والثلاثين من سورة

وكان من نتاج البحث في بعض هذه الرسائل أن الإمام الفخر الرازي – رضوان الله عليه – كان ينقل بكثرة فائقة في تفسيره عن أبي حفص النسفي من كتابه « الأكمل الأطول » دون تصريح بعزو النقل ، فكان النسفي مصدراً رئيساً للفخر إمام المفسرين .(1)

وفي مجال علم الحديث الشريف :

نجد لأبي حفص النسفي عدة مؤلفات : منها كتاب « النجاح في شرح أخبار الصحاح » شرح فيه صحيح البخاري ، وسماه بذلك في أوله بعد أن ذكر أسانيده عن خمسين طريقاً إلى المصنف .(2)

وله أيضاً : « تطويل الأسفار لتحصيل الأخبار » وقد حدث به في بغداد .(3)

وكذلك له : كتاب الياقوتة في الأحاديث .(4)

وفي علم العقيدة :

ضرب النسفي بسهم وافر وأنتج زخائر من المصنفات منها :

كتاب « العقائد النسفية » وهو من أشهر متون هذا العلم على الإطلاق ، وقد توفر عليه الأساطين لشرحه ، فشرحه العلامة سعد الدين التفتازاني شرحا عميقاً ، وعلق عليه الشيخ الخيالي والعلامة عبد الحكيم السيالكوتي ومُلاً أحمد الجندي وعصام الدين وغيرهم .(5)

القصص إلى الخامسة والثلاثين من سورة الزخرف للباحثة سمية ثابت.

(1) انظر الرسالة المذكورة أخيراً للباحثة سمية ثابت : الجزء الأول : ص ٨٠.

(2) انظر كشف الظنون ٥٥٣/١ ، ١٩٢٩/٢ وهدية العارفين ٧٨٣/١ ومعجم المؤلفين ٣٠٦/٧ ، ورسالة د/ جمال مصطفى « تحقيق ودراسة التيسير في علم التفسير للنسفي » جـ١ ص ٢٤.

(3) انظر كشف الظنون ٤١٥/١ ، وشذرات الذهب ١١٥/٤ ورسالة « الأكمل الأطول » للنسفي دراسة وتحقيق سمية ثابت ٣٥/١.

(4) انظر كشف الظنون : ٢٠٤٨/٢ وهدية العارفين ٨٣/٨ والأعلام للزركلي ٦٠/٥.

(5) انظر : كشف الظنون ١١٤٥/٢ وهدية العارفين ٧٨٣/١ ، والأعلام : ٧٠/٥.

وله أيضاً كتاب « المعتقد » وقد شرحه العلامة أبو الفضل الشيباني في كتابه « المنتقد » وذكر فيه روايته عن الطحاوي عن الإمام أبي حنيفة ﷺ عن أصحابه وأنه متضمن لمعظم أصول الدين .[1]

وفي مجال علم الفقه :

نجد لأبي حفص عدة مصنفات ما بين منثور ومنظوم ، ومعظمها في مذهب إمامه أبي حنيفة ﷺ ، وبعضها يحتسب في مجال الفقه المقارن ، فمما صنفه في مذهبه : كتاب « منهاج الدراية في فروع الحنفية » [2]

وله كتاب « الخصائل في الفروع » ذكره حاجي خليفة وذكر أنه كتاب كبير [3].

وله أيضاً كتاب « الفتاوى النسفية » ويتضمن فتاواه التي أجاب بها عن جميع ما سئل عنه في أيامه دون ما جمعه لغيره [4].

وأما في مجال الفقه المقارن :

فقد ذكرت المصادر « منظومة النسفي في الخلاف » وقد رتبها على عشرة أبواب :

الأول : في قول الإمام – أي إمامه أبا حنيفة ﷺ -.

الثاني : في قول أبي يوسف .

والثالث : في قول محمد .

والرابع : في قول الإمام مع أبي يوسف .

---

(١) انظر : كشف الظنون ٢/١٧٣١ وهدية العارفين ١/٧٨٣.

(٢) ذكره صاحب كشف الظنون ٢/١٨٧١ ، وصاحب هدية العارفين ٦/٧٨٣.

(٣) انظر : كشف الظنون ١/٧٠٦ وهدية العارفين ١/٧٨٣.

(٤) انظر : كشف الظنون : ١/١٢٣٠.

والخامس : في قول محمد .

والسادس : في قول أبي يوسف مع محمد .

والسابع : في قول كل واحد منهم .

والثامن : في قول زفر .

والتاسع : في قول الإمام الشافعي .

والعاشر : في قول الإمام مالك ، رضي الله عنهم أجمعين .

وعدد أبيات هذه المنظومة : تسعة وستون وستمائة وألفان ، وقد صنفت عليها شروح كثيرة ، ذكر صاحب « كشف الظنون » منها نحو اثنى عشر شرحا ، منها شرح المستصفي لأبي البركات النسفي ، وشرح أبي إسحق الموصلي ، وشرح رضي الدين الحنفي وغيرها .[1]

ولأبي حفص النسفي في الفقه أيضاً : منظومة أخرى هي« قيد الأوابد» .[2]

وكذلك له « نظم الجامع الصغير في الفروع » للإمام محمد بن الحسن الشيباني الحنفي ﷺ .[3]

وفي علم التصوف :

نجد للإمام النسفي مصنفا ورد ذكره في « المستدرك على معجم المؤلفين » وعنوانه « بيان مذهب المتصوفة » [4] ، وهذا التصنيف بما احتف به

(١) انظر : كشف الظنون لحاجي خليفة ١٨٦٧/٢.

(٢) انظر : الأعلام للزركلي ٦٠/٥ ورسالة تحقيق ودراسة « التيسير » للدكتور جمال مصطفى ٣٤/١.

(٣) انظر كشف الظنون : ٥٦٤/١ وهدية العرافين ٧٨٣/١ وطبقات المفسرين للداودي ٦/٢.

(٤) انظر المستدرك على معجم المؤلفين لعمر كحاله ص ٥٢٧ ، ٥٢١ ورسالة تحقيق ودراسة « التيسير » للدكتور جمال مصطفى ٣٢/١ – ٣٣ .

من قرائن دال على تحقيق تصوف أبي حفص رضي الله عنه .

وفي علم اللغة :

صنف أبو حفص عدة مصنفات ، منها « خصائص اللغة »[1] ، و « طلبة الطلبة » في اللغة ، على ألفاظ كتب أصحاب الحنفية[2].

وفي الأدب والشعر :

نجد لأبي حفص مصنفاً جامعاً هو « الإشعار بالمختار من الأشعار » في عشرين مجلداً !![3]

وفي التاريخ :

صنف النسفي كتاب « القند في تاريخ سمرقند » ويقع أيضاً في عشرين مجلداً[4] ، وإلى جانب ذلك مؤلفات كثيرة ناهزت المائة في مختلف فروع العلم صنفها ذلك العلامة الموسوعي نجم الدين النسفي عليه رضوان الله تعالى .

ولقد انعكست هذه الموسوعية العلمية في تفسيري أبي حفص « التيسير » و « الأكمل الأطول » فجاء كلاهما حاوياً لزخائر من مختلف العلوم من عقيدة وفقه ونحو وبلاغة وتصوف ولغة وأدب وتاريخ وغير ذلك ، ثم ذكر الشيخ النسفي في « التيسير » أنه سبق له تصنيف كتاب « بحر علوم التفسير » ذكر فيه لمعنى التقوى والمتقي أقاويل تبلغ المائة !![5]

---

(١) السابق.

(٢) انظر كشف الظنون ١١١٤/٢ والفوائد البهية ص ١٥٠.

(٣) انظر المصدر الأخير وكشف الظنون ٧٨٣/١.

(٤) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ١٢٦/٢٠ وكشف الظنون ١٣٥٦/٢ وهدية العارفين ٧٨٣/١.

(٥) انظر : التيسير في علم التفسير لأبي حفص النسفي بتحقيق د. جمال مصطفى ١٦٠/١ بالرسالة الخطية .

تصوف الإمام أبي حفص النسفي :

إن من يقرأ تراجم العلماء والمؤرخين لشخصية نجم الدين النسفي ومن يسبح بفكره في مصنفاته – لاسيما في تفسيريه « التيسير » و « الأكمل الأطول» - ليدرك بيقين أن هذا العالم النحرير قد خاض لجة التصوف والسلوك في طريق القوم الصوفية حتى صفا جوهره وتألق نضارة واستنارت مشكاة معرفته ، وتحقق بمقامات العارفين فترجم عنها في تفسيره بلغة أهل الذوق الواصلين .

ففي ترجمة الحافظ الداودي له في « طبقات المفسرين » وصفه بالإمامة والزهد حيث قال : « عمر بن محمد بن إسماعيل بن علي بن لقمان النسفي ثم السمرقندي الحنفي ، الإمام الزاهد نجم الدين أبو حفص » [1]

والزهد أحد مقامات الصوفية العارفين ، وفي التعريف به قال صاحب « اللمع » : « مقام شريف ، وهو أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية وهو أول قدم القاصدين إلى الله ﷻ والمنقطعين إلى الله ، والراضين عن الله ، والمتوكلين على الله تعالى ، فمن لم يحكم أساسه في الزهد لا يصح له شيء مما بعده ، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة والزهد في الدنيا رأس كل خير وطاعة ، ويقال : إن من سمي بالزهد في الدنيا فقد سمي بألف اسم محمود ومن سمي بالرغبة في الدنيا فقد سمي بألف اسم مذموم ... » [2]

وقمة التحقق بالزهد تتمثل في قول العارف بالله سيدي رويم بن أحمد البغدادي ﷺ حين سئل عن الزهد : « ترك حظوظ النفس من جميع ما في

---

(١) الحافظ الداودي : طبقات المفسرين بتحقيق على محمد عمر : ٣٨٥.

(٢) العارف بالله تعالى الإمام أبو نصر السراج الطوسي : اللمع . بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والشيخ طه عبد الباقي سرور : ٧٢-٧٣.

الدنيا ، فهذا زهد المتحققين ، لأن في الزهد في الدنيا حظاً للنفس ، لما في الزهد من الراحة والثنا والمحمدة واتخاذ الجاه عند الناس ، فمن زهد بقلبه في هذه الحظوظ فهو متحقق في زهده » [١]

ولقد استقى أبو حفص تصوفه – بتوفيق من الله تعالى – من الروافد الروحية التي تدفقت في بيئته ومنشئه « نسف » أو « نخشب » التي ترددت فيها أنفاس العارف أبي تراب النخشبي ﷺ ، ومن المناهل الصوفية التي تمثلت في شيوخه العارفين كأبي عبد الله الحسين الكاشغري [٢] والشيخ الإمام إسماعيل النوحي .[٣]

ثم إن إفراد مصنف لأبي حفص في « بيان مذاهب الصوفية » مع احتواء تفسيريه الكبيرين على تقرير حقائقهم وأحوالهم ومقاماتهم لدال أبلغ دلالة على انخراطه في سلك القوم وتحققه بمراتبهم العلية .

وفيما يلي : نعرض لطائفة من المعالم الصوفية الماثلة في تفسيري أبي حفص والتي تجسد سريان الاتجاه الصوفي الرشيد في نتاجه التفسيري وتعكس لنا إشراقيته ونورانيته المتألقة :

المعلم الأول : كثرة نقوله عن الصوفية في تفسيره :

إن المستطلع لمنهج أبي حفص النسفي في تفسيريه « التيسير » و« الأكمل الطول » لا يعزب عنه أن يضمن تفسيريه العظيمين ثروة طائلة من

---

(١) نفس المصدر .

(٢) سبق التعريف بشيوخ النسفي أن أبا عبد الله الكاشغري كان من أهل الحديث والتصوف وله مصنفات فيهما .

(٣) سبق التعريف به في شيوخ أبي حفص ، وقد روى عنه النسفي في « التيسير » في تفسير « البسملة » رواية عن بعض أحفاد سيدنا علي كرم الله وجهه مما يعد من رقائق التفسير ، انظر : التيسير بتحقيق الدكتور / جمال مصطفى « الرسالة المخطوطة » ٨٣/١.

النقول الصوفية التي نقلها عن أئمة العارفين بالله تعالى ، وقد استرعى ذلك نظر دارسيه ومحققي تراثه حتى إننا لنجد من ركائز منهجه التي سجلها الدكتور جمال مصطفى في رسالته في دراسة وتحقيق « التيسير في علم التفسير » : (إكثاره من التفسير الصوفي) ، وقال تحت هذا العنوان : « وكثيراً ما يتعرض الإمام في تفسيره لتفاسير الصوفية فيقول: ولأهل المعارف أو : لأهل الحقائق، ثم يأتي بعد ذلك بالنص ... » [1] ، وقد استشهد لذلك من تفسير « التيسير ».

إن الإمام النسفي بإكثاره من النقل عن السادة الصوفية ليعرب عن إيمانه بأن العطاء التفسيري للتنزيل لا يتم نتاجه إلا بالرجوع إلى أهل الفهم عن الله تعالى من أقطاب الصوفية العارفين كالإمام الجنيد والإمام سهل بن عبد الله التستري والحكيم الترمذي والعارف الشبلي والإمام ذي النون المصري ، والعارف حبيب العجمي وأبي القاسم القشيري وغيرهم وسنأتي لذلك ببعض الشواهد :

الشاهد الأول :

يقول الإمام النسفي عند تفسير قوله تعالى﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [2] – بعد أن ساق أقوال أئمة السلف في بيان المنعم عليهم - « وقال سهل بن عبد الله التستري [3] : هم الذين أنعم الله عليهم بالسنة ، ودليل ذلك :

---

(١) انظر : التيسير في علم التفسير للإمام عمر النسفي تحقيق ودراسة الدكتور جمال مصطفى ٤٤/١ بالرسالة المخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة .

(٢) بعض الآية السابعة من سورة الفاتحة .

(٣) هو العارف بالله تعالى أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التستري المتوفى سنة ٢٨٣ هـ أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الرياضات النفسية والإخلاص وعيوب الأفعال . صحب وتتلمذ على خاله محمد بن سوار وشاهد الإمام ذا النون المصري سنة حجه « انظر طبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي بتحقيق نور الدين شريبة / ص ٢٠٦.

قوله تبارك وتعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ [1] ».

وقال محمد بن علي [2]: « هم الذين أنعم الله عليهم بشكر ما أنعم عليهم ، وذلك لأن النعمة إنما تبقى لمن شكر لا لمن كفر ، فإذا زالت فكأنها لم تكن ».

وقال علي بن الحسين بن واقد [3] : « هم الذين أنعم الله عليهم بالشكر على السراء والصبر على الضراء ، لأن الشكر لا يتم إلا بالصبر ».

وقال الحسن [4]: « هم الصحابة الأربعة ، ودليل ما تلونا : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ [5] »

وقال القشيري [6]: « هم الذين أنعم الله عليهم بالهداية إلى الصراط المستقيم ، لأنها هي المذكورة قبله ، وهم الأنبياء والأصفياء » .

وقال الحسين بن الفضل [7] : « هم الذين أتم الله عليهم النعمة بختمهم

---

(١) سورة الحجرات : ٧-٨.

(٢) لعله يعني به الإمام محمد الباقر بن الإمام على زين العابدين بن الإمام الحسين سبط سيدنا رسول الله ﷺ ، ومن المستبعد أن يكون المعني به محمد بن علي الترمذي لنقله عنه بعد بنعته.

(٣) هو علي بن الحسين بن واقد المروزي « ١٣٥-٢١١ هـ » ذكره ابن حبان في الثقات « انظر ترجمته بميزان الاعتدال للذهبي ١٢٣/٣ وفي تهذيب التهذيب ٣٠٥/٧ ».

(٤) هو الإمام الحسن بن يسار البصري التابعي إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمنه ولد بالمدينة المنورة سنة ٢١ هـ وتوفي بالبصرة سنة ١١٠ هـ « انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ ٧١/١ ».

(٥) بعض الآية الكريمة /٦٩ من سورة النساء .

(٦) هو الإمام الصوفي أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري النيسابوري « ت سنة ٤٦٥ هـ » صاحب الرسالة القشيرية ولطائف الإشارات ، كان علامة زمانه في الشريعة والحقيقة وقدوة عصره سلوكاً وولاية « انظر سير أعلام النبلاء ٢٢٧/١٨٠ »

(٧) هو أبو علي الحسين بن الفضل بن عمير البجلي الكوفي ثم النيسابوري « ١٧٨ - ٢٨٢ هـ » كان إمام عصره في معاني القرآن ، وكان ورده كل يوم وليلة ستمائة ركعة « انظر العبر للذهبي ٤٠٦/١ وطبقات

على الإسلام ؛ لأنه هو النعمة بالحقيقة ».

هذه أقاويل المفسرين ، وفيه أقاويل للمحققين :

قال جعفر بن محمد الصادق [1] ﷺ : « أنعمت عليهم بالعلم بك والفهم عنك ».

وقال محمد بن علي الترمذي [2]: « الذين زممت جوارحهم بالهيبة عند الخدمة ».

وقال أبو العباس بن عطاء [3] : « هم طبقات : فالعارفون أنعم الله عليهم بالمعرفة ، والأولياء : أنعم الله عليهم بالصدق والرضا واليقين والصفوة ، والأبرار : أنعم الله عليهم بالحلم والرأفة ، والمريدون ؛ أنعم عليهم بحلاوة الطاعة ، والمؤمنون : أنعم عليهم بالاستقامة ».

وقال أبو عثمان الحيري [4]: « أنعمت عليهم بأن عرفتهم مهالك الصراط ومكايد الشيطان وخيانة النفس ».

وقال محمد بن الفضل رحمه الله [5] : « أنعمت عليهم بالإعانة على

المفسرين للداودي ١/١٥٦ ».

(١) هو الإمام جعفر بن الإمام محمد الباقر بن الإمام علي بن الإمام الحسين سبط سيدنا رسول الله ﷺ « ٨٠-١٤٨ هـ » غني عن التعريف شرفاً وعلماً وتحققاً « انظر تذكرة الحفاظ ١/١٦٦ وحلية الأولياء ٣/١٩٢ ».

(٢) هو الإمام الرباني المحدث الصوفي محمد بن علي الحكيم الترمذي « ت سنة ٣٢٠ هـ » انظر ترجمته بتذكرة الحفاظ ٢/٦٥٤.

(٣) هو الإمام الصوفي أبو العباس بن أحمد بن سهل بن عطاء البغدادي « ت سنة ٣٠٩ هـ » انظر حلية الأولياء ١٠/٣٠٢.

(٤) هو شيخ الإسلام الإمام أبو عثمان سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور النيسابوري الحيري الصوفي « ٢٣٠ - ٢٩٨ هـ » انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٤/٦٢.

(٥) هو الإمام العارف الزاهد أبو بكر محمد بن الفضل البلخي المعروف بالرواس « ت ٤١٣هـ » قال عنه الذهبي : « كان إليه المنتهى في الوعظ والتذكير ؛ يقال إنه مات في مجلسه أربعة أنفس !! » انظر طبقات

الاستعانة في طريق مناجاتك ».

وقال بعض البغداديين [1]: « صراط من أغنيته عن النظر إلى النعمة بدوام التنعم بقربك ومؤانستك ».

وقيل : « صراط الذين أنعمت عليهم بالنظر إلى جريان ما جرى عليهم في الأزل [2] ، فلم يشغلهم كشف ذلك عن الشغل بك ».

وقيل : « أنعمت عليهم بالإيمان والهداية والتوفيق والرعاية والمراقبة ».

وقيل : « أنعمت عليهم بفناء حظوظهم وقيامهم معك بحسن الأدب ».

وقيل : « أنعمت عليهم بشهود المنعم دون النعمة ».[3]

وقيل : « أنعمت عليهم بإزالة ظلمات الأكوان عن سرائرهم وطهرت أرواحهم بنور قدسك فشاهدوك بهممهم ولم يشاهدوا معك سواك !! ».[4]

وقيل : « أنعمت عليهم بعبادتك على المشاهدة حتى عبدوك كأنهم يرونك ».[5]

وقيل : « أنعمت عليهم بأن أذنت لهم في سؤالك ومناجاتك ».

المفسرين للداودي ٢/٢٢٢ وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني : ١٠/٢٣٢ وطبقات المفسرين للإمام السيوطي : ٣٨.

(١) يعني بعض الصوفية من مدرسة بغداد كالإمام الجنيد البغدادي سيد الطائفة الصوفية والشيخ العارف بالله تعالى رويم بن أحمد البغدادي وغيرهما رضي الله عنهما .

(٢) المراد بذلك : أن هذا الصنف من المنعم عليهم قد وصلوا إلى مرتبة الكشف عما سبق لهم في علم الله ﷻ ومع ذلك لم يشغلهم هذا الكشف عن الله تعالى .

(٣) يقصد بهؤلاء أهل المذكورين في هذه الأقوال الثلاثة أهل المشاهدة وهم أعلى منزلة من أهل المكاشفة السابق ذكرهم .

(٤) السابق.

(٥) السابق.

وقيل : « أنعمت عليهم بالوصل [1] فلم يقفوا في الطريق ».

وقيل : « أنعمت عليهم بالقيام بحقوقك دون التفريج على استجلاب حظوظهم ، وهو قول القشيري ».[2]

وقال أيضاً : « صراط من طهرتهم من آثارهم حتى وصلوا إليك بك ».

وقيل أيضاً : « أي حفظت عليهم آثار الشريعة عند غلبات واردات الحقيقة حتى لم يخرجوا عن حد العلم ، ولم يخلوا بشيء من أحكام الشرع ».

وقيل : « أي أهلتهم لإنعامك وأصلحتهم بالحماية : قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ [3] وهذا في البداية : وقال ﴿ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [4] وهذا في الحال ، وقال تعالى ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [5] وهذا في النهاية »[6] .

إن هذا الشاهد المطول من تفسير أبي حفص ليؤكد لنا اهتمامه الشديد باحتواء أكبر قدر من أقوال الصوفية العارفين في تفسير النص القرآني حيث بلغت هذه النقول الصوفية في تفسير قوله تعالى ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ثمانية عشر نقلا بالإضافة إلى ستة نقول أخرى من أقاويل المفسرين منها نقول ثلاثة عن الإمام التستري والإمام محمد بن على والإمام القشيري ، وهم من سادات الصوفية ، ومن ثم نجد أبا حفص النسفي يصدر عن علماء

---

(١) المراد : الوصول إلى معرفة الله تعالى واستجلاء أنوار أسمائه وصفاته .

(٢) انظر لطائف الإشارات للإمام القشيري بتحقيق الدكتور إبراهيم بسيوني ٦٣/١ نشر الكاتب العربي بالقاهرة .

(٣) سورة الأنبياء : ١٠١.

(٤) سورة الحجرات : ١٧.

(٥) سورة إبراهيم : ٢٧.

(٦) أبو حفص النسفي : التيسير في التفسير بتحقيق د/ جمال مصطفى عبد الحميد ((١٣٤/١ بالرسالة المخطوطة)).

الصوفية تارة باعتبارهم من علماء التفسير، وتارة أخرى باعتبارهم « المحققين» - أي علماء الحقيقة - وبتحليل هذه النقول : نجد أنها تضمنت الكثير من معارف الصوفية ومصطلحاتهم كمقامات الصبر والشكر والمعرفة والرضا واليقين، والمكاشفة، والمشاهدة ، والواردات ، والشريعة والحقيقة وغير ذلك.

الشاهد الثاني :

عند تفسيره قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ (١) نقل الشيخ عمر النسفي عن السادة الصوفية معبراً عنهم بلقب « أهل الحقيقة » في تفسير الإيمان فقال بعد أن بين أقوال أهل الأصول وغيرهم في ماهية الإيمان :

« .... وعلى هذا : ما قال أهل الحقيقة في تفسير الإيمان فهو تفسير كمال حال المؤمنين في مقامات خصال الإيمان ، قال رويم (٢): الإيمان استصغار الكونين عند رؤية المكون ، فلا يستطرفك وارد ولا يسترقك شاهد .

قال فارس (٣) : الإيمان تعظيم الحقيقة في صون الشريعة .

وقال الواسطي (٤) : أول قدم في الإيمان أن لا يجري عليك التلوين فيما

---

(١) سورة البقرة : صدر الآية الكريمة ٢.

(٢) هو الإمام أبو محمد رويم بن أحمد بن يزيد البغدادي المتوفى سنة ٣٠٣ هـ من أجلاء مشايخ الصوفية البغداديين ، وكان فقيهاً على مذهب داود الظاهري ، ومكث عشرين عاما يصلي الصبح بوضوء العشاء « انظر ترجمته بطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ص ١٨٠ وبطبقات الإمام الشعراني ٧٥/١.

(٣) هو - بأغلب الظن - أبو الطيب فارس بن عيسى - وقيل ابن محمد - الصوفي الدينوري ، قال فيه أبو نعيم : « وكان من المتحققين بعلوم أهل الحقائق ، ومن الفقراء المجردين للفقر ، وترك الشهوات ، جالس الجنيد بن محمد ويوسف بن الحسين وأقرانهما من الشيوخ ، ورد نيسابور وخرج - على أكبر ظني سنة أربعين ومائتين وسكن مرو » انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٣٩٠/١٢ وبحاشية طبقات الصوفية للسلمي بتحقيق شريبة ص ٢٢-٢٣.

(٤) هو - بأغلب الظن - الشيخ أبو بكر محمد بن موسى الواسطي وكان يعرف بابن الفرغاني ، قال عنه السلمي « من قدماء أصحاب الإمام الجنيد وأبي الحسن النووي وهو من علماء مشايخ القوم لم يتكلم أحد في أصول التصوف مثلما تكلم هو ، وكان عالماً بالأصول وعلوم الظاهر ، دخل خراسان واستوطن كورة

يرد عليك من نعمة أو بلية ؛ إذ لا فرق بينهما في الحقيقة !!

وقال داود الطائي [1]: الإيمان : ما يورثك النور بعد الظلمة ثم اللين بعد القسوة ثم السنة بعد البدعة ثم التلذذ بالعبادة بعد المجاهدة .

وقال سهل بن عبد الله التستري رَحِمَهُ اللهُ : الإيمان أربعة أركان : التوكل على الله ، والاستسلام لأمر الله ، والرضا بقضاء الله ، والشكر لنعماء الله ، والتقوى باب الإيمان ، واليقين قلب الإيمان ، والصبر عماد الإيمان ، والإخلاص كمال الإيمان » .[2]

ومن هذا الشاهد الإيماني : نستوضح أن أبا حفص قد يمم وجهه شطر الصوفية أهل الحقيقة ليستقي منهم تفسير الإيمان في ذروته حيث يستجلي كمال حال المؤمنين في مقامات خصال الإيمان ، فنقف على أعظم المفاهيم الإيمانية وأروعها ، ففي قمة الإيمان يرى المكون وتستصغر الأكوان ويتلاشى الوارد والشاهد .

وفي قمة التحقق بالإيمان يتجسد تعظيم الحقيقة في صون الشريعة ، ومن ثم تتهافت دعوى إسقاط التكاليف الشرعية التي يلصقها جهلة خصوم الصوفية بالتصوف .

ثم نجد في علياء التحقق بالإيمان ، استواء النعمة والبلية في نظر العارف حيث يكون نظره إلى المنعم والمبتلى !!

كما نستجلي عند العارف الطائي مواريث التحقق بالإيمان في النور

مرو ، ومات بها بعد العشرين وثلاثمائة » انظر طبقات الصوفية للسلمي ص ٣٠٢.

(١) هو الإمام أبو سليمان داود بن نصير الطائي الكوفي المتوفى سنة ١٦٠ هـ من كبار شيوخ القوم أخذ عن العارف حبيب العجمي ، وعنه العارف سيدي معروف الكرخي وكان كبير الشأن في الزهد والورع ، « انظر ترجمته في ميزان الاعتدال للذهبي ٢١/٢ وبطبقات الإمام الشعراني ﷺ ٦٥/١ ».

(٢) أبو حفص النسفي : التيسير في علم التفسير بتحقيق د/ جمال مصطفى ١٦٣/١ – ١٦٤ بالمخطوطة .

واللين والسنة والتلذذ بالعبادة .

ثم نجد الإمام التستري عليه الرضوان يكشف الأستار عن مدخلية مقامات التصوف - التوكل والاستسلام والرضا والشكر - في حقيقة الإيمان فإذا بها أركان للإيمان الكامل .

الشاهد الثالث:

عند تفسير قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [1] يقول الإمام النسفي عليه رضوان الله تعالى - بعد أن ساق أقوال المفسرين من السلف وشرحها - :

« وأما أهل الحقيقة فقد قالوا فيه أقاويل :

قال بعضهم : معناه : خلق لكم ما في الأرض لتتقووا به على طاعته ، لا لتصرفوه في وجوه معصيته .

وقيل : خلق لكم ذلك لتعدوا نعمه عليكم فتقتضوا الشكر من أنفسكم طلبا للمزيد على ما لديكم .

وقال ابن عطاء الله [2]: ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ليكون الكون كله لك ، وتكون أنت بكليتك لله تعالى ، فلا تشتغل بما لك عما أنت له » .

وقال الإمام القشيري رحمه الله : « سخر لكم جميع المخلوقات على معنى حصول الانتفاع بكل شيء منها ، فعلى الأرض تستقرون وتحت السماء تستكنون ، وبكل مخلوق بوجه آخر تنتفعون ، بل : ما من عين وأثر فكرتم فيه

---

(١) سورة البقرة : ٢٩.

(٢) هو الإمام أبو العباس أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الآدمي « ت سنة ٣٠٩ هـ » قال عنه السلمي - في طبقاته ص ٢٦٥ - « من ظراف مشايخ الصوفية وعلمائهم له لسان في فهم القرآن يختص به ، صحبه إبراهيم المارستاني والجنيد بن محمد ومن فوقهما».

إلا وكمال قدرته وظهور ربوبيته به تعرفون »[1]

وهكذا يصدر العلامة النسفي عن أهل الحقيقة روح الحكمة القرآنية ، فيتعرف المؤمن من قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ حكمة الخالق ، لماذا خلق الإنسان وما موقفه من الكون وما دوره بعد تعرف سر هذا الخلق ؟ إنه التوجه بالكلية إلى جناب الحق تبارك وتعالى ، وهذا هو لب التصوف ، وتلك هي رسالة الصوفية .

المعلم الثاني : في سلوك الطريق والمجاهدة :

لأهل الله تعالى أصولهم المستمدة من كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ ، وبنور بصائرهم يستكشفون المعالم والمبادئ والقيم .

وقد وقف العارف النسفي في تفسيره عند هذه المعالم بثاقب عرفانه وبنورانية توجهه إلى علماء الحقيقة ليخرج لنا اللآلئ والدرر فجاء عند معلم السلوك والمجاهدة وقدم لنا فيضاً من زاخر المعرفة الصوفية نقتبس منه هذه الشواهد :

الشاهد الأول :

عند تفسير قوله تعالى ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[2] : تناول بلسان أهل التحقيق من الصوفية العارفين : مدلول الهداية ، وحقيقة الطريق إلى الله تعالى .

ففي تفسير الهداية إلى الصراط المستقيم – وهو طريق الله تعالى قال : بعد أن أورد كلام المفسرين :

---

(١) أبو حفص النسفي : التيسير في علم التفسير بتحقيق د/ جمال مصطفى ٢٧٩/١.

(٢) سورة الفاتحة : ٦.

« ولبعض أهل التحقيق في قوله تعالى ﴿ ٱهْدِنَا ... ﴾ كلمات مليحة – وهو الإمام القشيري – قال : ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ أي : مل بنا إليك ، واجعل إقبالنا عليك ، كن عليك دليلنا ويسر إليك سبيلنا ، واقطع أسرارنا عن شهود الأغيار ، ولوح في قلوبنا طوالع الأنوار ، وأفرد قصورنا إليك عن دنس الآثار ، ورقنا عن منازل الاستدلال إلى ساحة القرب والوصال ، وحل بيننا وبين مساكنة الأمثال والأشكال بما تكاشفنا به من شهود الجلال والجمال ، وأزل عنا ظلمات أحوالنا لنستضيء بأنوار قدسك ، وارفع عنا ظل جهدنا لنستبصر بنجوم جودك ، احفظنا عن النزعات والوساوس والخطرات والهواجس كيلا تستهوينا آفة من فشل أو هوادة أو طبع أو عادة أو كسل أو ضعف إرادة أو طمع مال أو استزادة » .[1]

ثم في بيان الصراط المستقيم – الذي هو طريق الله تعالى قال :

« ... ثم إنه سمى الدين صراطاً مستقيما : لأن من كان له مقصود أو مقصد فإنما يصل إليه بعد قطع الطريق وسلوك سواء السبيل ، والله تعالى متعال عن الأمكنة لكن العبد الطالب صاحب المكان ، فلابد له من قطع المسافات ومس الآفات [2] وتحمل المخافات ، ليكرم بالوصول والموافاة .

وقيل لبعض الكبراء : ما الطريق إلى الله ؟ فقال : عطفتين [3] وقد وصلت، تدور مرة فتنبذ الدنيا وراء ظهرك ، وتدور ثانية فتنبذ العقبى وراء ظهرك ، وقد وصلت !! » [4]

---

(١) أبو حفص النسفي : التيسير في علم التفسير بتحقيق د/ جمال مصطفى ١/١٢٨ بالرسالة الخطية .

(٢) المقصود بقطع المسافات هنا : قطع المسافات المعنوية بسلوك الطريق ، وبمس الآفات : مجاهدة النفس الأمارة بالسوء بمكابدة ما يضنيها ويقتل حظوظها المردية .

(٣) نصب « عطفتين » هنا على المفعولية لفعل محذوف : أي تجوز عطفتين .

(٤) أبو حفص النسفي : التيسير في علم التفسير بتحقيق د/ جمال مصطفى ١/١٣٠ – ١٣١ بالخطية .

هكذا يبين لنا العارف النسفي – أولا – في مدلول طلب الهداية إلى الطريق أنه لابد من توفيق الحق تعالى لعبده في إقباله عليه وصدق توجهه إليه لتيسير قطع منازل السلوك بإزالة القواطع والموانع ، والحجب والأغيار .

كما يبين لنا – ثانيا – سر تسمية الدين صراطاً ، وهو بذلك يؤصل لسلوك الطريق إلى الله تعالى ببيان أن هذا الصراط – الطريق – هو الدين نفسه، وتسميته بذلك منبئة عن حقيقته المتضمنة لقطع المسافات ومس الآفات .

ثم يبين – ثالثاً – أن هذا الطريق عطفتان وبعدهما الوصول ، وهما قطع تعلق القلب بحظوظ الدنيا وكذا بحظوظ الأخرى ، على معنى أن السالك لطريق الله ﷻ لا يجعل مقصوده متاع الدارين وإنما هو الوصول إلى رب الدارين ، والحظوة باستشراف أنوار أسماء الحق تعالى وصفاته ، وهنيئاً لمن يحظى باستشراف أنوار الذات الإلهية !! أما من قطع عن المقصد الأعلى ولو بالوقوف عند وسائله في منازل الطريق فهيهات هيهات الوصول ، وتستجلى ذلك في :

الشاهد الثاني :

عند تفسير قوله تعالى ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ من سورة الفاتحة : أورد الشيخ النسفي أقوالاً صوفية كثيرة – بعد تفاسير السلف – على لسان أهل المعرفة نجتزئ منها ما حكاه بقوله :

« .. وقيل أي ثبتنا على طريق الذين أنعمت عليهم فرضيت عنهم إذا رضوا عنك بما كان عليهم منك ، ولا تجعلنا ممن غضبت عليهم إذا سخطوا عنك بما أصابهم من مكروه سبق به القضاء منك ، ولا من الذين ضلوا عنك الطريق بأن قصدوا في سلوك الطريق عين الطريق ، وإنما أمروا بسلوك الطريق

الموصل إلى من أمرهم بسلوك هذا الطريق فإذا نازلوا الطريق[1] فقد انقطعوا عن الوصول وحجبوا عن الدخول وليس كل من وصل دخل ، ولا كل من دخل قرب ولا كل من قرب بر ، ولا كل من بر خص ، ولا كل من خص بقى ، فكم من مقرب بَعُدَ ومختص طُرِدَ »[2] .هكذا يثبت العلامة النسفي عن العارفين مبدأ في غاية الأهمية ؛ ألا وهو تمحيض القصد وإخلاصه لله تعالى في سلوك الطريق إليه بحيث لا يغتر السالك بالأحوال أو الكرامات أو المكاشفات التي تعرض له في سلوكه ، ولا يأمن مكر الله تعالى حتى لو وصل إلى حضرته ، بل يظل بين الخوف والرجاء معلقا قصده وهمته بربه جَلَّ وعلا .

المعلم الثالث : في الشريعة والحقيقة والظاهر والباطن :

لقد أجلى أبو حفص النسفي ذاتيته الصوفية بإبراز مشارب وأذواق أهل الحقيقة إلى جانب تجسيد سلوكيات الواقفين عند ظواهر الشريعة[3] لتعرف المراتب وتجتلي أسرار المعرفة وحقائق علم الباطن ، ونتعرف ذلك في جملة من الشواهد في تفسيريه «التيسير» و « الأكمل الأطول» .

الشاهد الأول :

عند تفسير قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾[4] .

يجسد العارف النسفي – في تفسير إقامة الصلاة – عطاء الصوفية في

(١) المقصود بقوله « فإذا نازلوا الطريق » هو وقوفهم عند تلك المنازل وانشغالهم بها عن الله .

(٢) أبو حفص النفسي : التيسير في علم التفسير بتحقيق د / جمال مصطفى ١/١٣٩ بالخطية .

(٣) في بيان الشريعة والحقيقة قال الإمام القشيري ﷺ في رسالته ١/٢٤٠ الشريعة : أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة : مشاهدة الربوبية ، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير مقبول ، فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق ، فالشريعة أن تعبده والحقيقة أن تشهده .

(٤) سورة البقرة ٢ / ٣ .

إبراز فكرة الظاهر والباطن في أعمال الصلاة ، إذ يورد عدة أقوال في المراد بإقامتها نذكر منها الوجهين الأخيرين حيث يقول عليه الرضوان :

« والخامس : قول بعضهم : إقامتها : مراعاة حدودها وشرائطها – أي شرائط الجواز والقبول – وشرائط الجواز : ستة قبل الشروع ، وستة بعده ، وهي معروفة . وشرائط القبول : ستة بالظاهر وستة بالباطن.

فالظاهر : الخشوع ، لقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾[1] ، والتقوى ، لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[2] ، وترك أكل الحرام وقول اللغو والكسل والإبطاء .

وأما الباطن : فالإخلاص ، والتفكر ، والخوف ، والرجاء ، ورؤية التقصير والمشاهدة .

والسادس : قول القشيري : إقامتها : القيام بأركانها وسننها :ثم الغيبة عن شهودها برؤية من يصلي له !! يقول الله تعالى « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل لي عملا وأشرك فيه غيري فهو له وأنا منه برئ »[3] .

وعن أبي بكر الشبلي[4] أنه قال : لو نظر قلبي في الصلاة إلى العقبى توضأت ، ولو نظر إلى الدنيا : اغتسلت !!

---

(١) سورة المؤمنون ٢/٢٣ .

(٢) سورة المائدة ٥ / ٢٧ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٠١،٤٣٥/٢) وابن ماجه في سننه : كتاب الزهد : باب الرياء والسمعة رقم ٤٢٠٣-١٤٠٥ .

(٤) هو العارف الكبير أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ وقبره ببغداد، صحب الإمام الجنيد ومن في عصره ، وكان شيخ وقته حالا وظرفا وعلما (انظر ترجمته بالرسالة القشيرية ١٤٨/١).

وقال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾[1]

والخشوع : سكون الظاهر والباطن ، فلا يصرف شيئاً من أعضائه إلى غير السنة ، ولا شيئاً من باطنه إلى غير القربة ، وقال النبي ﷺ حين رأى رجلا يعبث بلحيته في الصلاة: «أما لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه[2] ... »[3].

الشاهد الثاني

يقول العارف النسفي رضوان الله عليه عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ مبرزا أقوال العارفين في تبيان مشربي أهل الشريعة وأرباب الحقيقة .

والسادس : أي : لا يدخرون عن الله شيئاً مما هو لهم ، فينفقون نفوسهم في آداب العبودية ، وينفقون قلوبهم على دوام مشاهدة الربوبية .

فإنفاق أصحاب الشريعة : من حيث الأموال ، وإنفاق أرباب الحقيقة : من حيث الأحوال .

والأجمع أن يقال : إن إنفاق الأغنياء : من أموالهم لا يدخرونها عن أهل الحاجة ، وإنفاق العابدين : من نفوسهم لا يدخرونها عن وظائف الخدمة ، وإنفاق العارفين من قلوبهم لا يدخرونها عن حقائق المراقبة ، وإنفاق المحبين : من أرواحهم لا يدخرونها عن مجاري الأقضية .

والأقصر أن يقال : إن إنفاق الأغنياء من النعم ، وإنفاق الفقراء[4] من

---

(١) سورة المؤمنون / ١-٢ .

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (ص١٨٤) وذكر ابن حجر في الكافي الشافي : أن فيه سليمان بن عمرو النخعي متهم بالوضع ووافقه الحافظ العراقي في تخريج الحديث بالاحياء ١/١٥٠ .

(٣) أبو حفص النسفي : التيسير بتحقيق د / جمل مصطفى ١/١٦٨ -١٦٩ بالخطية .

(٤) المراد بالفقراء هنا – على مصطلح القوم – هم الصوفية ، وحقيقة الفقر عندهم : أن لا يستغنى العبد إلا

الهمم .

فإنفاق الأغنياء : إخراج المال من الجيب ، وإنفاق الفقراء : إخراج الغير من القلب [1] .

الشاهد الثالث :

يوضح لنا العارف النسفي فكرة الشريعة والحقيقة عند تفسير قوله تعالى ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾[2] .

إذ يقول رضوان الله عليه : « فلو قال قائل : كيف قال : « وأزواجه أمهاتهم » وقال من قبل : ﴿... وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ...﴾ [3] إشارة إلى أن غير من ولدت لا تصير أما بوجه ، وكذلك قال تعالى في موضع : ﴿ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ﴾[4] فنقول : قوله تعالى في الآية المتقدمة : ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾[5] .

جواب عن هذا ، معناه : أن الشرع مثل الحقيقة ، ولهذا يرجع العاقل عند تعذر الحقيقة إلى الشريعة ، كما أن امرأتين إذا ادعت كل واحدة ولداً بعينه ولم يكن لها بينة ، وحلفت إحداهما دون الأخرى ، حُكِمَ لها بالولد ، وإن تبين أن التي حلفت دون البلوغ أو بكر ، لم يحكم لها بالولد !!

بالله تعالى ، ورسمه أي تعريفه بالرسم – عدم الأسباب كلها أي عدم تعلق القلب بها « الرسالة القشيرية » ٥٣٨/٢ .

(١) أبو حفص النسفي : التيسير بتحقيق د / جمال مصطفى ١٧٣/١ .

(٢) سورة الأحزاب /٦ .

(٣) بعض الآية الكريمة الرابعة من سورة الأحزاب وصدرها : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾

(٤) سورة المجادلة /٢ .

(٥) ختام الآية الكريمة الرابعة من سورة الأحزاب .

فعلم أن عند عدم الوصول إلى الحقيقة يرجع إلى الشرع ، لا بل في بعض المواضع – على الندرة- تغلب الشريعة الحقيقة ، فإن الزاني لا يجعل أبا لولد الزنا ، إذا ثبت هذا فالشارع له الحكم فقول القائل : « هذا أبي ، قول يفهم لا عن حقيقة ولا يترتب عليه حقيقة ، وأما قول الشارع فحق »[1] .

لقد تجلى لنا في هذا الشاهد – من منظور تفسيري فقهي – معالجة أبو حفص النسفي الرائعة لمفهوم «الشريعة» و «الحقيقة» بما لا يدع مجالا لمنكري الحقيقة عند القوم الصوفية .

كما يؤكد لنا إيمان أبو حفص النسفي بحقيقة الظاهر والباطن في القرآن العزيز شاهد آخر عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولاً مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَـٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [2] إذ قال في وجوه تفسير الكتاب والحكمة : «.. وقيل الكتاب : ظاهر القرآن والحكمة باطنة » [3] » .

المعلم الرابع : في الولاية والأولياء :

لقد تناول الإمام النسفي في تفسيره الحديث عن الولاية والأولياء وعن صفاتهم ومناقبهم حديث الولي العارف الملهم الواقف على أسرار التنزيل ، وها هي تلك بعض الشواهد التي تسطع بأنوار الولاية :

الشاهد الأول :

يقول رضوان الله عليه عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ

---

(١) انظر : الأكمل الأطول للنسفي : دراسة وتحقيق من سورة القصص إلى الزخرف للباحثة سمية ثابت (رسالة ماجستير خطية بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة : ١/٤٥٦) .

(٢) سورة البقرة /١٢٩ .

(٣) أبو حفص النسفي : التيسير بتحقيق د / جمال مصطفى ٢/٤٦٥ بالرسالة الخطية .

يُوقِنُونَ ﴾[1] – بعد تناول رائع لعلم اليقين وحق اليقين .

« .. ثم ذكر في هذه الآية من المؤمنين : الإيقان بالآخرة ، فقال تعالى ﴿ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ وذكر منها الظن في آية فقال : ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[2] وهو لطف من الله تعالى بإثبات صفات لهم يختلف ظواهرها وتتفق معانيها ، وصفهم بالجهل في قوله تعالى ﴿ .. عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ .. ﴾[3] وبالعلم في قوله تعالى ﴿ ... وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ ... ﴾[4]وبالفقر في قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[5] و﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾[6] وبالضعف في قوله تعالى ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾[7] وبالقوة في قوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾[8] وبالذلة في قوله تعالى ﴿ .. أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ .. ﴾[9] وبالعزة في قوله تعالى ﴿ . أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ .. ﴾[10] وبالنسيان في قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ... ﴾[11] وبالذكر في قوله تعالى﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ... ﴾[12] وبالعبودية في قوله تعالى﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴾[13]

---

(١) خاتمة الآية الكريمة الرابعة من سورة البقرة .
(٢) سورة البقرة /٤٦ .
(٣) سورة النحل بعض الآية /١١٩ .
(٤) سورة آل عمران بعض الآية /١٨ .
(٥) سورة فاطر بعض الآية /١٥ .
(٦) سورة النجم /٤٨ .
(٧) سورة النساء بعض الآية / ١٨ .
(٨) سورة الأنفال : الآية /٦٠ .
(٩) سورة المائدة : بعض الآية الكريمة /٥٤ .
(١٠) سورة المائدة : بعض الآية الكريمة /٥٤ .
(١١) سورة الانفطار : صدر الآية السادسة .
(١٢) سورة الأحزاب : بعض الآية الكريمة /٣٥ .
(١٣) سورة مريم /٩٣ .

وبالملك في قوله تعالى ﴿ .. وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا .. ﴾[1] وبأنه أوجدهم أولا على ملكه فقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم .. ﴾[2] ثم أخبر بأنه اشترى المؤمنين فقال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ... ﴾[3] ثم جعلهم في العمل كالأجراء فقال ﴿ .. لَّهُمْ أَجْرُهُمْ .. ﴾[4] ، ﴿ .. لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ .. ﴾[5] ، ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾[6] ثم سماهم أولياء فقال : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ .. ﴾[7] وسمى نفسه وليهم فقال : ﴿ ... وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[8] وذكر محبته إياهم فقال ﴿ .. يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ .. ﴾[9] .

ووجه ذلك كله : أن الظن في ابتداء الحال ، واليقين بعد صحة الخبر والاستدلال ، والجهل : بعاقبة المعصية ، والعلم بحقيقة الشهادة ، والفقر : بأصل الخلقة ، والغنى بنيل الخلعة ، والضعف بالبنية ، والقوة بالهمة ، والذلة : بملاينة الأولياء ، والعزة بمخاشنة الأعداء ، والنسيان بالحيرة ، والذكر : بالمعونة ، والعبودية : بالأصل ، والتمليك : بالفضل ، والاشتراء : للحث على بذل النفس والمال ، لوجود دار الجلال ، والأجر : لتهنئة الثواب ، والولاية والمحبة : لمعاملته معنا معاملة الأولياء والأحباب[10] .

الشاهد الثاني

ونجد الإمام النسفي يتحدث عن الأولياء – نقلا عن لسان أهل البيت

---

(١) سورة المائدة : بعض الآية الكريمة /٢ .
(٢) سورة الروم : صدر الآية / ٥٤ .
(٣) سورة التوبة : صدر الآية /١١١
(٤) سورة البقرة : بعض الآية الكريمة / ٢٦٢ .
(٥) سورة فاطر بعض الآية /٣٠ .
(٦) سورة الزمر : بعض الآية /٧٤ .
(٧) سورة يونس : صدر الآية /٦٢ .
(٨) سورة آل عمران : بعض الآية /٦٨ .
(٩) سورة المائدة : بعض الآية /٥٤ .
(١٠) أبو حفص النسفي : التيسير بتحقيق د / جمال مصطفى ١/١٨٠ .

رضي الله عنهم أجمعين – في مضمار حديثه عن الشهداء في تفسير قوله تعالى ﴿ ... وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾[1] فيقول ﷺ :

« وقال جعفر الصادق[2] ﷺ : الشهداء قتلوا في سبيل الله واستوجبوا الثواب عند الله فهم أحياء مرزقون ، شهداء فرحون .

والذين قتلوا أهواءهم بما قاسوا من قطع هذه العقبات صاروا بالهوى قتلى ، فاستوجبوا على الله إحياء قلوبهم ، فجعلهم شهداء مرزوقين فوائده ولطائفه ، فرحين مستبشرين ، قد يبست عروقهم وسكنت حركاتهم ، وقطعت طلباتهم ووقفوا بين يدى مليكهم ، فهم أحرار خدام !! فطوبى لهم ، هم أولياء الله وأحباؤه »[3] .

هكذا نتعرف من تفسير الإمام النسفي أن الشهداء نوعان : شهداء القتل الظاهر بسيوف الكفار في سبيل الله تعالى ، وشهداء قتل هوى النفس بسيوف المجاهدة في سبيله تعالى للوصول إليه ، فهؤلاء موتى النفوس أحياء القلوب، أحرار الأرواح من السوى ، خدام الحضرة الإلهية وهم الأولياء أحباب الله تعالى ، جعلنا الله تعالى منهم ببركة حبيبه ومصطفاه سيدنا محمد ﷺ .

الشاهد الثالث :

ويبين لنا العارف النسفي – في روعة بالغة – سر انتفاء الموت عن الأولياء ، إذ يقول عند تفسير قوله تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[4] :

---

(١) سورة البقرة /١٥٤ .
(٢) سبق التنويه بترجمته ﷺ .
(٣) أبو حفص النسفي :التيسير بتحقيق د / جمال مصطفى ٥٠٠/١ .
(٤) سورة العنكبوت / ٥٧ .

« لما أمر الله تعالى المؤمنين بالمهاجرة صعب عليهم ترك الأوطان ومفارقة الإخوان . فقال لهم : إن ما تكرهون لابد من وقوعه ، فإن كل نفس ذائقة الموت ، فالموت يفرق الأحباب ، فالأولى : أن يكون ذلك في سبيل الله فيجازيكم عليه فإن إلى الله مرجعكم .

وفيه وجه آخر أرق وأدق[1] : وهو أن الله تعالى قال ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ إذا كانت غير متعلقة بغيرها فهي للموت ثم إلى الله ترجع فلا تموت كما قال تعالى ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ ... ﴾[2] .

إذا ثبت هذا : فالذي يريد ألا يذوق الموت لا يبقى مع نفسه ، فإن النفس ذائقة بل يتعلق بغيره ، وذلك الغير إن كان غير الله فهو ذائق الموت ومورد الهلاك لقوله ﴿ كُلُّ نَفْسٍ﴾ وكل شيء هالك إلا الله كما قال ﴿ .. كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ .. ﴾[3] ، فإذن التعلق بالله يريح من الموت فقال تعالى ﴿ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾[4] ، أي : تعلقوا بي ولا تبتغوا النفس ، فإنها ذائقة للموت ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ :أي : إذا تعلقتم بي فموتكم رجوع إلي وليس بموت كما قال تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[5] وقال ﷺ : «المؤمنون لا يموتون بل ينقلون من دار إلى دار »[1]

(١) هكذا يفصح الشيخ النسفي صراحة عن اتجاهه الصوفي في تفسيره بترجيح متجه العارفين الصوفية الأخيار في تفسير الآية وبتعبيره عنه بأنه أرق وأدق .

(٢) سورة الدخان /٥٦ .

(٣) سورة القصص/٨٨ .

(٤) سورة العنكبوت : ختام الآية ٥٦ وهي السابقة لقوله تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾

(٥) سورة آل عمران /١٦٩ .

فعلى هذا الوجه أيضاً تبين وجه التعلق[٢] .

فيالله ما أروع هذا الاستنباط العرفاني الذي تفرد به العارفون بالله تعالى أهل الصفاء والإلهام ، ولله در أبي حفص النسفي وهو يؤصل لانتفاء موت الأولياء أهل الجهاد الأكبر بدلالة التنزيل الحكيم !!

الشاهد الرابع :

ثم إننا نجد الشيخ النسفي أيضاً يتحدث عن الأولياء بمصطلحاتهم الخاصة ، فيصرح بذكر الأوتاد عند تفسير قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾[٣] حيث بقول « ... فأمره الله تعالى بتقوى أخرى فوق ما يتقيه ، وزاده الله تعالى له درجته ، وفيه إشارة إلى أن البشارة له ، أي يا أيها النبي : أنت ما تبقيت في الدرجة التي يقنع منك بتقوى الآحاد أو بتقوى الأوتاد[٤] ، بل لا يقنع منك إلا بتقوى تنسيك نفسك ، ألا ترى أن الإنسان إذا كان يخاف فوت مال أو هجم عليه غاشم يقصد قتله يذهل عن المال ويهرب ؟؟ فكذلك النبي ﷺ أمر بمثل هذه التقوى ، ومع هذه التقوى لا يبقى الخوف من أحد غير الله تعالى »[٥].

---

(١) لم أقف بعد على تخريج هذا الحديث في مصادر السنة الشريفة ، بيد أني وجدت في تفسير الفخر الرازي (١٥٥/٢٧ط/دار الفكر) عند تفسير قوله تعالى ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ - الدخان /٥٦ - أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال : « أنبياء الله لا يموتون ولكن ينقلون من دار إلى دار » .

(٢) انظر الأكمل الأطول للنسفي من سورة القصص إلى سورة الزخرف دراسة وتحقيق سمية ثابت ٢٨٦/١ .

(٣) صدر سورة الأحزاب .

(٤) الأوتاد : صنف من الأولياء ، وفي تعريفهم يقول الإمام أحمد ضياء الدين الكمشخانوي النقشبندي شيخ شيخي وجدي العارف بالله تعالى سيدي الشيخ جوده إبراهيم رضي الله عنهما - في جامع الأصول ص ٥٤ - (الأوتاد : هما الرجال الأربعة الذين على منازل الجهات الأربعة من العالم ، أي الشرق والغرب ، والشمال والجنوب بهم يحفظ الله تلك البلاد لكونهم محل نظره تعالى) .

(٥) انظر الأكمل الأطول للنسفي بتحقيق سمية ثابت ٤٤٧/١ .

المعلم الخامس : في الأحوال والمقامات :

تناول الإمام النسفي – بلغة العارفين – في تفسيره الأحوال والمقامات التي ترد على قلوب السالكين والواصلين من أولياء الحق المقربين ، وأصل لها بدلالة التنزيل الحكيم أيما تأصيل ، ومن شواهد ذلك :

الشاهد الأول :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [1] قال الإمام النسفي عليه رضوان الله تعالى بعد أن أورد بعض الوجوه التفسيرية المشتهرة عند عامة المفسرين- «.. وقيل : « الخوف» هو خشية القلب من الله تعالى ، و«الجوع» : غلبة شوق العبد إلى لقاء الله تعالى ، « ونقص من الأموال » : هو التجرد عن غير الله تعالى في محبة الله تعالى ، و «الأنفس» : هو تسليم الأنفس إلى الله تعالى ، «والثمرات» : هو بذل الأولاد في رضا الله تعالى ، فالولد : : ثمرة الفؤاد ، وبه ورد الحديث ، «وبشر الصابرين» على هذه الحالات ، الصادقين في هذه المقامات ، وقال النبي ﷺ « إن الله تعالى يقول لملائكته : أقبضتم قرة عين عبدي وثمرة قلبه ؟ فيقولون نعم يا رب ، فيقول الله تعالى : فما صنع عبدي ؟ قالوا : صبر واحتسب ، فيقول الله تعالى : ابنوا له بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد » [2] ، وقال بعض أهل المعرفة[3] : «مطالبات الغيب إما أن تكون بالمال أو بالنفس أو بالأقارب أو بالقلب أو بالروح ، فمن جاد بالمال فله النجاة ، ومن جاد بالنفس فله الدرجات ، ومن صبر على فقد الأقارب : فله

---

(١) سورة البقرة /١٥٥ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/٤١٥) والترمذي في سننه : كتاب الجنائز : بـاب فضـل المصيبة إذا احتسب (٣/٣٣٢) وقال : حديث حسن غريب .

(٣) يعنى به الإمام أبا القاسم القشيري ﷺ حيث يوجد النص التالي في تفسيره لطائف الإشارات ١/١٥٢ .

الخلف والقربات ، ومن لم يدخر عنه الروح : فله دوام المواصلات »[1].

هكذا عرض العارف النسفي لمقامات : الخوف ، الشوق ، والمحبة ، والتسليم والصبر باعتبارها قبل التمكن والدوام أحوالا وردت على القلب بمحض الموهبة دون تعمل ولا اجتلاب حيث لا ظهور في وجودها لصفات النفس ، وبعد تمكنها واستمرارها تكون مقامات .

الشاهد الثاني :

عند تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[2] .

يقول الشيخ النسفي عليه الرضوان من الله ﷻ : إنه تعالى ذكر أمرين الصبر والتوكل ، إذ الزمان على ثلاثة أقسام : ماض وحاضر ومستقبل ، لكن الماضي لا تدارك له ولا يؤمر العبد فيه بشيء ، بقي الحاضر – واللائق به الصبر – والمستقبل – واللائق به التوكل ، فيصبر على ما يصيبه من الأذى في الحال ، ويتوكل فيما يحتاج إليه في الاستقبال .

واعلم أن الصبر والتوكل صفتان لا يحصلان إلا مع الله ﷻ ، ومع العلم بما سواه ، فمن عَلِمَ ما سواه تعالى علم أن ما سواه زائل ، فيهون عليه الصبر ، ومن علم الله علم أنه تعالى دائم الوجود ، فيلزم أن يتوكل عليه لما أنه هو القادر الباقي . والكلام في الصبر والتوكل قد مر في الكتاب ، وذكرها في هذا الموضع مناسب ، فإن قوله تعالى «يا عبادي» كان لبيان أن لا مانع من العبادة ، ومن يؤذى في بقعة فليخرج منها .

وحينئذ : يكون الناس على قسمين : قادر على الخروج – وهو متوكل على ربه بترك الأوطان ومفارقة الإخوان ، وعاجز عن الخروج وهو صابر على

(١) أبو حفص النسفي : التيسير بتحقيق د / جمال مصطفى ١/٥٠١-٥٠٢ بالرسالة الخطية.

(٢) سورة العنكبوت /٥٩ .

تحمل الأذى مواظب على عبادة الله »[1] .

المعلم السادس : في التوسل والتبرك بالصالحين :

لقد تجلى في تفسير أبي حفص النسفي إيمانه العميق بشرعية التوسل والتبرك والتشفع إلى الله تعالى بالأنبياء والأولياء والصالحين ، مستندًا في ذلك إلى النقول والآثار ، كما تجلى في تفسيره أيضاً مشروعية التبرك بآثار النبي ﷺ وبالبقاع المباركة التي ضمت الأنبياء والأولياء ، وهذه بعض الشواهد على ذلك : -

الشاهد الأول :

عند تفسير قوله تعالى ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ .. ﴾[2] أورد أبو حفص النسفي عدة وجوه في تفسير الكلمات فكان منها ما ذكره بسنده قائلا : « .. قيل : هي الصلاة على النبي ﷺ والاستشفاع به ، وقد روى عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال «إن آدم قال : بحق محمد أن تغفر لي ، قال الله تعالى وكيف عرفت محمداً ؟؟ قال : لما خلقتني ونفخت في الروح فتحت عيني فرأيت على ساق العرش مكتوبا (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) فعلمت أنه أكرم الخلق عليك حتى قرنت اسمه باسمك ، فقال نعم ، وغفر له بشفاعته[3] » [4] .

---

(١) انظر الأكمل الأطول في التفسير للنسفي – من سورة القصص إلى سورة الزخرف – بتحقيق سمية ثابت (رسالة ماجستير مخطوطة)١/٢٨٧-٢٨٨ .

(٢) سورة البقرة /١٧.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك(٢/٦١٥ ، وخرجه الحافظ عبد الله ابن الصديق الغماري (في الرد المحكم المتين ص١٢١) عن الطبري في الصغير والبيهقي في دلائل النبوة وابن عساكر في التاريخ ، وذكر الحافظ الغماري بعد بحث طرقه أنه حديث حسن لغيره .

(٤) أبو حفص النسفي : التيسير بتحقيق د / جمال مصطفى ١/٣٢٠ .

الشاهد الثاني :

عند تفسير قوله تعالى ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ .. ﴾[1] تناول الشيخ النسفي مدلول البركة والتبرك وأنواعه ، وسره في الآية الكريمة إذ قال :

« والبركة درور الخير وثبوته ، لأن ما بورك ثبت ، وهو يكون دينيا ودنيويا ، قال تعالى في صفة عيسى عليه السلام ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا ﴾[2] وهذا ديني ، وقال ﴿ .. لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ .. ﴾[3] وهذا دنيوي ، والبركة حول المسجد الأقصى بهما جميعاً ، فإنه مستقر الأنبياء والأولياء وفيه قبور إبراهيم وإسماعيل وإسحق ، وفيه كثيرة المياه والأشجار والأطعمة والثمار ...»[4] .

فانظر كيف علل الشيخ النسفي لمباركة ما حول المسجد الأقصى بكونه مستقر الأنبياء والأولياء ؟ ؛ فأين أولئك الجهلة المكفرون لجمهور الأمة وصفوة الصوفية المتبركين بمواضع الخير ومتنزل الرحمات في رحاب النبي ﷺ وورثته الأولياء الصالحين ؟؟ أين أولئك من هذا الفهم الرباني المستند على الحقائق والأصول الإسلامية ؟؟ .

الشاهد الثالث :

ذكر الإمام النسفي عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن

---

(١) الإسراء /١ .

(٢) سورة مريم /٣١ .

(٣) سورة الأعراف /٩٦ .

(٤) انظر التيسير للنسفي – دراسة وتحقيق من سورة النحل إلى سورة المؤمنون للباحثة عصمت عبد الحفيظ سالم : ص ١٣٨ .

﴿يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا﴾[1] سند التبرك بآثار النبي ﷺ فيما ورد عن سبب نزولها إذ قال « وروى جابر أن النبي ﷺ كان قاعدًا بين أصحابه إذ أتاهم صبي فقال : يا رسول الله إن أمي تستكسيك قميصا ، ولم يكن عند رسول الله ﷺ إلا قميصه ، فقال للصبي : من ساعة إلى ساعة يظهر ، فعاد الصبي إلى أمه فقالت له : قل له إن أمي تستكسيك القميص الذي عليك تتبرك به !!

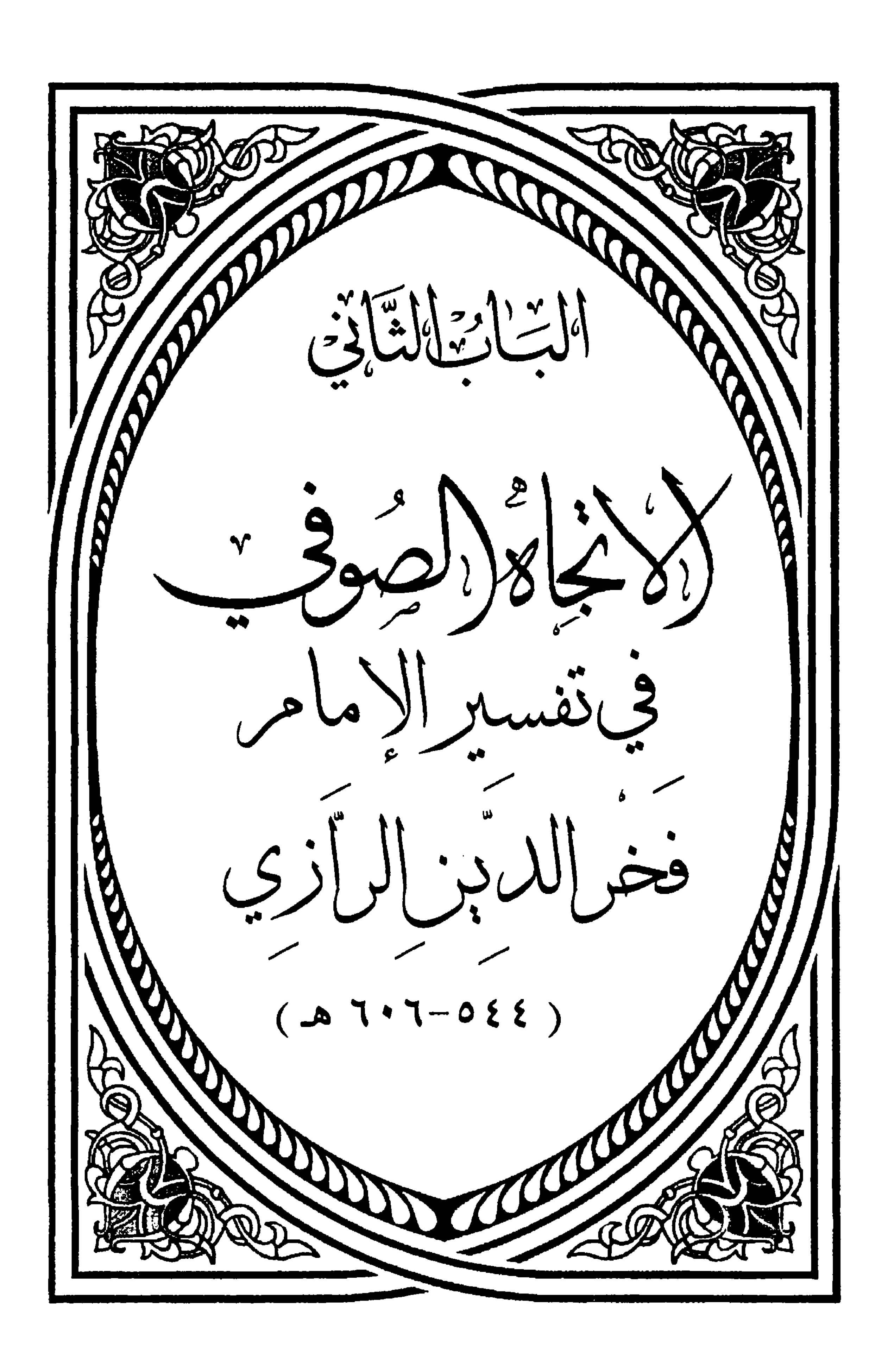
فدخل النبي ﷺ داره ونزع قميصه وقعد عريانا ؛ فأذن بلال للصلاة ، فانتظروه فلم يخرج ؛ فشغل قلب الصحابة فدخل عليه بعضهم فرآه عريانا فلامه فنزلت الآية »[2] صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله وأمدنا بمددك وبركاتك في الدنيا والآخرة . وبعد:

فهذه بعض المعالم والشواهد التي تجسد لنا نورانية الاتجاه الصوفي في تفسير أحد عظام أئمة المفسرين وهو الإمام أبو حفص النسفي ﷺ وأرضاه وحشرنا في زمرته مع العارفين المتحققين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) سورة الإسراء /٣٠ .

(٢) انظر التيسير للنسفي – دراسة وتحقيق من سورة النحل إلى سورة المؤمنون للباحثة عصمت عبد الحفيظ سالم : ص ١٧٩ .



البَابُ الثَّاني

الاتجاهُ الصُوفي في تفسير الإمام فخر الدّين الرّازي

(٥٤٤-٦٠٦ هـ)

مباحث هذا الباب

- حياة الإمام فخر الدين الرازي.
- مكانته العلمية .
- نص رسالة الإمام محي الدين بن عربي إلى الإمام الفخر الرازي .
- المعالم والشواهد الثبوتية التي تمثل اكتمال البناء الصوفي بأبعاده وزواياه المختلفة في تفسير الفخر الرازي
  - المعلم الثبوتي الأول : تصريح الفخر نفسه بصوفيته في تفسيره .
  - المعلم الثبوتي الثاني : إيمان الفخر العميق بنظرية المعرفة عند الصوفية .
  - المعلم الثالث : الشريعة والطريقة والحقيقة .
  - المعلم الرابع : اتخاذ الشيخ المربى لسلوك الصراط المستقيم.
  - المعلم الخامس : في الذكر وأسراره .
  - المعلم السادس : في السلوك والمجاهدات .
  - المعلم الثامن : في الولاية والأولياء .
  - المعلم التاسع : في التجليات الإلهية .
- خاتمة .

لقد حرصت– في تصنيف هذه السلسلة المباركة – أن تضمَّ « الاتجاه الصوفي في تفسير الإمام فخر الدين الرازي » لجملة اعتبارات : من أبرزها : أن هذا الإمام يمثل العديد من الاتجاهات والجوانب العلمية الوفراء ، حمل فيها لواء الريادة والإمامة وحاز قصب السبق على أترابه وأنداده من أساطين العلماء والمفكرين ، ولا يزال لواؤه عبر أكثر من ثمانية قرون مرفرفاً في سماء الفكر الإسلامي ، فإذا ذُكِر أعلام المفسرين ، فالفخر فخرهم ، وإذا ذكر الحكماء المتكلمون ، أطل الرازي من عليا سمائهم ، وإذا دارت رحى الفقهاء والأصوليين، كان فخر الدين قطبهم ، وإذا سئل عن موسوعات علوم الإسلام ومحصلات نتاج الفكر الإنساني برزت تصانيف هذا الإمام تشفي صدور السائلين مبهرة بسطوع ضوئها عقولهم !!

ثم إن الفخر – رضوان الله عليه – عند كثير من أهل العلم لاسيما غير المتصوفة ليس مصنفاً – بفتح النون – في عداد طائفة الصوفية ، حتى يعد إبراز اتجاهه وآرائه الصوفية – لدى خصوم التصوف ضربا من الاستشهاد المقدوح فيه بالممالاء والتحيز والمصانعة ، وإنما هو في منظور عامة العلماء والمفكرين الإسلاميين – سواء من وقف على تصوفه ومن لم يقف – إمام حجة ، وميزان عدل ، وشاهد صدق ، وصاحب برهان وحجة ودليل ، تأفل كواكب السماء وقمرها وشمسها ولا يغيب عن أفق العلم شمس برهانه ، ولا تخفى كواكب حججه ودلائله ، وفي مثله قال القائل :

أمر تقب النجوم من السماء ... نجوم الأرض أبهر في الضياء
فتلك تبين وقتا ثم تخفى ... وهذي لا تكدر بالخفاء
هداية تلك في جنح الدياجي ... هداية هذه كشف الغطاء

إنه الإمام العلامة فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن

الحسين التيمي البكري من ذرية سيدنا أبى بكر الصديق - ﷺ وعنا به في الدارين آمين - الطبرستاني الأصل ، الرازي المولد ، الأشعري العقيدة ، الشافعي المذهب .

مولده ونشأته :

ولد - رضوان الله عليه - في رمضان سنة ثلاث أو أربع وأربعين وخمسمائة هجرية ، وبدأ حياته العلمية بالاشتغال على والده الإمام ضياء الدين عمر خطيب الري ، فأخذ عنه علم الكلام والفقه - وكان من تلامذة محيي السنة الإمام أبي محمد البغوي . وقرأ الحكمة (الفلسفة) على المجد الجيلي بمراغة ، وتفقه على الكمال السمناني ، وكان نهما في تحصيل العلم وحفظه حتى لقد ذكر العلامة السبكي - في ترجمته - أنه حفظ كتاب " الشامل " في علم الكلام لإمام الحرمين [1] وروى عنه أنه كان يقول : « ما أذن لي في تدريس علم الكلام حتى حفظت اثنى عشر ألف ورقة » [2] !!

مكانته العلمية :

وقد تبحر الإمام الفخر في شتى فنون العلوم والمعرفة بعزيمة نادرة وعقلية تتوقد ذكاء - كما وصفه الذهبي - الذي استهل ترجمته له بقوله :

« العلامة الكبير ذو الفنون فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين القرشي البكري الطبرستاني الأصولى المفسر ، كبير الأذكياء والحكماء والمصنفين.. » إلى أن قال : « وانتشرت تواليفه في البلاد شرقا وغرباً وكان يتوقد ذكاء .. » [3]

---

(١) انظر العلامة : تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب بن على السبكي : طبقات الشافعية بتحقيق عبدالفتاح محمد الحلو ، ومحمود محمد الطناحي ٧٦/٨ ط : عيسى الحلبي .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ٣٣/٢ ود/ محسن عبد الحميد : الرازي مفسراً ص ١٩

(٣) الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي : سير أعلام النبلاء ٥٠٠/٢١ - ٥٠١ نشر مؤسسة الرسالة بيروت .

هذا على الرغم من أن الحافظ الذهبي يعد من المتحاملين على الفخر بنسبته له تصانيف في علوم السحر ومخاطبة النجوم ! بيد أن الله تعالى قيض للفخر من نافح عنه كالتاج السبكي الذي قرر أنها مُخْتَلَقَةٌ عليه وراجع شيخه الذهبي في عده الفخر في الضعفاء في الحديث مع أنه لا رواية له فيكون بتحامله قد أدخله في جماعة ليس هو منهم ، أعني : رواة الحديث [1] .

وهكذا تبرز عدالة وإنصاف العلماء في الذب عن الكبار !! ونجد عامة من ترجموا للفخر قد أجمعوا على إمامته وتفرده وتربعه على عرش الإمامة بتبحره وسعة علمه ووفرة ذكائه وكثرة تصانيفه . إذ يقول ابن خلكان في ترجمته : « ... فريد عصره ، ونسيج وحده ، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل ، له التصانيف المفيدة في فنون عديدة ، ومنها تفسير القرآن الكريم جمع فيه كل غريب وغريبة .... » [2] واسترسل صاحب الوفيات في سرد مصنفاته ، أما التاج السبكي فقد نظم الدرر واللآلئ في ترجمة للإمام الفخر ، إذ استهلها بعد ذكر اسمه ونسبه بقوله : « إمام المتكلمين ، ذو الباع الواسع في تعليق العلوم ، والاجتماع بالشاسع من حقائق المنطوق والمفهوم ، والارتفاع قدرا على الرفاق ، وهل يجري من الأقدار إلا الأمر المحتوم ؟؟ بحر ليس للبحر ما عنده من الجواهر ، وحبر سما على السماء ، وأين للسماء مثل ما له من الزواهر ؟؟ وروضة علم تستقل الرياض نفسها أن تحاكي ما لديه من الأزاهر » [3] .

وأطنب التاج السبكي في تدبيج مناقب الفخر وترصيعها بدرر المنطق وفرائد البيان ، فأبان عن خوضه في بحار العلوم العميقة ، ورده لطوائف

(١) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية ٨٨/٨.

(٢) أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان : وفيات الأعيان بتحقيق د/ إحسان عباس ٢٤٩/٤.

(٣) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية بتحقيق عبدالفتاح الحلو ومحمود الطناحي ٨٢/٨.

المبتدعة ، ورسوخه في علوم الحكمة والفلسفة ، حتى جاء دور الشرعيات فقال : « وأما الشرعيات تفسيراً ، وفقهاً ، وأصولاً ، وغيرها : فكان بحراً لا يجارى ، وبدراً إلا أَنَّ هداه يشرق نهارا ، هذا هو العلم كيف يليق أن يتغافل المؤمن عن هذا ؟ وهذا هو ذو الذهن الذي كان أسرع إلى كل دقيق نفاذا ، وهذا هو الحجة الثابتة على قاضي العقل والشرع ، وهذه هي الحجة التي يثبت فيها الأصل ويتفرع الفرع » [1] .

كما شهد ابن الأثير للإمام الفخر بمكانة سامقة في العلم إذ قال فيه : « ... الفقيه الشافعي صاحب التصانيف المشهورة والفقه ، والأصول ، كان إمام عصره » [2]

تجديده للقرن السادس :

ولا أدل على سمو مكانة الفخر الرازي من إطباق أكثرية العلماء لاسيما المتقدمين ذوي الرسوخ والتحقق على أن الإمام فخر الدين كان مجدد القرن السادس الهجري . وقد نص على ذلك الإمام الحافظ السيوطي – رضوان الله عليه – في أرجوزته المسماة « تحفة المهتدين بأخبار المجددين » حيث قال :

والسادس الفخر الإمام الرازي ... والرافعي مثله يوازي [3]

وقد أثبت صاحب « المجددون في الإسلام » أن المتقدمين ذكروا أن الفخر الرازي كان مجدد هذا القرن – كما قال السيوطي في أرجوزته – وقارن بينه وبين الإمام الرافعي بقوله : « وكان الرافعي فقيها شافعياً ، فلا يضاهي الرازي الذي كان يضرب في علوم كثيرة، وكان واسع الاطلاع إلى حد

---

(١) نفس المصدر ٨٤/٨ – ٨٥.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٥٥/١٣ وانظر : الرازي مفسراً للدكتور محسن عبدالحميد /٣١.

(٣) عبد المتعال الصعيدي : المجددون في الإسلام ص ١٢ ، ٢١٥.

كبير »[1] . وممن نقل عن العلماء قولهم بتجديد الإمام الفخر للمائة السادسة أيضاً : الخوانساري والحافظ الداودى وغيرهما .[2]

لقد قدم الإمام الرازي للإنسانية وللتراث الإسلامي رصيداً زاخراً من المؤلفات والموسوعات العلمية في شتى فنون العلم والمعرفة ، سجلها بعض الباحثين بيلوجرافيا في أربع ومائة صفحات [3] لا نطيل الكلام بالخوض فيها بل نشير فقط إلى أنه لم يكتف في جل التخصصات التي صنف فيها بمصنف أو اثنين في كل منها بل نجد له في علم الكلام مثلا : اثنين وعشرين مصنفاً ، منها المطالب العالية وأساس التقديس والمحصول في علم الكلام وغيرها .

كما نجد له **في المنطق والفلسفة** خمسة عشر مصنفاً منها : « الملخص في الحكمة والمنطق » و« كتاب المنطق الكبير ومباحث الوجود والعدم » و« شرح الإشارات والتنبيهات لابن سينا » وغير ذلك .

وفي الفقه واصوله نقف له على ثمانية مصنفات منها : « إحكام الأحكام » و« شرح الوجيز للإمام الغزالي » و« المحصول في أصول الفقه »

وكذلك **في الرياضة والفلك** نجد له ثمانية كتب منها « شرح القانون لابن سينا » و « كتاب التشريح من الرأس إلى الحلق » و « رسالة في علم الهيئة » و« كتاب في الهندسة »

ثم نجد له **في مجال الدراسات القرآنية وعلم التفسير** – مما وقفنا عليه – ستة مصنفات يتصدرها تفسيره الكبير المسمى « مفاتيح الغيب » و « أسرار

---

(١) السابق .

(٢) الخوانساري : روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات ١٩٢/٤ ط القاهرة ١٣٠٦ هـ ، وانظر طبقات المفسرين للداودي ٢١٤/٢ ، نشر مكتبة وهبة ، والرازي مفسراً د. محسن عبد الحميد / ٣١.

(٣) محمد صالح الزركان : فخر الدين وآرائه الكلامية والفلسفية / رسالة ماجستير بمكتبة جامعة القاهرة ، وانظر المصدر السابق ص ٣٨ .

التنزيل وأنوار التأويل » و « تفسير سورة البقرة على الوجه العقلي لا النقلي » و« تفسير سورة الإخلاص » و « رسالة في التنبيه على بعض الأسرار المودوعة في بعض آيات القرآن الكريم ».

وإلى جانب ذلك : طرق الإمام الفخر بتصنيفه مجالات عديدة كالتاريخ وأدب اللغة وعلومها ، والجدل والخلافيات والكيمياء وغير ذلك [١] . وقد صرح كثير من العلماء الأثبات بكثرة تصانيف الإمام الرازي وموسوعيتها ، ومنهم الحافظ ابن كثير الذي قال في ترجمة الفخر :

« ... أحد الفقهاء الشافعية المشاهير بالتصانيف الكبار والصغار نحو من مائتي مصنف » !! [٢]

واستطارت شهرة الإمام الرازي في مختلف الآفاق ، ونال عند السلاطين والحكام أسنى المراتب ، وشغل الناس بمؤلفاته عن كتب متقدميه من العلماء الأساطين وصار معظماً عند العامة والخاصة . يقول الإمام السبكي في ترجمته من طبقاته : « ... واشتهرت مصنفاته في الآفاق ، وأقبل الناس على الاشتغال بها، ورفضوا كتب المتقدمين، وأقام بهراة ، وكان يلقب بها شيخ الإسلام »[٣] . ويذكر صاحب « طبقات الشافعية » أيضا : « أن السلطان " خوارزم شاه " كان يأتي إلى الإمام الفخر ، وكان الإمام إذا ركب يمشي حوله ثلاثمائة نفس من الفقهاء وغيرهم »[٤] كما يذكر أن الإمام « كان شديد الحرص جدا في العلوم ، وأصحابه أكثر الخلق تعظيماً له ، وتأدبا معه ، له عندهم المهابة الوافرة »[٥]

---

(١) د/ محسن عبد الحميد : الرازي مفسراً ص ٣٥ – ٤٧.

(٢) أبو الفدا : الحافظ ابن كثير : البداية والنهاية بتحقيق د/ أحمد أبو ملحم وآخرين ٦٠/١٣.

(٣) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٨٦/٨ .

(٤) نفس المصدر ص ٨٦ – ٨٧ .

(٥) نفس المصدر ص ٨٦ – ٨٧ .

وحينما نرقب الخط البياني للمسيرة العلمية والفكرية لدى الإمام فخر الدين : نجد الطابع العقلاني الموسوعي يمثل السمة الرئيسة البارزة في شخصيته العلمية منذ بداية أطوارها حتى قمة استوائه وتبحره في شتى العلوم وفي مقدمتها علم الكلام الذي تربع على قمته في عصره ، بيد أنه بعد أن أدرك الغاية القصوى في خوض المباحث العقلية والحكمية بشتى فنونها ، وهدّ قواعد المبتدعة وأسقط ألويتهم وصنف ذخائر المصنفات الكلامية والفلسفية والجدلية والرياضية وغيرها وجد أخيراً أن جوهر الحقيقة ونور الهدى واليقين في كتاب الله ﷻ ، وأن اقتباس الحق منه أقرب من نشدانه في علم الكلام ومناهج الفلسفة ، فكان التحول الخطير في شخصية الفخر العلمية ، والانطلاق من قيود العقل إلى رحابة أفق الوحي واستشراف شمس الحقيقة بمشكاة الهدى القرآني المنزه عن الزيغ والزلل .

وعندئذ : ندم الإمام الفخر على دخوله في علم الكلام ، فقد قال ابن الصلاح رَحِمَهُ اللَّهُ أخبرني القطب الطوعانى مرتين : « أنه سمع الإمام فخر الدين يقول : " يا ليتني لم أشتغل بعلم الكلام ، وبكى !! »[1] كما روى عنه قال : « لقد اختبرت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فلم أجدها تروي غليلا ولا تشفى عليلا ، ورأيت أصح الطرق طريقة القرآن ، اقرأ في التنزيه ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ [2] وقوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [3] و ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [4] واقرأ في الإثبات: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [5]، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [6] ، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾[7] واقرأ في أن

(١) الحافظ شمس الدين محمد بن على الداودى : طبقات المفسرين بتحقيق على محمد عمر ٢/٢١٥ .

(٢) سورة محمد : ٣٨.

(٣) سورة الشورى : ١١ .

(٤) سورة الإخلاص : ١.

(٥) سورة طه : ٥.

(٦) سورة النحل : ٥٠.

(٧) سورة فاطر : ١٠.

الكل من الله : قوله ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [1] - ثم قال - : وأقول من صميم القلب من داخل الروح : إني مقر بأن ما هو الأكمل الأفضل الأجل فهو لك ، وكل ما هو عيب ونقص فأنت منزه عنه !! »[2] . وقد صاغ الإمام الفخر نظرته إلى علم الكلام والعلوم العقلية بعد أن ولج ساحة العرفان التنزيلي واستغرق في عباب الأنوار القرآنية والمعارف اللدنية فقال :

نهاية إقدام العقول عقال	وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا	وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
وكم قد رأينا من رجال ودولة	فبادروا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها	رجال فزالوا والجبال جبال[3]

لقد وجه الإمام الفخر نتاج عبقريته وتبحره في كل المجالات العلمية التي ارتادها من كلام وأصول وفقه ونحو وأدب وفلسفة ورياضة وطب إلى غير ذلك مما برع فيه حتى غلب عليه لقب « الإمام » بحيث إذا أطلق عند المتكلمين والأصوليين انصرف إليه .

وقد وجه كل ما حققه من ذلك إلى غاية قصوى وهي الوصول إلى أسرار الحكمة القرآنية التي تتهافت دونها حصائل أفكار الفلاسفة والمتكلمين [4] وكل من يخلد إلى الأرض فيحجب عن نور السماء ، وهل ثمة من نور

(١) سورة النساء : ٧٨.

(٢) الحافظ الداودي : طبقات المفسرين ٢/٢١٥.

(٣) انظر الأبيات في : وفيات الأعيان لابن خلكان ٤/٢٥٠ ط دار صادر ببيروت ، و: طبقات الشافعية للسبكي ٨/٩٦ ط الحلبي .

(٤) الشيخ محمد الفاضل بن عاشور : التفسير ورجاله ص ٧٠-٧٢.

يستعاض به عن نور كلام الله ﷻ ؟ وهل ثمة من حكمة تقاس بحكمة الكتاب العزيز الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ؟؟

إن الدارس لفكر الإمام الرازي وشخصيته – ببعديها : العلمي والروحي – ليرصد له لدى العقد الأخير من القرن السادس – وقبل الأخير من حياته – : نقطتي تحول خطيرتين :

إحداهما : تحوله الفكري والعلمي من الاتجاه العقلي والفلسفي إلى الاتجاه القرآني الذي طوع للبحث فيه كل جنوده من الملكات العلمية التي سبر بها أغوار العلوم الأخرى مضافاً إليها الجانب الإشراقي العرفاني الذي سنوافيه بعد .

واما نقطة التحول الأخرى الخطيرة في حياة الإمام الفخر : فهي تحوله الروحي إلى الاتجاه الصوفي المستمد من هدي القرآن العظيم والسنة المطهرة.

وهذه النقطة قد خفيت على كثير من العلماء والمفكرين والباحثين ، حتى إن بعض من صنفوا عن الإمام الرازي ممن انبهروا بالجانب العقلي في شخصيته نفوا عنه التصوف [1] .

بيد أن الحقائق التاريخية والعلمية تؤكد صراحة وضمناً ، وإشارة : أن الإمام الفخر قد انخرط في سلك السادة الصوفية وأنه انصبغ بصبغتهم النورانية نظرياً وعملياً كما يشهد بذلك مترجموه والباحثون في تراثه ، بل وكما تنطق مصنفاته لاسيما التي صنفها آخر حياته . فمن تصريحات العلماء المؤرخين بتصوفه قول التاج السبكي في ترجمة الفخر من طبقاته : « ... وخاض من

---

(١) ممن ذهب إلى ذلك : الدكتور فتح الله خليف في كتابه « فخر الدين الرازي » ص ٥٩ ط بيروت سنة ١٩٧١ وقد فند زعمه في هذا الصدد : د/ محسن عبد الحميد في « الرازي مفسرا » ص ٣٢٩.

العلوم في بحار عميقة ، وراض النفس في دفع أهل البدع وسلوك الطريقة »[1]، ويعني بهذه الطريقة : طريقة القوم الصوفية رضي الله عنهم وعنا بهم أجمعين .

كما قال في موضع لاحق من نفس الترجمة : « وكانت له يد طولى في الوعظ باللسان العربي والفارسي ، ويلحقه فيه حال ، وكان من أهل الدين والتصوف ، وتفسيره ينبئ عن ذلك »[2] ، وقال صاحب « مفتاح السعادة » في ترجمته للإمام الرازي عليه الرضوان : « واعلم أن الإمام كان من زمرة الفقهاء، ثم التحق بالصوفيه فصار من أهل المشاهدة ، وصنف التفسير بعد ذلك ، ومن تأمل في مباحثه وتصفح لطائفه : يجد في أثنائه كلمات أهل التصوف من الأمور الذوقية »[3] ، كذلك صرح بعض العلماء والباحثين المعاصرين – كصاحب « المجددون في الإسلام » بتحقق الإمام الفخر بأحوال الصوفية ، إذ قال عنه : « .... ثم حدث له بعد أن وصل إلى ما وصل إليه من العلم حالة صوفية مثل التي حدثت للغزالي ، فكانت تنتابه في مجالس وعظه نوبات يصرخ منها مستغيثا ، وقد وعظ يوماً بحضرة السلطان شهاب الدين الغوري ، وحصل له حال : فاستغاث : يا سلطان العالم ، لا سلطانك يبقى ولا تلبيس الرازي يبقى »[4]!!

كما نجد مؤلف « الرازي مفسراً » يقول في دراسته : « إن الذي توصلت إليه من دراسة تفسيره : هو أن له مسلكاً صوفياً خاصاً ، فهو يفهم التصوف

---

(١) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٨٢/٨.

(٢) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٨٢/٨.

(٣) أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ومصباح السيادة : ١٢٢/٢ .

(٤) عبد المنعم الصعيدي : المجددون في الإسلام ص ٢٢٨.

على أنه تطهير أرواح ، وتزكية أنفس ، ولذلك : فإنه لا يعالج موضوعاته تحت مصطلح التصوف وإنما في ضوء ما يستنبطه من الآيات القرآنية » [1] وكذلك نجد الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد يقول في تعريفه بالفخر في مقدمة تفسيره : « ... فقد كان مولعاً إلى حد الغرام بالفلسفة والكلام والجدل وأصول الفقه والتصوف » [2].

ولقد وقفت – من خلال البحث عن الإمام الفخر وتصوفه – على تأثر هذا الإمام بشخصيتين صوفيتين عظيمتين كان لهما أعظم الأثر في تحوله الروحي وانتظامه في سلسلة القوم الصوفية :

أولهما : شخصية الإمام العارف بالله تعالى سيدي أبو الجناب نجم الدين أحمد بن عمر بن محمد الخيوقي [3] المعرف بالكبرى المتوفى سنة ٦١٨ هـ ، هو شيخ الطريقة الكبروية التي تنسب إليه .

قال الإمام السبكي في ترجمته : « كان إماما زاهداً عالماً ، طاف البلاد وسمع بها الحديث ، سمع بالإسكندرية : أبا طاهر السلفي ، وبهمذان : الحافظ أبا العلاء ، وبنيسابور : أبا المعالي الفراوي ... » [4] ، ونقل عن أبي عمرو بن الحاجب أنه قال عنه : « طاف البلاد ، وسمع بها الحديث ، واستوطن خوارزم ، وصار شيخ تلك الناحية ، وكان صاحب حديث وسنة ،

---

(١) د/ محسن عبد الحميد : الرازي مفسراً « رسالة دكتوراه » ص ٣٢١ ط دار الحرية ببغداد .

(٢) محمد محي الدين عبد الحميد : مقدمة تفسير الفخر الرازي . ص (ب) . ط المطبعة المصرية « محمد عبداللطيف » الأولى سنة ١٩٣٣م.

(٣) نسبة إلى « خيوق » بفتح أوله – وقد يكسر – وسكون ثانيه وفتح الواو : بلد من نواحي خوارزم وحض بينهما نحو خمسة عشر فرسخاً . « معجم البلدان ٥١٢/٢ » كما هو مثبت بتعليقات طبقات الشافعية للتاج السبكي ٢٥/٨ ط الحلبي .

(٤) تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية : ٢٥/٨-٢٦.

وملجأ للغرباء ، عظيم الجاه ، لا يخاف في الله لومة لائم »[1] وترجم له صاحب « الشذرات » بقوله : « .... الشيخ الزاهد القدوة : نجم الدين أبو الجناب الخيوقي أحمد بن عمر بن محمد الصوفي المحدث ، شيخ خوارزم ، ويقال له الكبرى ، رحل الأقطار راكبا وماشيا ، وأدرك من المشايخ ما لا يحصى كثرة ، ولبس خرقة التصوف النهرجورية من الشيخ إسماعيل القصري ، والسهرودية – للتبرك – من الشيخ أبي ناصر عمار بن ياسر ، وسبق أقرانه في صغره إلى فهم المشكلات والغوامض فلقبوه « الطامة الكبرى » ، ثم كثر استعماله فحذفوا الطامة وأبقوا الكبرى »[2]

أما قصة التقاء الإمام الفخر بشيخه نجم الدين الكبرى وأخذه عنه الطريق الصوفي فقد رواها صاحب « مفتاح السعادة » قائلا : « وسمعت رجلا ثقة صالحاً عابداً زاهداً عارفاً صادقاً : أنه حكى أن الإمام – أي الفخر[3]- لما دخل « هراة » : أتاه من بها من العلماء والصلحاء والسلاطين والأمراء ، وسأل يوماً : هل بقى أحد تخلف عن زيارتنا ؟

قال أصحابه : نعم ، بقي رجل صالح منقطع في زاوية ،

قال الإمام: أنا رجل واجب التعظيم ، وأنا إمام المسلمين فلم لم يزرني ؟؟

فقالوا لذلك الرجل كلام الإمام ، فما تكلم بشئ أصلا ، ووقع بينهما الخلاف ، فصنع أهل البلدة طعاما فدعوهما ، فأجابا الدعوة ، واجتمعا في حديقة ، فسأله الإمام عن سبب تخلفه عن إتيانه إليه فقال : أنا رجل فقير ، لا

---

(١) السابق .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب : ٥/٧٩.

(٣) هذا التفسير من كلام صاحب هذه السطور لإزالة اللبس، أما صاحب «مفتاح السعادة» فهو فى غنى عنه ، لأن موضوع الكلام إنما هو الترجمة للإمام الرازي .

شرف في زيارتي ، ولا نقص في تخلفي عنها .

قال الإمام : هذا جواب أهل الأدب – يعني : الصوفية [1]- فقل لي حقيقة الحال.

فقال ذلك الرجل : لأي شيء وجبت زيارتك ؟

قال : أنا إمام المسلمين وواجب التعظيم !!

قال : إن افتخارك بالعلم ، ورأس العلوم معرفة الله تعالى ، فكيف عرفته تعالى ؟

قال : بمائة براهين .

قال الرجل : البرهان لإزالة الشك ، والله تعالى جعل في قلبي نوراً لا يدخل معه الشك فضلا عن الحاجة إلى البراهين !! فأثر هذا الكلام في قلب الإمام ، فتاب في ذلك المجلس على يده ، ودخل الخلوة وفتح له ما فتح ، وبعد ما خرج عنها : صنف « التفسير الكبير » . وقال الناقل لهذه الحكاية : وكان ذلك الشيخ أبو الجناب : الشيخ نجم الدين الكبرى قدس الله سره » [2]، وقد وثق الأثبات والمؤرخون التقاء الفخر بشيخه نجم الدين عليهما الرضوان: فقال التاج السبكي في ترجمة سيدي نجم الدين الكبرى : « .. وقال غيره [3] إنه فسر القرآن العظيم في اثنتى عشرة مجلدة ، واجتمع به الإمام فخر الدين الرازي»[4]. كما أيد ذلك ابن العماد إذ قال في ذات الترجمة في « الشذرات» :

---

(١) هذا التفسير من كلام مصنف « مفتاح السادة » لبيان الإجمال في لفظ « أهل الأدب ».

(٢) أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاره : مفتاح السعادة : ٢/١٢٢-١٢٣ نشر دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

(٣) أي : غير ابن الحاجب الذي نقلنا عبارته في ترجمة الشيخ نجم الدين الكبرى آنفاً .

(٤) السبكي : طبقات الشافعية : ٨/٢٦.

« وعني بمذهب الشافعي والتفسير ، وله تفسير في اثنتى عشرة مجلدة ، واجتمع به الإمام فخر الدين الرازي فاعترف بفضله »[1] .

ومن السياق الرائع لأحداث لقاء الإمام الفخر مع شيخه أبى الجناب الكبرى : نقف على حقيقة بالغة الأهمية في دراسة تراث الإمام الرازي وتفهم شخصيته ، وهي أنه قد صنف تفسيره الكبير المسمى « مفاتيح الغيب » بعد أن سلك الطريقة الكبروية الصوفية على يدي شيخها نجم الدين ، ودخل الخلوة ، وفتح عليه ، وصار من أهل الكشف والشهود والعرفان ، ولا شك أن إدراك هذه الحقيقة مفتاح لفهم إشاراته ورمزياته وقبساته الصوفية الإشراقية الفيضية المنبثة في مختلف آفاق تفسيره .

وأما الشخصية الصوفية العظمى الثانية التي كان لها الأثر العظيم في تصوف الإمام الرازي : فهي شخصية سلطان العارفين وختم الأولياء المحمديين : الشيخ الأكبر سيدي الإمام محي الدين بن عربي قدس الله سره ورضي عنه وعنا به في الدارين آمين . قال الحافظ الذهبي في ترجمته : « العلامة صاحب التواليف الكثيرة : محي الدين أبو بكر محمد بن علي بن محمد بن أحمد الطائي الحاتمي المرسي بن العربي نزيل دمشق . ذكر أنه سمع من ابن بشكوال ، وابن صاف ، وسمع بمكة من زاهر بن رستم ، وبدمشق من ابن الحرستاني ، وببغداد ، وسكن الروم مدة ، وكان ذكياً كثير العلم ، كتب الإنشاء لبعض الأمراء بالمغرب ، ثم تزهد وتفرد ، وتعبد وتوحد، وسافر وتجرد ، واتهم وأنجد وعمل الخلوات ... » ، ثم ذكر الخلاف فيه بين مؤيد ومعارض إلى أن قال : « توفي في ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وقد أورد عنه في التاريخ الكبير ، وله شعر رائق وعلم واسع وذهن

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب : ٧٩/٥ نشر المكتب التجاري للطباعة والنشر ببيروت .

وقاد ، ولا ريب أن كثيراً من عباراته له تأويل إلا كتاب « الفصوص » »[1].
هذا قول الذهبي في الإمام محي الدين مع أنه من أشد خصومه !! .

أما عارفو فضل هذا الإمام الصوفي العظيم – أهل الإنصاف والعرفان – فقد أشادوا بسمو منزلته ورفيع مكانته ، وصاغت ألسنتهم وأقلامهم عقود الثناء عليه بما هو به قمين ، فأثنى عليه من مشايخ الإسلام والأئمة المجتهدين من يتعذر استقصاؤهم ، وقد أثبت بعض المصنفين في ترجمته شهادة أكثر من مائة شيخ إسلام فيه بالثناء عليه كالعز بن عبد السلام والرازي وابن الزملكاني ، والنووي ، واليافعي ، والحلائي والبلقتين ، والسيوطي وغيرهم[2] وقال الإمام الرباني سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله تعالى عنه وعنا به في ترجمته من « الطبقات الكبرى » :

« ومنهم الشيخ العارف الكامل ، المحقق المدقق ، أحد كبار العارفين بالله سيدي محي الدين بن العربي ﷺ – بالتعريف كما رأيته بخطه في كتاب نسب الخرقة ﷺ –أجمع المحققون من أهل الله ﷻ على جلالته في سائر العلوم كما يشهد لذلك كتبه ، وما أنكر من أنكر عليه إلا لدقة كلامه لا غير ، فأنكروا على من يطالع كلامه من غير سلوك طريق الرياضة خوفاً من حصول شبهة في معتقده يموت عليها لا يهتدي لتأويلها على مراد الشيخ »[3]

وقد صنف الإمام الحافظ سيدي جلال الدين السيوطي رضوان الله عليه كتابا في الدفاع عن سيدي محيي الدين بن عربي ﷺ والتعريف بفضله وعرفانه وعظيم ولايته أطلق عليه « تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي » قال في صدره :

(١) الحافظ الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤٨/٢٣-٤٩ نشر مؤسسة الرسالة .
(٢) محمد رياض المالح : مقدمة « تحفة السفرة إلى حضرة البررة » للشيخ محي الدين ص ١٤ نشر دار الكتاب اللبناني .
(٣) الإمام الرباني سيدي عبدالوهاب الشعراني ﷺ : الطبقات الكبرى ١٥٩/١ ط الشرقية .

« اختلفت الناس قديماً وحديثاً في ابن عربي : ففرقة : تعتقد ولايته وهي المعينة المصيبة المحقة ، ومن هذه الفرقة : الشيخ تاج الدين بن عطاء الله – من الأئمة المالكية – والشيخ عفيف الدين اليافعي من الأئمة الشافعية فإنهما بالغا في الثناء عليه ، ووصفاه بالمعرفة .

وفرقة تعتقد ضلالته ، منهم طائفة كثيرة من الفقهاء .

وفرقة تسكت في أمره ، ومنهم الحافظ الذهبي في « الميزان » .

وعن الشيخ عز الدين بن عبد السلام فيه كلامان : الحط عليه ، ووصفه بأنه القطب . والجمع بينهما : أن الشيخ عز الدين كان في أول أمره على طريقة الفقهاء من المسارعة إلى الإنكار على الصوفية ، فلما حج الشيخ أبو الحسن الشاذلي ورجع ، جاء إلى الشيخ عز الدين قبل أن يدخل بيته ، وأقرأه السلام من النبي ﷺ ، فخضع الشيخ عز الدين لذلك ، ولزم مجلس الشاذلي من حينئذ، وصار يبالغ في الثناء على الصوفية لما فهم طريقتهم على وجهها ، وصار يحضر معهم مجالس السماع .... » [١]

لقد شهد أئمة العلماء برسوخ الإمام محي الدين في علوم الشريعة والحقيقة وبتبحره في شتى فنون المعرفة حتى قال صاحب « الشذرات » في ترجمته : « ... وحسبك بقول زروق وغيره من الفحول ذاكرين بعض فضله : هو أعرف بكل فن من أهله ، وإذا أطلق الشيخ الأكبر في عرف القوم فهو المراد » !! [٢] وشهد له الأثبات أيضاً ببلوغه درجة الاجتهاد المطلق ، وعدوه من حفاظ الحديث الشريف وأذعنوا برسوخه في علوم الحقائق ، فقد نقل ابن

---

(١) الإمام الحافظ سيدي جلال الدين السيوطي ﷺ : تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي ضمن مجموع طبع بالأوفست باعتناء حسين حلمي بن سعيد إستامبولي نشر مكتبة الحقيقة باستامبول بتركيا سنة ١٤٠٣ هـ .

(٢) ابن العماد : شذرات الذهب ١٩٠/٥.

العماد عنه أنه قال : « أعرف الاسم الأعظم وأعرف الكيمياء بطريق المنازلة لا بطريق الكسب » (١)

كما نقل عنه قوله في نونيته :

لست ممن يقول قال ابن حزم   لا ولا أحمد ولا النعمان

وعلق عليه بقوله : « وهذا صريح بالاجتهاد المطلق . كيف لا وقد قال : عرضت أحاديثه ﷺ جميعها ، عليه فكان يقول عن أحاديث صحت من جهة الصناعة : ما قلتها ، وعن أحاديث ضعفت من جهتها : قلتها ، وإذا لم يكن مجتهدا فليس لله مجتهد » (٢) !! . وقد عد العلماء مصنفاته فوجدوها قد بلغت زهاء خمسمائة ، وإنها ليتمثل بها بين العامة (٣) ، هذا عن التآليف البارزة ، أما عن كل ما ألف الشيخ الأكبر : فقد ذكر بعض الباحثين المعاصرين أنه قد جمع له في ترجمته ما يقارب تسعمائة كتاب ، بل إن المَجمع العلمي في دمشق قد نشر رسالة للشيخ الأكبر قال في آخرها : « إن بعض المحبين قد ضبط لنا نحو أربعة آلاف مصنف ما بين رسالة صغيرة في كراسين وما بين كتاب في مجلدات كبيرة » (٤)!!

هذه الشخصية الصوفية بما لها من عظيم المكانة وسمو المنزلة – التي لم نتناول إلا طرفا يسيراً من مآثرها – كانت المؤثر الرئيسي الثاني في تحول إمامنا الفخر الرازي إلى الاتجاه الصوفي .

أما كيف حدث ذلك ؟؟ فإن المصادر المترجمة للشيخ الأكبر محيي الدين

---

(١) نفس المصدر ٥/٢٠٠ وانظر مقدمة: مشكاة الأنوار فيما رُوِيَ عن الله سبحانه من الأخبار.

(٢) السابق .

(٣) الشيخ محمد رجب حلمي : البرهان الأزهر في مناقب الشيخ الأكبر ص ٣٩ ط / السعادة بمصر .

(٤) محمد رياض المالح : مقدمة : تحفة السفرة إلى حضرة البررة ص ١٢ وفيه العزو إلى مجلة المجمع اللغوي بدمشق : المجلد / ٢٩ حيث نشر لها كوركيس عواد رسالة الشيخ الأكبر.

قد أثبتت أنه أرسل رسالة إلى الفخر الرازي ، فكانت سببا في تحبيب العزلة والعبادة إليه [1] ، ويفصل القارئ البغدادي ذلك وهو يتناول « أنصار الإمام ابن عربي » بقوله : « فأما الإمام الفخر الدين الرازي ﷺ فكان الشيخ محيي الدين ﷺ بإرشاده له : الأساس في انقطاعه عن الخلق ، وانعزاله عن الناس . وذلك : أن الشيخ محي الدين ﷺ بلغه أن الإمام فخر الدين الرازي كان ذات يوم جالساً بين أحبابه ، وخواص أصحابه ، فبكى بكاء شديداً حتى كاد يغشى عليه ، وخاف من كان لديه ، فلما أفاق وكفكف دمعه المهراق ، سأله بعض جلسائه: عن سبب بكائه ؟ فقال : مسألة اعتقدتها منذ ثلاثين عاما ، تبين لي الساعة – بدليل لاح لي – أن الأمر على خلاف ما كان عندي ، فبكيت ، وقلت لنفسي : لعل الذي لاح لي الآن مثل الأول !! فلما بلغ الشيخ محيي الدين ﷺ ذلك : انتهز الفرصة في إيقاظه بإعراضه عن العلوم النظرية ، والتعرض للنفحات الإلهية ، وقطع كل رابطة ، والأخذ عن الله تعالى بغير واسطة ، فكتب له من علمه المكنون : رسالة ، من حقها أن تكتب بسواد العيون ، وكثير » [2] ، ومن المرجح لدى محقق الرسالة أنها قد ألفت ما بين سنة ٥٩٨ هـ تلك الرسالة عندي ، وبأيدي الناس ، ولولا خوف الإطالة لذكرتها ، فكانت سبباً لاعتزاله وتبديل أقواله بأحواله ، وأصرت فيه غاية التأثير ، وأفاضت عليه كل خير ، وهي السنة التي استقر فيها الإمام الرازي بهراة – وسنة ٦٠٦ هـ تاريخ وفاته . وقد ثبت أن الشيخ الأكبر محيي الدين قد تواجد في الموصل – وهي من

---

(١) أبو الحسن القارئ البغدادي : الدر الثمين في مناقب الشيخ محيي الدين بتحقيق د. صلاح الدين المنجد ص ٢٥ – ٢٦ نشر مؤسسة التراث العربي .

(٢) نفس المصدر السابق : ص ٢٦ والنص المذكور مثبت بمقدمة رسالة الشيخ محيي الدين بن عربي إلى الشيخ الفخر الرازي ، بتحقيق زميلنا الأستاذ الدكتور محمد مصطفى ص : ٣٠-٣١ ط دار الطباعة المحمدية بمصر.

مراكز الاهتمام بمؤلفات الإمام الرازي – وذلك سنة ٦٠١ هـ عدة مرات [1] .
ونظراً لعظم ونظر شأن هذه الرسالة التي بعث بها الشيخ الأكبر إلى الإمام الفخر وعلو مرقاها في الحقائق ونفاسة قدرها في المعارف فإني أثبتها ههنا وثيقة عظمى في المعرفة الصوفية يتجسد لنا من خلالها مدى الأثر الذي تركته في الإمام الرازي وانعكس في تفسيره الكبير للقرآن العظيم وهذا نص :

رسالة الإمام محي الدين بن عربي إلى الفخر الرازي :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، وعلى وليي في الله تعالى فخر الدين أبي عبد الله : محمد بن عمر بن الحسين الرازي أعلى الله همته ، وأفاض عليه رحمته وبركاته .. أما بعد :-

فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وقال رسول الله ﷺ « إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه إياه » [2]، وأنا أحبك ، ويقول الله تعالى ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ [3] وقد وقفت على بعض تواليفك ، وما أيدك الله به من القوة المتخيلة . وما تتخيله من الفكر الجيد ، ومتى ما تغذت النفس كسب يدها فإنها لا تجد حلاوة الجود والوهب ، وتكون ممن أكل من تحت رجله ، والرجل من أكل من فوقه ، كما قال الله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [4] وليعلم وليي – وفقه الله تعالى – أن الوراثة الكاملة هي التي تكون من جميع الوجوه ، لا

(١) نفس المصدر السابق : ص ٢٤ – ٢٦.
(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٥٤ وأبو داود في الأدب ١١٣ والإمام أحمد في المسند ١٣٠/٤.
(٣) سورة العصر : من الآية الكريمة ٣.
(٤) سورة المائدة : ٦٦ .

من بعضها ، « والعلماء ورثة الأنبياء »[1] فينبغي للعاقل العالي الهمة أن يجتهد لأن يكون وارثاً من جميع الوجوه ، ولا يكون ناقص الهمة ، وقد علم وليي – وفقه الله تعالى – أن حسن اللطيفة الإنسانية إنما يكون بما تحمله من المعارف الإلهية ، وقبحها بضد ذلك ، وينبغي للعاقل العالي الهمة أن لا يقطع عمره في معرفة المحدثات وتفاصيلها فيفوته حظه من ربه ، وينبغي له أيضاً : أن يسرح نفسه من سلطان فكره ، فإن الفكر يعلم مأخذه ، والحق المطلوب ليس ذلك ، وأن العلم بالله خلاف العلم بوجود الله !! فالعقول تعرف الله من حيث كونه موجوداً ، ومن حيث السلب لا من حيث الإثبات ، وهذا خلاف الجماعة من العقلاء والمتكلمين إلا سيدنا أبا حامد الغزالي قدس الله سره فإنه معنا في هذه القضية. ويجل الله ﷻ أن يعرفه العقل بنظره وفكره فينبغي للعاقل أن يخلي قلبه عن الفكر إذا أراد معرفة الله تعالى من حيث المشاهدة !! وينبغي للعالي الهمة : أن لا يكون تلقيه عند هذا من عالم الخيال وهي الأنوار المتجسدة الدالة على معان وراءها ، فإن الخيال ينزل المعاني العقلية في القوالب الحسية كالعلم في صورة اللبن ، والقرآن في صورة الحبل[2]، والدين في صورة القيد[3] وينبغي للعالي الهمة : أن لا يكون معلمه مؤنثا ، فيتعلق بالأخذ من النفس الكلية كما ينبغي له : أن لا يتعلق بالأخذ من فقير أصلا ، وكل ما لا كمال له إلا بغيره فهو فقير فهذا : حال كل ما سوى الله ﷻ ، فارفع الهمة في أن لا تأخذ علما إلا منه سبحانه على الكشف ، فإن عند المحققين : أن لا

---

(١) خرجه العراقي في المغني عن حمل الأسفار بهامش الأحياء ٦/١ عن أبي داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان في صحيحه من حديث أبي الدرداء .

(٢) أي : كما روي عن النبي ﷺ من قوله « كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض » أخرجه مسلم في فضائل الصحابة : ٣٧ والترمذي في المناقب ٣١ والدار من في فضائل القرآن : ١ .

(٣) أي : كما أخرجه البخاري في باب القيد في المنام عن ابن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ مدرجا في حديث « إذا اقترب الزمان لم تكد تكذب رؤيا المؤمن » من قولهم: « القيد ثبات في الدين » وانظر مسلم : الرؤيا : ٦ وأبو داود : الأدب ٨٨ والترمذي : رؤيا ، وابن ماجة : رؤيا : ١٠ .

فاعل إلا الله تعالى.

فإذاً : لا يأخذون إلا عن الله ، لكن عقدا لا كشفا ، وما فاز أهل الهمة إلا بالوصول إلى عين اليقين أنفة من البقاء مع علم اليقين !! واعلم أن أهل الأفكار إذا بلغوا فيها الغاية القصوى : أداهم فكرهم إلى المقلد المصمم ، فإن الأمر أعظم من أن يقف فيه الفكر ، فما دام الفكر موجوداً : فمن المحال أن يطمئن العقل ويسكن : وللعقول حد تقف عنده من حيث قوتها في التصرف الفكري ، ولها صفة القبول لما يهبه الله تعالى .

فإذاً : ينبغي على العاقل : أن يتعرض لنفحات الجود ، ولا يبقى مأسوراً في قيد نظره ، وكسبه ، فإنه على شبهة في ذلك . ولقد أخبرني من أثق به من إخوانك ، وممن له فيك نية حسنة جميلة : أنه رآك وقد بكيت يوماً ، فسألك هو ومن حضر عن موجب بكائك ؟ فقلت : مسألة اعتقدتها منذ ثلاثين سنة فتبين لي الساعة – بدليل لاح لي – أن الأمر على خلاف ما كان عندي ، فبكيت وقلت : ولعل هذا الذي لاح لي أيضاً يكون مثل الأول !! فهذا قولك . ومن المحال على العارف بمرتبة العقل والفكر أن يسكن أو يستريح – ولاسيما في معرفة الله تعالى – إذ من المحال أن تعرف ماهيته بطريق النظر !! فما لك يا أخي تبقى في هذه الورطة ولا تدخل في طريق الرياضات ، والمجاهدات والخلوات التي شرعها رسول الله ﷺ فتنال ما نال ﷻ ﴿ عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [1] ؟؟

ومثلك من يتعرض لهذه الخطوة والمرتبة العظيمة الرفيعة ، وليعلم وليي – وفقه الله تعالى – أن كل موجود عند سبب ، ذلك السبب مُحدَث مثله : فإن له وجهين : وجه ينظر به إلى سببه ، ووجه ينظر به إلى موجده وهو الله ﷻ ،

(١) سورة الكهف : من الآية الكريمة ٦٥ .

فالناس كلهم ناظرون إلى وجوه أسبابهم ، والحكماء من الفلاسفة وغيرهم ، إلا المحققين من أهل الله تعالى . هم الأنبياء والأولياء والملائكة – عليهم الصلاة والسلام فإنهم مع معرفتهم بالسبب ناظرون – من الوجه الآخر – إلى موجدهم . ومنهم : من نظر إلى ربه من وجه سببه لا من وجهه ، فقال : « حدثني قلبي عن ربي » وقال الآخر : - وهو الكامل - « حدثني ربي » وإليه أشار صاحبنا العارف [1] بقوله : « أخذتم علمكم عن الرسوم : ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت » ، ومن كان وجوده مستفاداً من غيره ، فحكمه عندنا حكم لا شيء ، فليس للعارف معول على غير الله البتة !! ثم ليعلم وليي – وفقه الله – أن الحق وإن كان واحدا ، فإن له إلينا وجوها كثيرة مختلفة ، فاحذر عند الموارد الإلهيات وتجلياتها من هذا الفصل ، فليس الحق من كونه " ربا " عندك حكمه كحكمه " مهيمنا " ولا حكمه من كونه " رحيما " كحكمه من كونه " منتقما " ، وكذلك جميع الأسماء . واعلم أن الوجه الإلهي – الذي هو اسم " الله " – اسم جامع لجميع الأسماء مثل : " الرب " والقدير والشكور ، وجميعها كالذات الجامعة لما فيها من الصفات . فاسم الله تعالى مستغرق جميع الأسماء فتحفظ المشاهدة منه فإنك لا تشاهده مطلقاً ، فإذا ناجاك به – وهو الجامع – فانظر ما يناجيك به وانظر المقام الذي تقتضيه تلك المناجاة أو تلك المشاهدة وانظر : « أي اسم من الأسماء الإلهية ينظر إليك ، فذلك الاسم هو الذي خاطبك أو شاهدته وهو المعبر عنه بـ " التحول في الصورة " » ، كالغريق إذا قال : يا الله ، فمعناه : يا غياث ، أو : يا منجي ، أو يا منقذ ، وصاحب الألم إذ قال : يا الله ، فمعناه : يا شافي أو يا معافي ، وما أشبه ذلك !!

---

(١) يعني به سيدنا أبا يزيد البسطامي قدس الله سره والنص في كتاب النور من كلمات أبي طيفور المنسوب للسهلجي وقد حققه ونشره د/ عبد الرحمن بدوي بعنوان : شطحات الصوفية .

وقولي لك : " التحول في الصورة " : ما ذكره مسلم في صحيحه : « أن الباري تعالى يتجلى ، فينكر ويتعوذ منه ، فيتحول لهم في الصورة التي عرفوه بها ، فيقرون بعد الإنكار »[1]. وهكذا هو معنى المشاهدة هنا ، والمناجاة ، والمخاطبات الربانية ، وينبغي للعاقل : ألا يطلب من العلوم إلا ما يكمل ذاته ، فينتقل معه حيث انتقل ! وليس ذلك إلا العلم بالله تعالى ، من حيث الوهب والمشاهدة ، فإن علمك بالطب مثلا إنما يحتاج إليه في عالم الأسقام والأمراض ، فإذا انتقلت إلى عالم ما فيه مريض ، ولا سقم ، من تداوى بذاك العلم ؟؟ فالعاقل لا يسعى من حيث أن يكون له غيره ، وإن أخذه من طريق الوهب – كطب الأنبياء عليهم السلام – فلا يقف معه ، وليطلب العلم بالله ، وكذا العلم بالهندسة : إنما يحتاج إليه في عالم المساحة ، فإذا انتقلت تركته في عالمه ، ومضت النفس ساذجة ليس عندها شيء ، وكذلك الاشتغال بكل علم تركته النفس عند انتقالها إلى عالم الآخرة ، فينبغي للعاقل : أن لا يأخذ إلا ما مست الحاجة الضرورية إليه ، وليجتهد في تحصيل ما ينتقل معه حيث انتقل ، وليس ذلك إلا علمان خاصة : العلم بالله تعالى ، والعلم بمواطن الآخرة ، وما تقتضيه مقاماتها حتى يمشي فيها كمشيه في منزله ، فلا ينكر شيئاً أصلاً ، فإنه من أهل العرفان لا من أهل النكران ، وتلك المواطن : مواطن التمييز لا مواطن الامتزاج التي تعطى الغلط!!

ويخلص : إذا حصل في هذا المقام أن يتميز من حزب الطائفة التي قالت عندما تجلى لها ربها : « نعوذ بالله منك ، لست ربنا » ها نحن منتظرون حتى يأتينا ربنا !! فلما جاءهم في الصورة التي عرفوه فيها أقروا به ، فما أعظمها من حيرة !! فينبغي للعاقل : الكشف عن هذين العلمين بطريق الرياضة ،

---

(١) يشير إلى ما أخرجه مسلم في الإيمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم سبحانه وتعالى ، من حديث طويل عن أبي هريرة ﷺ كما أخرج البخاري نحوه في التوحيد .

والمجاهدة ، والخلوة .[1] على الطريقة المشروعة ، وكنت أريد أن أذكر الخلوة وشروطها ، وما يتجلى فيها على الترتيب ، شيئاً بعد شيء ، لكن : منع من ذلك الوقت ، وأعني بالوقت : علماء الرسوم الذين أنكروا ما جهلوا ، وقيدهم التعصب ، وحب الظهور والرياسة عن الإذعان للحق ، والتسليم له ، إن لم يمكن الإيمان به ا.هـ » [2] .

لقد آثرت إثبات الرسالة بتمامها ههنا لما تحتويه من حقائق ومعارف صوفية في الذروة العليا من الشمرخ العرفاني ، ولتناولها لب رسالة العارفين بالله تعالى ، والدعاة إليه مع تقديم الصورة المشرقة لنظرية المعرفة عند السادة الصوفية قدس الله أسرارهم ، فهي منهاج السلوك العرفاني الحق الذي يرتقى بالمسلم عن الأخذ عن المحدثات إلى التلقي الوهبي عن الله ﷻ ، إنها وثيقة المعرفة ودليل الوصول إلى غاية المأمول !! من ثم : كانت هذه الرسالة بما حفلت به من النَّفَس الروحي " المدد " : هي المؤثر الآخر الخطير في حياة الإمام فخر الدين الرازي المتضافر مع التقائه بشيخه نجم الدين الكبرى في إحداث التحول الروحي إلى التصوف ، عالم النور والإشراق والفيض والمعرفة اللدنية !!

إنه التحول المنعكس في تفسيره الكبير « مفاتيح الغيب » الذي يعد أعظم موسوعة تفسيرية للقرآن الكريم استهدف منها الإمام الفخر تجسيد الإعجاز

---

(١) يعرفنا الشيخ الأكبر ﷺ بالرياضة المذكورة ، في « اصطلاحات الصوفية /٢٣٨ » قائلا : الرياضة رياضة أدب – وهو الخروج عن طبع النفس – ورياضة طلب ، وهو صحة المراد له ، وبالجملة : هي عبارة عن تهذيب الأخلاق النفسية ، كما يعرفنا – قدس الله سره – بالمجاهدة قائلاً : « المجاهدة : حمل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى على كل حال » ، وكذلك يعرفنا بالخلوة ص ٢٣٩ بقوله : « الخلوة : محادثة السر مع الحق حيث لا ملك ولا أحد سواه » .

(٢) هذا ختام الرسالة التي نشرها محققه بالتعليق عليها أخي البحاثة الصوفي : أ.د/ محمد مصطفى بعنوان : « رسالة الشيخ محيي الدين بن عربي إلى الشيخ فخر الدين الرازي ».

العلمي والغيبي للقرآن العظيم ، وإبراز « الحكمة القرآنية » منفردة بهداية العقول والقلوب والنفوس البشرية إلى أقصى غايات الحكمة من طريق العصمة ، لتحل بروعة هديها محل المناهج الفلسفية ، والطرائق الكلامية التي لا تروي غليلا ولا تشفي سقيماً .[1]

ومن العجيب أن نجد جل العلماء والباحثين في تقويمهم لتفسير الإمام الرازي قد قصروا هذا التقويم على الجانب العقلي الذي بهرهم فيه ببراهينه العقلية وأدلته المنطقية وكشفه لأسرار الكون والحياة بموسوعية شاملة ، ومعالجة فكرية عميقة الغور ، فكان جماع آرائهم فيه : أنه يمثل ذروة المحاولة العقلية لفهم القرآن .

ويجسد طريقة الأشعرية المتزنة – إلى حد ما – في التفكير ، والتي تضم أمثال : الإمام الأشعري والجرجاني والباقلاني وإمام الحرمين والإمام الغزالي، رواد الفكر الإسلامي . فهو خير وريث لهذه المدرسة [2] ولا مراء عندنا في مصداقية تحقق هذا الجانب على أرفع مستوى في تفسير الفخر .

بيد أن الأمر الذي يستوقفنا في هذا التقويم ويثير لدينا روح النهوض لإكمال البناء التقويمي للنتاج العلمي لهذا الإمام : هو قَصْر عطاء الفخر في تفسيره على هذا الجانب العقلي وإغفال الجانب العرفاني الصوفي الذي أبحر فيه الإمام الفخر بعد تحوله الروحي إلى التصوف ، واستغرق فيه بالمجاهدة والتصفية حتى ارتفعت عن قلبه الحجب ، وكوشف بالجلال والجمال ، وانهلت عليه سحائب المعرفة الذوقية الإلهامية اللدنية ، فلم يشرع في تفسيره الكبير إلا وهو في عداد كبار العارفين الربانيين ، كما تشهد به سواطع نصوصه

---

(١) انظر الشيخ محمد الفاضل بن عاشور : التفسير ورجاله ص ٧١ ، ٧٧ نشر مجمع البحوث الإسلامية .

(٢) د/ محسن عبد الحميد : الرازي مفسرا ص ١٩٣.

وشواهد معالمه !!

بل إننا نلاحظ في تسميته «مفاتيح الغيب» الإشارة إلى استشراف إمامنا الفخر – عليه الرضوان – لآفاق غيبية ، نهل منها دقائق أسرار التنزيل بحكم الوراثة المحمدية التي قلدها الحق تعالى لمن اصطفى من عباده العلماء الأولياء !! وسنقدم – بعون الله تعالى وتوفيقه – فيما يلي من نصوص هذا التفسير ما يقرر ويؤكد مصداقية تجسد الاتجاه الصوفي الوضاء في مرآته وعبر سطوره ومضامينه ، وسريان علوم الحقائق الكشفية في شتى آفاقه وجوانبه ، بما لا يدع مجالاً للإنكار أو الارتياب ، وذلك بإبراز جملة من المعالم والشواهد الثبوتية التي تمثل اكتمال البناء الصوفي بأبعاده وزواياه المختلفة في هذا التفسير الكبير .

فالمعلم الثبوتي الأول : تصريح الفخر نفسه بصوفيته في تفسيره :

ولعل هذا أصدق وأدل ما نستدل به – بادئ ذي بدء – على تصوف الإمام الرازي إذ نجده يصرح بانخراطه في سلك السادة الصوفية ، ويصدر عنهم العديد من الأقوال والآراء ويعبر عنهم بلفظ (أصحابنا) للإشعار بأنه من زمرتهم ، كما يعبر أثناء تناوله للمسائل العقدية لدى إثبات رأي الأشاعرة بنفس التعبير لإبراز انتمائه للمذهب الأشعري فيقول مثلا : « احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولنا كذا .. » فنجده يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾[1] ما نصه :-

« **المسألة السادسة** : احتج أصحابنا الصوفية بهذه الآية على صحة القول

(١) سورة الكهف : الآيات الكريمات ٩-١٢ .

بالكرامات ، وهو استدلال ظاهر ، ونذكر هذه المسألة ههنا على سبيل الاستقصاء .. »[1] .

وبهذا التصريح : يوثق الفخر صوفيته ويسجل في تفسيره انتماءه للقوم الصوفية ، ثم يسترسل بعد ذلك النص في تقرير وجهة النظر السنية الصوفية في إثبات الكرامات للأولياء بالشواهد النقلية والعقلية بوصفه سنياً أشعرياً صوفياً .

المعلم الثاني : إيمانه العميق بنظرية المعرفة عند الصوفية

ثم نجد (المعلم الثاني) من معالم صوفية الفخر : متمثلا في إيمانه العميق بنظرية المعرفة عند الصوفية ، وتقريره لها كحقيقة ملموسة صرح بتحققه نفسه بها ذوقا عرفانيا في مواضع بالغة الكثرة في تفسيره .

وتتمثل نظرية المعرفة عند الصوفية في الاعتماد على المجاهدة النفسية وتصفية القلب من الأغيار للوصول إلى المعرفة الإلهامية والكشفية حيث ترتفع الحجب وتنكشف الأستار ، ويستغرق القلب في محيط الأنوار وتنهل عليه فيوض الأسرار ، ويشاهد أنوار الجلال والجمال ، والعظمة والكمال، وتنتقش الحقائق في لوح الروح الإنسانية .

لقد صرح الفخر بحقية هذه النظرية ونوّه بتحققه بها وبحصوله على حظ وفير من الأسرار الكشفية والحقائق الإلهامية التي لم يؤذن ببث أكثرها في تفسيره لكونها من علوم الخاصة التي لا تفشى لغير أهلها . وسندلل على هذا المعلم بعدة شواهد من تفسيره :-

١- يقول في تفسيره " الفاتحة " : أما قوله ﷻ : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ : فاعلم أنه عبارة عن طلب الهداية ، ولتحصيل الهداية طريقان :-

(١) الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ٢١/٨٥ .

أحـــدهما طلـب المعرفـة بالـدليل والحجـة ، **والثـــاني** بتصـفية البـاطن والرياضـة[1] ، أما طرق الاستدلال : فإنها غير متناهية ، لأنه لا ذرة من ذرات العالم الأعلى والأسفل إلا وتلك الذرة شاهدة بكمال إلهيته ، وبعزة عزته ، وبجلال صمديته .[2] وأما تحصيل الهداية بطريق الرياضة والتصفية : فذلك بحر لا ساحل له ، ولكل واحد من السائرين إلى الله تعالى منهج خاص ومشرب معين ، كما قال : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ﴾[3] ولا وقوف للعقول على تلك الأسرار ولا خبر عند الأفهام من مبادئ ميادين تلك الأنوار ، والعارفون المحققون لحظوا فيها مباحث عميقة ، وأسرارا دقيقة ، قلما ترقى إليها أفهام الأكثرين[4] .

٢- ويقول عند تفسير قوله تعالى ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[5] :- قوله ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ : يفيد أن تلك العلوم حصلت عنده عن الله من غير واسطة ، والصوفية سموا العلوم الحاصلة بطريق المكاشفات :- " العلوم اللدنية " وللشيخ أبي حامد الغزالي رسالة في إثبات العلوم اللدنية . وأقول : تحقيق الكلام في هذا الباب أن نقول : إذا أدركنا أمراً من الأمور وتصورنا حقيقة من الحقائق ، فإما أن نحكم عليه بحكم – وهو التصديق – أو لا نحكم – وهو التصور – وكل واحد من هذين القسمين فإما أن يكون نظرياً حاصلاً من غير كسب ولا طلب ، وإما أن يكون كسبياً .

---

(١) يقصد : رياضة النفس بمجاهدة أهوائها وقمع نزواتها .

(٢) بقية هذه الفقرة تفصيل لتقرير عدم تناهي طرق الاستدلال العقلي ، لم نثبته اختصارًا .

(٣) سورة البقرة / صدر الآية الكريمة : ١٤٨ .

(٤) الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ١/١٧ .

(٥) سورة الكهف : الآية /٦٥ .

أما العلوم النظرية : فهي تحصل في النفس والعقل من غير كسب ولا طلب ، مثل : تصورنا الألم واللذة ، والوجود والعدم ، ومثل : تصديقنا بأن النفي والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان ، وأن الواحد نصف الاثنين .

وأما العلوم الكسبية : فهي التي لا تكون حاصلة في جوهر النفس ابتداء ، بل لابد من طريق يتوصل به إلى اكتساب تلك العلوم ، وهذا الطريق على قسمين :-

احدهما : أن يتكلف الإنسان تركب تلك العلوم البديهية النظرية حتى يتوصل بتركبها إلى استعلام المجهولات ، وهذا الطريق : هو المسمى بالنظر والتفكير والتدبر والتأمل والتروي والاستدلال ، وهذا النوع من تحصيل العلوم هو الطريق الذي لا يتم إلا بالجهد والطلب .

والنوع الثاني : أن يسعى الإنسان – بواسطة الرياضات والمجاهدات – في أن تصير القوى الحسية والخيالية ضعيفة ، فإذا ضعفت : قوت القوة العقلية ، وأشرقت الأنوار الإلهية في جوهر العقل ، وحصلت المعارف ، وكملت العلوم من غير وساطة سعي وطلب في التفكر والتأمل ، وهذا هو المسمى بالعلوم اللدنية .

إذا عرفت هذا فنقول : جواهر النفس الناطقة مختلفة بالماهية ، فقد تكون النفس نفسا مشرقة نورانية إلهية علوية قليلة التعلق بالجواذب البدنية والنوازع الجسمانية ، فلا جرم كانت أبدا شديدة الاستعداد لقبول الجلايا القدسية والأنوار الإلهية ، فلا جرم فاضت عليها من عالم الغيب تلك الأنوار على سبيل الكمال والتمام . وهذا هو المراد بالعلم اللدني ، وهو المراد من قوله ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ ، وأما النفس التي ما بلغت في صفاء الجوهر وإشراق العنصر : فهي النفس الناقصة البليدة التي لا يمكنها

تحصيل المعارف والعلوم إلا بمتوسط بشرى يحتال في تعليمه وتعلمه .

والقسم الأول بالنسبة إلى القسم الثاني كالشمس بالنسبة إلى الأضواء الجزئية ، وكالبحر بالنسبة إلى الجداول الجزئية ، وكالروح الأعظم بالنسبة إلى الأرواح الجزئية . فهذا تنبيه قليل على هذا المأخذ . ووراءه أسرار لا يمكن ذكرها في هذا الباب[1] .

فمن هذا الشاهد المطول : نجد الإمام الفخر يستنبط من صريح القرآن العزيز ثبوت العلم اللدني الحاصل من لدن الحق تعالى من غير واسطة ، أي : بطريق المكاشفة ، وهذا العلم رغم تصريح التنزيل الحكيم بحصوله لعباد الله الربانيين – من أمثال سيدنا الخضر عليه السلام – أمر ينكره خصوم التصوف تماماً !!

ثم بعد أن قسم الفخر العلوم إلى نظرية وكسبية ، والأخيرة إلى ما يحصل بالجهد الفكري ، وإلى ما ينال بالرياضات والمجاهدات : أوغل في كيفية حصول العلم اللدني الفيضي ، ثم اعتد العلم الكسبي القائم على الفكر والنظر والتأمل بالنسبة إلى العلم اللدني بمثابة الضوء الجزئي من الشمس ، أو الجدول الصغير من البحر ، أو الروح الجزئي من الروح الأعظم !! وهذا يجسد لنا مدى احتفاء الإمام الفخر بالعلم اللدني والمعرفة الفيضية التي حظى بها أهل المكاشفات من صفوة الصوفية المحققين أولياء الله المقربين !!

٣- ويصرح الفخر في تفسيره أيضاً بأن المؤمنين الصالحين من أهل الاستقامة مع الله تعالى – وهم الأولياء – تمدهم الملائكة بالإلهامات والمكاشفات اليقينية والمقامات الحقيقية ، إذ يقول عند تفسير قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ

(١) الفخر الرازي : مفاتيح الغيب : ٢١/١٥٠ – ١٥١ .

وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ :« ...

ومعنى كونهم أولياء للمؤمنين : أن للملائكة تأثيرات في الأرواح البشرية بالإلهامات ، والمكاشفات اليقينية ، والمقامات الحقيقية ، كما أن للشيطان تأثيرات في الأرواح بإلقاء الوساوس فيها وتخييل الأباطيل إليها.

وبالجملة : فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة حاصل من جهات كثيرة ، معلومة لأرباب المكاشفات والمشاهدات ، فهم يقولون : كما أن تلك الولاية كانت حاصلة في الدنيا فهي تكون باقية في الآخرة ، فإن تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال ، بل : كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى، وذلك : لأن جوهر النفس من جنس الملائكة ، وهي كالشعلة بالنسبة إلي الشمس ، والقطرة بالنسبة إلى البحر ، والتعلقات الجسمانية هي التي تحول بينها وبين الملائكة كما قال ﷺ : « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات »[1] ، فإذا زالت العلائق الجسمانية والتدبيرات البدنية : فقد زال الغطاء والوطاء ، فيتصل الأثر بالمؤثر ، والقطرة بالبحر ، والشعلة بالشمس ، فهذا هو المراد من قوله : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ ... »[2]

لقد كشف الإمام الفخر عن علاقة وطيدة بين المؤمنين الذين طهرت أرواحهم بالمجاهدة ، والتصفية من الأكدار ، وبين الملائكة الأخيار ، وأوضح

(١) خرجه الحافظ العراقي عن الإمام أحمد من حديث أبي هريرة ﷺ . انظر : المغنى عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار . بهامش إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ٩/٣ط التجارية .

(٢) الفخر الرازي : مفاتيح الغيب : ١٢٤/٢٧ .

أن هذه العلاقة التي تؤثر في أرواح الصالحين بالمعرفة الإلهامية والكشفية لا تنقطع بموتهم بل تتزايد تزايدا عظيماً بعد الموت ، لزوال العلائق الجسمانية والأغطية المادية ، **ومن ثم تتهافت دعوى خصوم التصوف أن الأولياء بعد موتهم لا يحسون ولا يدركون ، ولا يعرفون زوارهم** وأنهم صاروا بمعزل عن عالم الدنيا ومن فيها ، مع أن هذا الزعم منتف في حق عوام المؤمنين فضلاً عن خواصهم فكيف بمن والتهم الملائكة ولاء اتصال وإلهام وإمداد بوسائل المعرفة ؟؟ ولكن : يتبادر للذهن بعد الوقوف على نظرية المعرفة الصوفية كما قررها الإمام الفخر في تفسيره سؤال :- **كيف للعبد بالوصول إلى أفق هذه المعرفة الكشفية اللدنية السامية ؟؟** .

وهنا نتعرف الجواب من تفسير الفخر الرازي عليه رضوان الله لدى استجلائه أسرار القرآن العظيم ، فيرى : أن ذلك المطلوب تحققه مرهون بحصول مقامات ثلاثة نتعرفها في المعلم الثالث .

المعلم الثالث :- الشريعة ، والطريقة ، والحقيقة

لقد تناول الفخر – قدس الله سره – هذه المقامات بالبيان ، واستقاها من ينبوع الحكمة القرآنية الوضاءة ، فأوضح بها معالم الطريق إلى الله عزل وجل وكشف لطلاب الحقيقة معارج الوصول إلى غاية المأمول ، وسنورد لهذا المعلم ما يلي من الشواهد :-

١- قال الإمام الفخر – في تبيانه للأسرار المستنبطة من سورة (الفاتحة) – ما نصه : « .. ثم أنه لما قرر أمر الربوبية بهذا الطريق أمره بثلاثة أشياء :-
أولها : مقام الشريعة : وهو أن يواظب على الأعمال الظاهرة ، وهو قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ .

وثانيها : مقام الطريقة : وهو أن يحاول السفر من عالم الشهادة إلى عالم

الغيب ، فيرى عالم الشهادة كالمسخر لعالم الغيب ، فيعلم : أنه لا يتيسر له شيء من الأعمال الظاهرة إلا بمدد يصل إليه من عالم الغيب ، وهو قوله : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وثالثها : أنه يشاهد عالم الشهادة معزولاً بالكلية ، ويكون الأمر كله لله . وحينئذ يقول : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ....[1] – ثم قال -: ولما تمت هذه الدرجات الثلاث ، وكملت هذه المقامات الثلاثة – أعني الشريعة المدلول عليها بقوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، والطريق المدلول عليها بقوله ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ والحقيقة ، المدلول عليها بقوله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، ثم لما حصل الاستعداد بالاتصال بأرباب الصفاء والاستكمال – بسبب المباعدة عن أرباب الجفاء والشقاء – فعند هذا : كملت المعارج البشرية ، والكمالات الإنسانية »[2] .

٢- ونجد الإمام الفخر يستوحي من معاني الحروف المقطعة في أول سورة البقرة – بطريق التفسير الإشاري – الدلالة على الشريعة والطريقة والحقيقة مستدلا لكل منها بالنص القرآني فيقول –عليه رضوان الله تعالى- :« الألف : إشارة إلى ما لابد منه من الاستقامة في أول الأمر وهو رعاية الشريعة ، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ﴾[3]

---

(١) بعد هذه الفقرة تعرض إلى ضرورة الاستعانة بالاتصال بالأرواح الطيبة لحصول الهداية إلى الصراط المستقيم وهو ما سنعرض له في معلم صوفي آخر في تفسير الفخر قدس الله سره.

(٢) الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ١/١٩١ – ١٩٢ .

(٣) سورة فصلت /٣٠ .

والـلام : إشـارة إلـى الانحنـاء الحاصـل عنـد المجاهـدات ، وهـو رعايـة الطريقة قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[1]

والميم : إشارة إلى أن يصير العبد في مقام المحبة كالدائرة التي يكون نهايتها عين بدايتها ، وبدايتها عين نهايتها ، وذلك : إنما يكون بالفناء في الله تعالى بالكلية ، وهو مقام الحقيقة ، قال تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[2] ...»[3]

٣- ويضيف الإمام الفخر إجلاء للفرق بين الشريعة والطريقة في جملة الوجوه التي ذكرها في تفسير قوله تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[4] فيقول :- « قال بعضهم : الشرعة والمنهاج : عبارتان عن معنى واحد ، والتكرير للتأكيد ، والمراد بهما : الدين . وقال آخرون : بينهما فرق ، فالشرعة : عبارة عن مطلق الشريعة ، والطريقة : عبارة عن مكارم الشريعة – وهي المراد بالمنهاج ، فالشريعة أول ، والطريقة آخر . وقال المبرد : الشريعة ابتداء الطريقة ، والطريقة : المنهاج المستمر ، وهذا تقرير ما قلناه والله أعلم بأسرار كلامه »[5] .

٤- بل إننا نجد الفخر – عليه الرضوان – يتجه الاتجاه الصوفي في مصنفاته الأخرى ليمتد شعاع المعرفة الصوفية عبر أفانين بحثه العلمي في سائر مؤلفاته ، فنلقاه في : " شرح أسماء الله الحسنى – وهو من أروع ما صنف

---

(١) سورة العنكبوت /٦٩ .

(٢) سورة الأنعام /٩١ .

(٣) الفخر الرازي : مفاتيح الغيب : ٢/٨-٩ .

(٤) سورة المائدة – ٤٨ .

(٥) الفخر : مفاتيح الغيب : ١٢/١٤ .

في بابه – يعقب شرحه لكل اسم منها ببيان حظ العبد من ذلك الاسم ، وإذا به لدى شرحه لاسمه تعالى (الجامع) يتعرض لذكر الشريعة والطريقة والحقيقة ، فيعقب على بيانه مدلول هذا الاسم الأقدس بقوله « أما حظ العبد منه : فهو أن يجمع بين الشريعة والطريقة والحقيقة»[1] .

فإذا عرف العبد أن مناط سعادته الدنيوية والأخروية إنما هو بتحصيل مراتب الشريعة والطريقة والحقيقة لتحقق كمالاته الإنسانية ، وللوصول إلى الحضرة القدسية ، واستمداد العلوم اللدنية والمكاشفات الربانية : حق له أن يسأل : وكيف السبيل إلى تحصيل هذه المراتب العالية والوصول إلى هذه الغاية القاصية ؟؟ كيف يعرف القلب طريقه إلى الله ﷻ وكيف يتخلص من الحجب والعلائق والعوائق ؟؟ وكيف يبرأ من أدواء النفس القاتلة ؟؟ وهنا : يبين الإمام الفخر – في تفسيره – دليل الوصول إلى غاية المأمول ، إنه الشيخ القدوة الذي يهتدى به إلى معالم الصراط المستقيم على هدى وبصيرة ، إذ بدون الشيخ المربي والقدوة المعلم لا تتم هداية لمريد الوصول أصلاً ، وبيان ذلك في :-

المعلم الرابع : اتخاذ الشيخ المربي لسلوك الصراط المستقيم

ولهذا المعلم شواهده العديدة الصريحة والواضحة في تفسير الإمام الرازي عليه رضوان الله ، ومنها :-

١- أنه قال في بيان الأسرار المستنبطة من الفاتحة :- « اللطيفة الثالثة : قال بعضهم : أنه لما قال ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ : لم يقتصر عليه ، بل قال : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ .

---

(١) الفخر: لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات ك ص ٢٤٣ نشر مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة .

وهذا يدل على أن المريد لا سبيل له إلى الوصول إلى مقامات الهداية والمكاشفة إلا إذا اقتدى بشيخ يهديه إلى سواء السبيل ، ويجنبه عن مواقع الأغاليط والأضاليل ، وذلك : لأن النقص غالب على أكثر الخلق ، وعقولهم غير وافية بإدراك الحق وتمييز الصواب عن الغلط ، فلابد من كامل يقتدي به الناقص حتى يتقوى عقل ذلك الناقص بنور عقل ذلك الكامل ، فحينئذ : يصل إلى مدارج السعادات ، ومعارج الكمالات »[1]

٢- كما أكد هذا المعنى مبينا ضرورة اتصال روح العبد السالك لطريق الله بأرواح أهل الأنوار والمكاشفات لينخرط في سلكهم دون غيرهم فقال ﷺ في بيان الأسرار المستنبطة من الفاتحة أيضاً إثر تبيان مراتب الشريعة والطريقة والحقيقة :-

« ثم إن ههنا دقيقة : وهي أن الروح الواحد يكون أضعف قوة من الأرواح الكثيرة المجتمعة على تحصيل مطلوب واحد ، فحينئذ : علم العبد أن روحه وحده لا يكفي في طلب هذا المقصود ، فعند هذا : أدخل روحه في زمرة الأرواح المقدسة المطهرة ، المتوجهة إلى طلب المكاشفات الروحانية ، والأنوار الربانية حتى إذا اتصل بها ، وانخرط في سلكها : صار الطلب أقوى ، والاستعداد أتم ، فحينئذ : يفوز في تلك الجمعية بما لا يقدر على الفوز به حال الوحدة ، فلهذا قال : ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ . ثم لما بين أن الاتصال بالأرواح المطهرة يوجب مزيد القوة والاستعداد ، بين أيضاً : أن الاتصال بالأرواح الخبيثة يوجب الخيبة والخسران والخذلان ، والحرمان ، فلهذا قال : ﴿ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ ﴾ وهم الفساق ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ وهم الكفار... »[2]

---

(١) الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ١/١٨٩ – ١٩٠ .

(٢) الفخر الرازي : مفاتيح الغيب ١/١٩١ .

لقد استجلى الإمام الفخر من دقائق أسرار " الفاتحة " ضرورة اتخاذ الشيخ المرشد قدوة للسلوك إلى ملك الملوك ، لأن الشيخ المربي الذي تحقق بكمالات الشريعة والطريقة والحقيقة يكون كاشفاً لعقبات الطريق وعلى نور من ربه باعتباره عبدا ربانيا ، فضرورة الاقتداء به تنبع من معرفته بأدواء النفس والقلب وبما هو أصلح للمريد في سلوكه بما يجنبه عثرات الطريق وما أكثرها، وما أشدها !! فأنى للعبد المسكين باجتيازها وهو فاقد الرؤية والبصيرة ؟؟ هل يستوي الأعمى والبصير ؟؟ إن الشيخ المرشد هو الذي يعرف طبيعة معادن البشر فيختار لكل منها ما يصلحه من أدوية النفوس وما يصلح المريد له بالأولوية من المجاهدات والأذكار التي يحقق بها التصفية والتخلية والتحلية من أقرب خط مستقيم يصل بين المحيط والمركز للدائرة !!

ولقد وضح إمامنا الإمام الفخر بعض النماذج العملية لذلك في تفسيره أيما إيضاح كما ستقف عليه في الشاهد التالي :-

٣- قال ﷺ في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[1] ما نصه: « سمعت أن بعض الأكابر من أصحاب القلوب كان إذا أراد أن يأمر واحدا من المريدين بالخلوة والذكر أمره بالخلوة والتصفية أربعين يوما ، ثم عند استكمال هذه المدة وحصول التصفية التامة : يقرأ عليه الأسماء التسعة والتسعين ويقول لذلك المريد : اعتبر حال قلبك عند سماع هذه الأسماء ، فكل اسم وجدت قلبك عند سماعه قوى تأثره وعظم شوقه : فاعرف أن الله إنما يفتح أبواب المكاشفات عليك بواسطة المواظبة على ذكر ذلك الاسم بعينه . وهذا : طريق حسن لطيف في هذا الباب »[2] .

(١) سورة الأعراف /٢٠٥ .

(٢) الفخر الرازي : مفاتيح الغيب : ١١١/١٥ .

فانظر إلى روعة هذا النص وما تضمنه من الفوائد والأسرار ، وموقف الإمام الفخر من مضامينه !! لقد صدر الرواية بتعظيم ذلك الشيخ المربي وعبر عنه بقوله : « بعض الأكابر من أصحاب القلوب » ثم أثبت مصطلحات الصوفية: « المريدين » ، « الخلوة » ، « الذكر » ، « التصفية ، « الحال » ، « الشوق » ، « الفتح » ، « المكاشفات » !! ثم أرأيت التعرف على نوع الذكر الذي يفتح به على المريد بإمرار الأسماء التسعة والتسعين على سمع القلب ليرى أيها أشد مناسبة وأقوى أثرا في هذا القلب فيلتزم به المريد ؟؟ وما ذاك إلا بعد صقل القلب بالتصفية والذكر في الخلوة لمدة أربعين يوماً ! إنها مصانع الرجال حقاً !! فلم يملك الفخر بعد عرض هذا النموذج التجريبي إلا الاستحسان والإذعان !! وههنا يطرح السؤال نفسه في إلحاح مستمر ويتردد في صدور الكثيرين صداه في كل عصر : لماذا تتعدد طرق التربية الصوفية ويتعدد الشيوخ رغم أن المقصد واحد وهو سلوك الصراط المستقيم إلى حضرة رب العالمين ؟؟

وهنا يجيبنا الإمام الفخر أيضاً في موسوعته التفسيرية باستفاضةٍ أخَّاذة ، وتسلسل منطقي مبهر يسلم إلى النتيجة المطلوبة :-

٤- إذ يقول ﷺ في مباحث أسماء الله تعالى في الفاتحة : - « إن بين الخلق وبين أسماء الله تعالى مناسبات عجيبة ، والعاقل لا بد وأن يعتبر تلك المناسبات حتى ينتفع بالذكر ، والكلام في شرح هذا الباب مبنى علي مقدمة عقلية ، وهي : أنه ثبت عندنا أن النفوس الناطقة البشرية مختلفة بالجوهر والماهية ، فبعضها إلهية مشرقة حرة كريمة ، وبعضها سفلية ظلمانية نذلة خسيسة ، وبعضها رحيمة عظيمة الرحمة ، وبعضها قاسية قاهرة ، وبعضها قليلة الحب لهذه الجسمانيات ، قليلة الميل إليها ، وبعضها محبة للرياسة والاستعلاء ، ومن اعتبر أحوال الخلق : علم أن

الأمر كما ذكرناه . ثم إنا نرى هذه الأحوال لازمة لجواهر النفوس ، وإن كل من راعى أحوال نفسه : علم أن له منهجا معينا ، وطريقا مبينا في الإرادة والكراهة ، والرغبة والرهبة .

وإن الرياضة والمجاهدة لا تقلب النفوس عن أحوالها الأصلية ومناهجها الطبيعية ، وإنما تأثير الرياضة في أن تضعف تلك الأخلاق ولا تستولي على الإنسان فأما أن ينقلب من صفة إلى أخرى : فذلك محال ! وإليه الإشارة بقوله ﷺ « الأرواح جنود مجندة »[1] .

إذا عرفت هذا فنقول : الجنسية علة الضم ، فكل اسم من أسماء الله تعالى دال على معنى معين ، فكل نفس غلب عليها ذلك المعنى ، كانت تلك النفس شديدة المناسبة لذلك الاسم ، فإذا واظب على ذكر ذلك الاسم : انتفع به سريعاً !! وسمعت أن الشيخ أبا النجيب البغدادي السهروردي كان يأمر المريد بالأربعين[2] – مرة أو مرتين – بقدر ما يراه من المصلحة ، ثم كان يقرأ عليه التسعة والتسعين ، وكان ينظر إلى وجهه ، فإن رآه عديم التأثر عند قراءتها عليه : قال له اخرج إلى السوق واشتغل بمهمات الدنيا ، فإنك ما خلقت لهذا الطريق ، وإن رآه متأثرا عند سماع اسم خاص مزيد التأثر : أمره بالمواظبة على ذلك الذكر.

وأقول : هذا هو المعقول ، فإنه لما كانت النفوس مختلفة : كان كل واحد منها مناسبا لحالة مخصوصة ، فإذا اشتغلت تلك النفس بتلك الحالة التي تناسبها : كان خروجها من القوة إلى الفعل سهلاً هينا يسيراً »[3] ، بهذا التبيان

---

(١) أخرجه البخاري عن السيدة عائشة ﵂ وكذا أخرجه الأئمة : أحمد ومسلم وأبو داود عن أبي هريرة ﵁ . انظر الفتح الكبير للإمام النبهاني ٥٠٦/١ ط الحلبي .

(٢) أي : بالخلوة أربعين يوماً .

(٣) الإمام الرازي : مفاتيح الغيب ١٦١/١ – ١٦٢ .

الشافي المستفيض : ندرك أن تعدد الطرق الصوفية والشيوخ : أمر مستلزم - بفتح الزاي - لاختلاف أحوال جواهر النفوس ، وتعدد مناهجها وطرقها في الإرادة والكراهة ، والرغبة والرهبة ، وأن معيار الضم في طريق معين وتربية خاصة : إنما هو اتحاد الجنسية للنفوس البشرية ، ومن ثم : يكون التعدد في الطرق والشيوخ : تعدد تنوع وتجانس ، لا تعدد تناقض أو تضاد أو اختلاف في الغاية . وتأمل سرَّ قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [1] حيث جمع السبل - وهي الطريق - ولم يقل سبيلنا بالإفراد !!

المعلم الخامس : في الذكر وأسراره :

تناول الإمام الرازي في تفسيره الحديث عن ذكر الله كمعلم رئيس من معالم السلوك الصوفي بلغة أئمة القوم ، واستقى في هذا المقام من ينابيع أئمة الصوفية كالإمام الشبلي والإمام الغزالي قدس الله سرهما ، وأجلى أسرار الذكر بالاسم المفرد - الذي يمانع فيه جهلة خصوم الصوفية - كما نوه بأسرار عجيبة في الذكر باسم (هو) وبصيغة النفي والإثبات مع الضمائر الثلاثة ، إلى غير ذلك مما قرره أئمة العارفين بالله تعالى ، وسنقتطف من ذلك بعض الشواهد :-

١- قال في تفسير الفاتحة في بيان الأسماء الحاصلة لله تعالى من باب الأسماء المضمرة : « إن الذكر أشرف المقامات ، قال ﷺ - حكاية عن الله تعالى - « إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملإ خير من ملئه ..» [2] .

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩.

(٢) من حديث أخرجه البخاري في التوحيد من صحيحه عن أبي هريرة ﷺ كما أخرجه مسلم عنه أيضاً بثلاث طرق وأخرجه الترمذي وابن ماجة وصدره : (أنا عند ظن عبدي بي) انظر الأحاديث القدسية (٦٢/١) نشر مكتبة دار التراث بالقاهرة وانظر : التاج الجامع للأصول للشيخ منصور ناصف ٨٥/٥ .

وإذا ثبت هذا فنقول : أفضل الأذكار ذكر الله بالثناء الخالي عن السؤال ، قال ﷺ حكاية عن الله تعالى : « من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين »[1]، إذا عرفت هذه المقدمة فنقول : العبد فقير محتاج ، والفقير المحتاج إذا نادى مخدومه بخطاب يناسب الطلب والسؤال : كان ذلك محمولا على السؤال ، فإذا قال الفقير للغني (يا كريم) كان معناه : أكرم، وإذا قال (يا نافع) كان معناه : طلب النفع ، وإذا قال : (يا رحمن) كان معناه : ارحم. فكانت هذه الأذكار جارية مجرى السؤال ، وقد بينا أن الذكر إنما يعظم شرفه إذا كان خاليا عن السؤال والطلب ، أما إذا قال : " يا هو " كان معناه خاليا عن الإشعار بالسؤال والطلب ، فوجب أن يكون قولنا " هو " أعظم الأذكار »[2]

وبذا : يقرر الإمام الفخر وجهة النظر الصوفية في الاشتغال بالاسم المفرد وتتهافت دعاوى إنكار الذكر به لدى المعترضين على السادة الصوفية .

٢- ويشرح الفخر أسرار الذكر بكلمة التوحيد مع الضمائر الثلاثة مبينًا درجة الحضور مع الله في الذكر بما يناسب العبد منها ، وما يتعلق بمقام المشاهدة ، فيقول في تفسير سورة الفاتحة :- « ... أما قوله ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ : فهذا الكلام لا يجوز أن يتكلم به أحدٌ إلا الله أو من يذكره على سبيل الحكاية عن الله ، لأن تلك الكلمة تقتضي إثبات الإلهية لذلك القائل وذلك لا يليق إلا بالله سبحانه .

واعلم أن معرفة هذه الكلمة مشروطة بمعرفة قوله : " أنا " وتلك المعرفة

---

(١) خرجه الحافظ العراقي عن البخاري في التاريخ والبزار في المسند والبيهقي في الشعب من حديث سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ . انظر المغنى عن حمل الأسفار بهامش الإحياء للإمام الغزالي ٢٩٥/١ ط التجارية .

(٢) الإمام الفخر : ١٥٧/١ – ١٥٨ .

على سبيل التمام والكمال لا تحصل إلا للحق ﷻ ، لأن علم كل أحد بذاته المخصوصة أكمل من علم غيره به ، لاسيما في حق الله تعالى ، فثبت أن قوله ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ لم يحصل العلم به على سبيل الكمال إلا للحق تعالى.

وأما الدرجة الثانية : وهي قوله ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ ﴾ فهذا يصح ذكره من العبد لكن بشرط أن يكون حاضراً لا غائباً ، لكن هذه الحالة إنما اتفق حصولها ليونس ﷺ عند غيبته عن جميع حظوظ النفس .

وهذا تنبيه على أن الإنسان ما لم يصر غائباً عن كل الحظوظ لا يصل إلى مقام المشاهدة .

وأما الدرجة الثالثة :- وهي قوله ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فهذا يصح من الغائبين. واعلم أن درجات الحضور مختلفة بالقرب والبعد ، وكمال التجلي ونقصانه . وكل درجة ناقصة من درجات الحضور فهي غيبة بالنسبة إلى الدرجة الكاملة . ولما كانت درجات الحضور غير متناهية : كانت مراتب الكمالات والنقصانات غير متناهية ، فكانت درجات الحضور والغيبة غير متناهية ، فكل من صدق عليه أنه حاضر : فباعتبار آخر يصدق عليه أنه غائب ، وبالعكس » ، وعن هذا قال الشاعر :

أيا غائباً حاضراً في الفؤاد

سلام على الغائب الحاضر

ويحكى أن الشبلي[1] لما قربت وفاته قال بعض الحاضرين : قل لا إله إلا

(١) هو الإمام العارف بالله تعالى أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ ، قال الإمام السلمي في ترجمته : (وصحب الجنيد ومن في عصره من المشايخ وصار أوحد وقته حالا وعلما وكان عالما فقيها على مذهب مالك) انظر : طبقات الصوفية بتحقيق : نور الدين شريبة ص ٣٣٧ط الخانجي .

الله ، فقال :

كـــل بيـــت أنـــت ســـاكنه

غـــير محتـــاج إلى الســـرج

وجهـــك المـــأمول حجتنـــا

يـــوم تـــأتي النـــاس بـــالحجج[1]

٣- ويتناول الإمام الرازي في تفسيره كذلك بعض أسرار الذكر بضمير الغيبة بما ينبئ عن إشراق صوفيته فيقول : « واعلم أن لفظ " هو " فيه أسرار عجيبة ، وأحوال عالية ، فبعضها يمكن شرحه وتقريره ، وبعضها لا يمكن، وأنا بتوفيق الله كتبت أسراراً لطيفةً ، إلا أني كلما أقابل تلك الكلمات المكتوبة بما أجده في القلب من البهجة والسعادة عند ذكر كلمة " هو " أجد المكتوب بالنسبة إلى تلك الأحوال المشاهدة حقيراً ، فعند ذلك : عرفت أن لهذه الكلمة تأثيراً عجيباً في القلب لا يصل البيان إليه ، ولا ينتهي الشرح إليه ، فلنكتب ما يمكن ذكره فيه فنقول : فيه أسرار : الأول : أن الرجل إذا قال " يا هو " فكأنه يقول : من أنا حتى أعرفك . ومن أنا حتى أكون مخاطباً لك ؟ وما للتراب ورب الأرباب ؟؟ وأي مناسبة بين المتولد عن النطفة والدم وبين الموصوف بالأزلية والقدم ؟؟ فأنت أعلا من جميع المناسبات ، وأنت مقدس عن علائق العقول والخيالات، فلهذا السبب خاطبه العبد بخطاب الغائبين فقال:"يا هو"... »[2]

(١) الإمام الفخر : مفاتيح الغيب ١/١٥٢ – ١٥٣ .

(٢) الإمام الفخر : مفاتيح الغيب ١/١٥٣ .

المعلم السادس : في السلوك والمجاهدات :

وتناول الإمام الفخر في تفسيره بيان السلوك الصوفي والمجاهدة لقطع المنازل والترقي إلى درجات الفناء والبقاء والمشاهدة والاستغراق في عالم الجلال والجمال . فبين أنه لابد لذلك من مجاهدة الشيطان وقمع حظوظ النفس وتطهير القلب من الأوضار والأغيار . وقد نقل في ذلك عن كبار العارفين من أرباب الإشارات والمتحققين من شيوخ التربية :-

١- فقال في تفسيره عند ذكر اللطائف المستنبطة من الاستعاذة :- قال أرباب الإشارات: لك عدوان: أحدهما ظاهر ، والآخر باطن، وأنت مأمور بمحاربتهما، قال تعالى في العدو الظاهر:﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[1] ، وقال في العدو الباطن: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[2] فكأنه تعالى قال : إذا حاربت عدوك الظاهر : كان مددك الملك – بفتح اللام – كما قال تعالى ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[3] وإذا حاربت عدوك الباطن : كان مددك الملك – بكسر اللام – كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[4] .وأيضاً : فمحاربة العدو الباطن أولى من محاربة العدو الظاهر ، لأن العدو الظاهر إن وجد فرصة : ففي متاع الدنيا ، والعدو الباطن : إن وجد فرصة : ففي الدين واليقين ، وأيضاً : فالعدو الظاهر إن غلبنا كنا مأجورين ، والعدو

---

(١) سورة التوبة / ٢٩ .

(٢) سورة فاطر / ٦ .

(٣) سورة آل عمران / ١٢٥ .

(٤) سورة الحجر /٤٢ .

الباطن : إن غلبنا كنا مفتونين . وأيضاً : فمن قتله العدو الظاهر كان شهيداً ، ومن قتله العدو الباطن كان طريداً ، فكان الاحتراز عن شر العدو الباطن أولى »[1] ، وهكذا نجد لأرباب الإشارات من الصوفية العارفين صدى واسع المدى في تفسير الفخر يجلي به أسرار التنزيل ويكشف به مضامين الجهاد الأكبر بإزاء الجهاد الأصغر .

٢- ويعرض الإمام الفخر أيضاً في تفسيره تجربة لبعض العارفين في مجال السلوك والجهاد لتطهير ساحة القلب من الوسواس والأغيار فيقول :- « شكا بعض المريدين من كثرة الوسواس ، فقال الأستاذ : - كنت حدادا عشر سنين ، وقصارا عشرة أخرى ، وبوابا عشرة ثالثة . فقالوا : ما رأيناك فعلت ذلك . قال فعلت ، ولكنكم ما رأيتم !! أما عرفتم أن القلب كالحديد ، فكنت الحداد ، ألينه بنار الخوف عشر سنين ، ثم بعد ذلك شرعت في غسله من الأوضار والأقذار عشر سنين ، ثم بعد هذه الأحوال : جلست على باب حجرة القلب عشرة أخرى سالاً سيف : " لا إله إلا الله " فلم أزل حتى يخرج منه حب غير الله ، ولم أزل حتى يدخل فيه حب الله تعالى ، فلما خلت عرصة القلب عن غير الله تعالى ، وقويت فيه محبة الله : سقطت من بحار عالم الجلال قطرة من النور ، فغرق القلب في تلك القطرة ، وفني عن الكل ، ولم يبق فيه إلا محض سر : " لا إله إلا الله " !![2] »

(١) الإمام الفخر : مفاتيح الغيب ٩٩/١ .

(٢) نفس المصدر : ١٦٧/١ .

المعلم السابع : في الأحوال والمقامات [1] :-

لقد تضمن تفسير الإمام الفخر بيان الأحوال والمقامات التي تحقق بها العارفون من أولياء الله المقربين لدى تفسير للآيات التي عرضت لها في التنزيل الحكيم ، كما أصدر عن كبار الصوفية من الأخبار ما يجسد تحققهم بها وسنجتلي ذلك – في عجالة – من خلال شاهدين :-

١- قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [2] :-

« واعلم أن الصفات المذكورة قسمان : الثلاثة الأولى : هي الصفات القلبية والأحوال الروحانية ، وهي : الخوف ، والإخلاص ، والتوكل . والاثنتان الأخيرتان : هما الأعمال الظاهرة والأخلاق . ولاشك أن لهذه الأعمال والأخلاق تأثيرات في تصفية القلب ، وفي تنويره بالمعارف الإلهية ، ولاشك أن المؤثر كلما كان أقوى : كانت الآثار أقوى ، وبالضد . فلما كانت هذه الأخلاق والأعمال لها درجات ومراتب ، كانت المعارف أيضاً : لها درجات ومراتب ، وذلك هو المراد من قوله : ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ، والثواب الحاصل في الجنة أيضاً مقدر بمقدار هذه الأحوال . فثبت أن مراتب السعادات الروحانية قبل الموت ، وبعد الموت ، ومراتب السعادات الحاصلة

---

(١) يعرف الحال عند الصوفية بأنه : معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم ولا اجتلاب ولا اكتساب لهم : من طرب ، أو حزن ، أو بسط ، أو قبض ، أو شوق أو غير ذلك ، والمقام : ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف وتطلب ومقاساة . وهو من الإقامة ؛ عكس الحال الذي يتحول ، فالرضا والتوكل والتوبة والإنابة تكون أحوالاً ثم بالتمكن تصير مقامات ثم يترقى منها بعد استيفاء أحكامها إلى مقامات أعلا منها . انظر : الرسالة القشيرية بتحقيق د/ عبد الحليم محمود ٢٠٤/١ ، ٢٠٦ .

(٢) سورة الأنفال /٢ .

في الجنة كثيرة ومختلفة ، فلهذا قال : ﴿ لَهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [(1)]» ثم نقل عن العارفين – الصوفية – في تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ مفادا رائعاً إذ قال عليه الرضوان « وقال العارفون : المراد من المغفرة : إزالة الظلمات الحاصلة من الاشتغال بغير الله ، ومن الرزق الكريم : الأنوار الحاصلة بسبب الاستغراق في معرفة الله ومحبته » .[(2)]

٢- وقال في بيان الصراط المستقيم في « الفاتحة » :

« يحكى عن إبراهيم بن أدهم [(3)] أنه كان يسير إلى بيت الله فإذا أعرابي على ناقة له ، فقال : يا شيخ ، على أين ؟؟ فقال إبراهيم : إلى بيت الله . قال : كأنك مجنون !! لا أرى لك مركبا ولا زادا والسفر طويل !! فقال إبراهيم : إن لي مراكب كثيرة ولكنك لا تراها !! فقال ما هي ؟ قال : إذا نزلت على بلية : ركبت مركب الصبر ، وإذا نزلت على نعمة : ركبت مركب الشكر ، وإذا دعتني النفس إلى شيء علمت أن ما بقي من العمر أقل مما مضى !! فقال الأعرابي : سر بإذن الله فأنت الراكب وأنا الراجل !! » [(4)] .

هذا حال أهل الحقيقة مع الله تعالى !! فهم الذين سطعت في بواطنهم أنوار الإسلام والإيمان والإحسان وتحققوا بمقامات هذا الدين في أعلى مراتبها وأكمل منازلها .

---

(١) الإمام الرازي : مفاتيح الغيب : ١٢٨/١٥.

(٢) السابق.

(٣) هو الإمام الصوفي الزاهد أبو إسحق إبراهيم بن أدهم بن منصور أحد أئمة الطريق ، عاش في القرن الثاني الهجري وهو من أبناء ملوك خراسان فتزهد ودخل البادية ثم دخل مكة وصحب بها الإمامين سفيان الثوري والفضيل بن عياض ودخل الشام وبها توفي ﷺ وكان ممن يعرف اسم الله الأعظم انظر الرسالة القشيرية ٥٤/١.

(٤) الإمام الرازي : ٢٥٩/١-٢٦٠.

المعلم السابع : في الولاية والأولياء :

تناول الإمام الفخر حقيقة الولاية لله ﷻ وبيان معنى الولي في عدة مواطن من تفسيره ولكنه أفاض من ينبوع معرفته وصوفيته الوضاءة في موضوع الولاية في موطنين رئيسين :

١- عند تفسير قوله تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [1] إذ قال : « اعلم أنا نحتاج في تفسير هذه الآية إلى تبين أن الولي من هو ؟ ثم نبين تفسيرنفي الخوف والحزن عنه فنقول : أما الولي من هو ؟ فيدل عليه القرآن والخبر والأثر والمعقول . أما القرآن :فهو قوله في هذه الآية ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ فقوله : ﴿ ءَامَنُواْ ﴾ : إشارة إلى الكمال حال القوة النظرية ، وقوله ﴿ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ : إشارة إلى كمال حال القوة العملية .

وفيه مقام آخر : وهو أن يحمل الإيمان على مجموع الاعتقاد والعمل ، ثم نصف الولي بأنه كان متقياً في الكل . أما المتقي في موقف العلم : فلأن جلال الله أعلى من أن يحيط به عقل البشر ، فالصديق : إذا وصف الله سبحانه بصفة من صفات الجلال : فهو يتدس الله تعالى عن أن يكون كماله وجلاله مقتصراً على ذلك المقدار الذي عرفه ووصفه به ، وإذا عبد الله تعالى : فهو يقدس الله تعالى عن أن تكون الخدمة اللائقة بكبريائه متقدرة بذلك المقدار ، فثبت أنه أبدا يكون في مقام الخوف والتقوى . وأما الأخبار : فكثيرة ، وروى عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال : « هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا

---

(١) سورة يونس : ٦٢-٦٣.

أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم قرأ هذه الآية..» [1].

وعن النبي ﷺ أنه قال : « هم الذين يذكر الله تعالى برؤيتهم » [2] ، قال أهل التحقيق : السبب فيه : أن مشاهدتهم تذكر أمر الآخرة لما يشاهد فيهم من آيات الخشوع والخضوع ، ولما ذكر الله تعالى سبحانه في قوله ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ .[3]

وأما الأثر : فقال أبو بكر الأصم : أولياء الله هم الذين تولى الله تعالى هدايتهم بالبرهان ، وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة إليه . وأما المعقول فنقول : ظهر في علم الاشتقاق أن تركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب ، فولي كل شيء هو الذي يكون قريباً منه ، والقرب من الله تعالى بالمكان والجهة محال ، فالقرب منه إنما يكون : إذا كان القلب مستغرقاً في نور معرفة الله تعالى سبحانه ، فإنه رأى دلائل قدرة الله ، وإن سمع : سمع آيات الله ، وإن نطق : نطق بالثناء على الله ، وإن تحرك : تحرك في خدمة الله ، وإن اجتهد : اجتهد في طاعة الله ، فهناك يكون في غاية القرب من الله ، فهذا الشخص يكون ولياً لله تعالى ، وإذا كان ذلك : كان الله تعالى وليا له كما قال الله تعالى ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [4] ويجب أن يكون الأمر كذلك ، لأن القرب لا يحصل إلا من الجانبين » [5]

---

(١) رواه النسائي وابن حبان في صحيحه من حديث خرجه عنهما المنذري في الترغيب والترهيب « ٤٧/٤ – ٤٨ نشر دار الحديث » وصدر الحديث « إن من عباد الله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء .

(٢) خرجه الحافظ ابن كثير عن البزار من حديث مرفوع عن الإمام ابن عباس ﷺ كما روى عن سيدنا سعيد بن جبير مرسلا ، انظر تفسير ابن كثير ٤٢٢/٢ ط عيسى الحلبي.

(٣) سورة الفتح : ٢٩.

(٤) سورة البقرة : ٢٥٧.

(٥) الإمام الفخر : مفاتيح الغيب ١٣٢/١٧.

٢- وقال في تفسير قوله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ [1] :

« قبل الخوض في الدليل على جواز الكرامات نفتقر إلى تقديم مقدمتين: المقدمة الأولى : في بيان أن الولي ما هو ؟ فنقول ههنا وجهان :

الأول : أن يكون فعيلا مبالغة من الفاعل ، كالعليم والقدير ، فيكون معناه: من توالت طاعاته من غير تخلل معصية .

الثاني : أن يكون فعيلا بمعنى مفعول كقتيل وجريح بمعنى مقتول ومجروح ، وهو الذي يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته على التوالي عن كل أنواع المعاصي ويديم توفيقه إلى الطاعات .

واعلم أن هذا الاسم مأخوذ من قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وقوله ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [2] وقوله تعالى ﴿ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [3] وقوله ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [4] وقوله ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [5].

وأقول : الولي : هو القريب في اللغة ، فإذا كان العبد قريباً من حضرة الله بسبب كثرة طاعته وكثرة إخلاصه ، وكان الرب قريباً منه برحمته وفضله وإحسانه ، فهناك حصلت الولاية » [6] .

وهكذا يبرز الإمام الفخر في تفسيره حقيقة الولاية ليدحض حجة

---

(١) سورة الكهف : ٩.
(٢) سورة الأعراف : ١٩٦.
(٣) سورة البقرة : ٢٨٦.
(٤) سورة محمد ﷺ : ١١.
(٥) سورة المائدة : ٥٥.
(٦) الإمام الفخر : مفاتيح الغيب : ٢١/٨٥-٨٦.

الزاعمين أنه لا توجد في الإسلام ولاية خاصة ، وإنما هي محققة لكل مسلم ، ألا إنهم يمارون في الحق ويتجاهلون أن ولاية الإيمان هي الولاية العامة التي يستبعد منها الكافر ويشترك الطائع وغيره في الاتصاف بها . بيد أن الولاية الخاصة التي إذا أطلق اللفظ ينصرف إليها إنما هي التي يتوافر فيها مع الإيمان ركن التقوى ﴿ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ،[1] إنها ولاية صفوة المقربين من عباد الله الذين صفت قلوبهم لله وأطلق عليهم اسم (الصوفية) .

المعلم الثامن : في التجليات الإلهية

كذلك تناول الفخر في تفسيره تجليات الحق تبارك وتعالى على عباده بذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله ، وقد عبر الصوفية المشاهدون لهذه التجليات عنها بأروع العبارات المتضمنة لكنوز من المعارف الإلهية ، وأثبت الإمام الرازي العديد منها . فقد قال في الفصل الثامن من تفسير الفاتحة : في بيان السبب المقتضى لاشتمال ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ على الأسماء الثلاثة :

« وفيه وجوه : الأول : لاشك أنه تعالى يتجلى لعقول الخلق ، إلا أن ذلك التجلي ثلاث مراتب :

فإنه في أول الأمر يتجلى بأفعاله وآياته ، وفي وسط الأمر : يتجلى بصفاته ، وفي آخر الأمر : يتجلى بذاته .

قيل أنه يتجلى لعامة عباده بأفعاله وآياته ، قال : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾ [2] ، وقال : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ ﴾ [3] ثم يتجلى لأوليائه بصفاته. قال ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ

(١) سورة الأنفال : ٣٤.

(٢) سورة الشورى : ٣٢.

(٣) سورة آل عمران : ١٩٠.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ [1].

ويتجلى لأكابر الأنبياء ورؤساء الملائكة بذاته : ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [2]، إذا عرفت هذا فنقول: اسم الله ﷻ أقوى الأسماء في تجلي ذاته، لأنه أظهر الأسماء في اللفظ ، وأبعدها معنى عن العقول ، فهو ظاهر باطن يعسر إنكاره، ولا تدرك أسراره، قال الحسين بن منصور الحلاج [3]:

اسم مع الخلق قد تاهوا به وَلَهاً
ليعلموا منه معنى من معانيه

والله ما وصلوا منه إلى سبب
حتى يكون الذي أبداه مبديه

وقال أيضا :

يا سر سر يدق حتى
يخفى على وهم كل حي

فظاهراً باطناً تجلى
لكل شيء بكل شيّ

وأما اسمه الرحمن : فهو يفيد تجلي الحق بصفاته العالية ، ولذلك قال : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [4] .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩١. (٢) سورة الأنعام : ٩١.

(٣) هو الشيخ أبو مغيث : الحسين بن منصور الحلاج من أهل بيضاء فارس ونشأ بواسط والعراق وصحب الأئمة : الجنيد والنوري وعمرا المكي ، والمشايخ في أمره مختلفون لتصريحه بما يوهم خلاف الشريعة لكن نافح عنه جمع من المحققين كابن عطاء وابن خفيف وترجمه أصحاب طبقات الصوفية كالسلمي « ص ٣٠٨ » ونقل فيه قول ابن خفيف إنه عالم رباني ، وتوفي سنة ٣٠٩.

(٤) سورة الإسراء : ١١٠.

وأما اسمه الرحيم فهو يفيد : تجلي الحق بأفعاله وآياته ، ولهذا السبب قال : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [1] » [2]

وبعد :

فهذه بعض المعالم الوضاءة التي استقيناها من تفسير الإمام فخر الدين الرازي ﷺ ، قصدنا من إبرازها لأهل العلم وطلاب الحقيقة تدعيم حقية التصوف الإسلامي وتجسيد معالمه الوضاءة من مشكاة إمام مجمع على جلالته في علوم المنقول والمعقول ، حتى لا يظن الأغرار المفتونون من خصوم التصوف الإسلامي أن التصوف نحلة غريبة على الإسلام وأن الصوفية خارجون على المحيط الشرعي لهذا الدين الحنيف .

كلا أيها القوم : إن التصوف الحق روح الإسلام وذروة سنامه ، وإن من ارتقى الذروة من علماء المسلمين واستشرف أنوار الحقيقة لا محالة منخرط في سلك هؤلاء الصفوة الصوفية .

إن سطور هذا البحث لتؤكد في وضوح الحق وصراحة اليقين : أن التصوف ليس كما يتراءى للدهماء السذج أو الجهلة بحقيقة الإسلام مجرد دروشة تهيم في وادي الغيبوبية وإنما هو علم مقتبس من هدي الكتاب والسنة ومعرفة تتهافت مدارك العقول دون الإحاطة بضوء شمسها الوهاجة . إنه الشريعة والطريقة والحقيقة ، إنه ميراث النبي ﷺ .

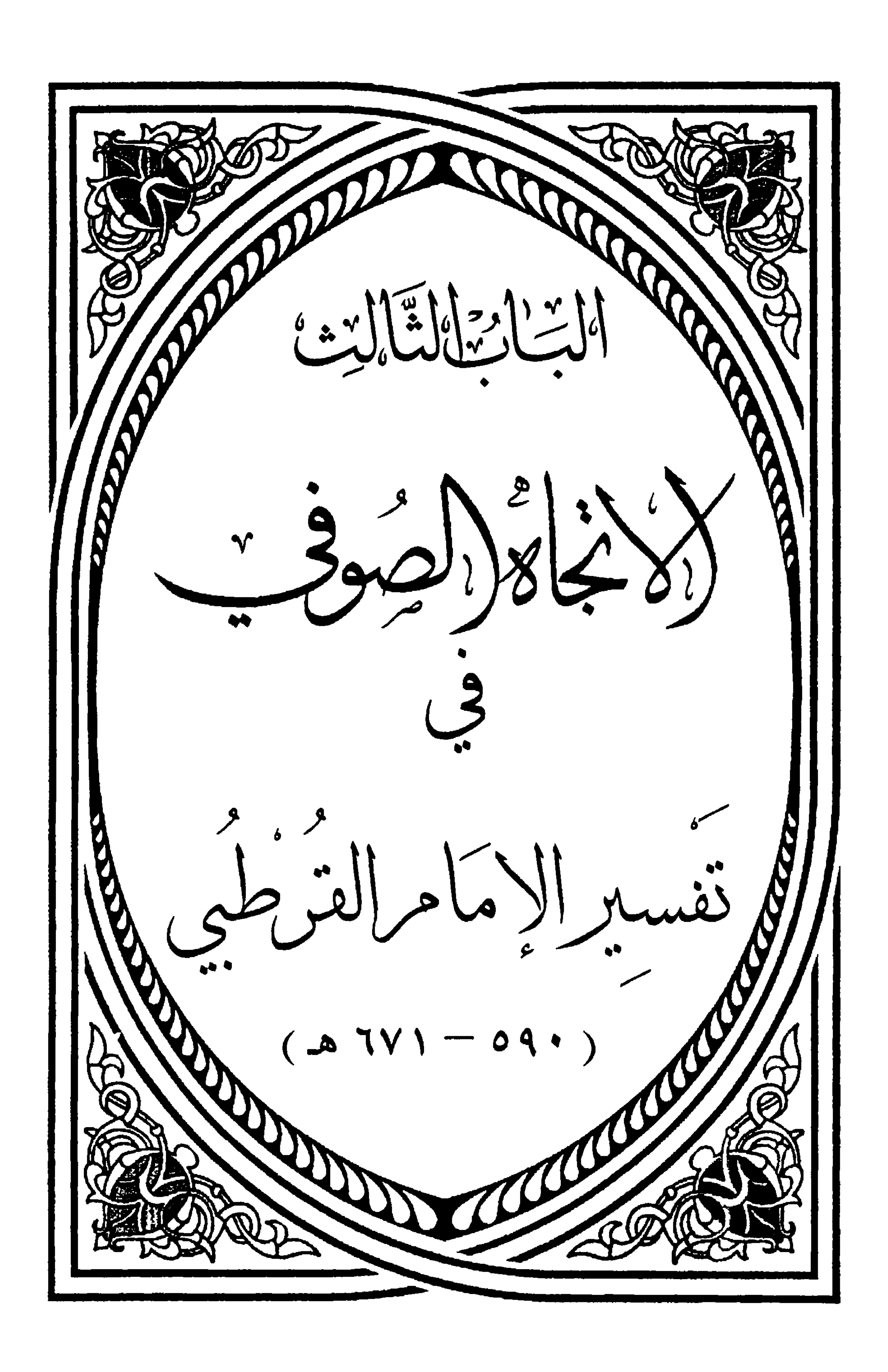
بهذه المعطيات الوضاءة نطق إمام المفسرين ورئيس المتكلمين ، وفخر الفقهاء والأصوليين مجدد القرن السادس الهجري الإمام فخر الدين الرازي ﷺ وجزاه عن الإسلام وأهله خير الجزاء .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) سورة غافر : ٧.

(٢) الإمام الرازي : مفاتيح الغيب ١/٢٩١.



الباب الثالث

الاتجاه الصوفي في تفسير الإمام القرطبي

(٥٩٠ - ٦٧١ هـ)

مباحث هذا الباب

- تمهيد
- لمحات شخصية وجوانب علمية :
- مولد الإمام القرطبي ونشأته .
- شيوخه في التصوف .
- كتبه وتصانيفه .
- تصوفه وأخلاقه .
- المعالم الصوفية في تفسير القرطبي .

المعلم الأول : إصداره عن أئمة الصوفية .

المعلم الثاني : في الولاية والأولياء .

المعلم الثالث : في إثبات الكرامات .

المعلم الرابع : في السلوك والمعرفة .

المعلم الخامس : في الأحوال والمقامات .

المعلم السادس : في التوسل والتبرك .

تمهيد

من أنوار صفات الحق تبارك وتعالى سطعت شوارق الحكمة الربانية في قلوب الصفوة المصطفين لوراثة الكتاب المبين ؛ إذ تجلت عليهم صفات الجلال والكمال فكوشفت أسرارهم بحقائق المعاني ، وتأيدت عقولهم بالفتح الرباني ، أولئك هم ألوا الألباب الذين أتاهم الله الحكمة ، وأمدهم بنور التبصر والتذكر والتدبر لأسرار التنزيل ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [1] .

ولقد عقل أهل الرسوخ في علم التنزيل موارد الفهم لكتاب الله تعالى ، فعقدوا ضوابط وشروطاً لمن يتصدى لخوض عباب التفسير القرآني ، وذكروا من تلك الشروط – مع تحصيل علوم اللغة والقراءات والأصول وغيرها – ضرورة حصول علم الموهبة ؛ وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم وإليه الإشارة بقوله ﷺ : « من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم » [2]

وقد نوه الإمام الزركشي – عليه الرضوان – بضرورة استجماع من يتصدى للتفسير لركنين أساسيين : التبحر في العلوم المؤهلة لخوض عبابه ، والتحقق بالتقوى التي هي مفتاح العلم الرباني ، لاستفتاح أبواب مدارك التنزيل والوقوف على الحقائق واللطائف ؛ يقول صاحب « البرهان » :

« كتاب الله بحر عميق وفهمه دقيق ، لا يصل إلى فهمه إلا من تبحر في العلوم وعامل الله بتقواه في السر والعلانية ، وأَجَلَّهُ عند مواقف الشبهات ».

(١) سورة البقرة : ٢٦٩.

(٢) خرجه العجلوني في كشف الخفاء (٢/٣٦٥) عن أبي نعيم عن سيدنا أنس ﷺ .

واللطائف والحقائق : لا يفهمها إلا من ألقى السمع وهو شهيد .

فالعبارات : للعموم ، وهي للسمع ، والإشارات للخصوص ، وهي للعقل ، واللطائف : للأولياء ، وهي المشاهد ، والحقائق للأنبياء وهي الاستسلام . وللكل وصف ظاهر وباطن ، وحد ومطلع .

فالظاهر : التلاوة ، والباطن : الفهم ، والحد : إحكام الحلال والحرام ، والمطلع – أي الإشراق - : من الوعد والوعيد .

فمن فهم هذه الملاحظة : بان له بسط الموازنة ، وظهر له حال المعاينة، وفي صحيح ابن حبان : عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، لكل آية منه ظهر وبطن » [1]

من هنا نجد : أن أساطين المفسرين وعلماء التنزيل قد ارتقوا لفهم كتاب الله تعالى وتأهلوا لإدراك معارفه وحقائقه ولطائفه بتطهير بواطنهم من الحجب والأغيار ، وتصفية قلوبهم من العلائق والأكدار ، حتى أشرقت لهم الأنوار ، ولاحت لهم الأسرار ، فأودعوا ما شاء الله لهم منها بطون تفاسيرهم وتصانيفهم ، وهو ما نسجله ونرصده لهم في سلسلة « الاتجاه الصوفي عند المفسرين ».

ودورنا الآن مع إمام من أعاظم المفسرين الذين تربعوا على القمة وجمعوا بين العلم والعبادة والتشرع والتحقق ، وقدموا للأمة المحمدية عطاءً زاخراً في مختلف العلوم والمعارف ، وعلى رأسها : تفسير القرآن العظيم ، إنه الإمام العلامة أبو عبد الله القرطبي رحمه الله ورضي عنه .

---

(١) الزركشي : البرهان : ٢/١٥٣.

لمحات شخصية وجوانب علمية :

لم يحفل مؤرخو التراجم العلمية بالعديد من أساطين الرواد الذين خلفوا آثاراً علمية ازدحمت بها شرفات التاريخ بما يليق بسمو مجدهم وثراء عطائهم ، ومن هؤلاء : شيخنا القرطبي ، إذ لم ترد عنه - فيما وقفنا عليه من مصادر ترجمته - إلا شذرات تناقلها كتاب التراجم العلمية بتكرار يؤكد القليل عنه ولا يفي بالكثير .

ففيما يتعلق باسمه ونسبه تناقلت المصادر عن « الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب » لابن فرحون :

أنه الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح - بسكون الراء وبعدها حاء مهملة - الأنصاري ، الخزرجي المالكي ، الأندلسي القرطبي ﷺ .[1]

مولده ونشأته :

وقد ولد الإمام القرطبي بقرطبة من بلاد الأندلس - أعادها الله تعالى للمسلمين - في عصر الموحدين ، ولم تسجل المصادر التاريخية - المتداولة الآن - سنة مولده بينما نصت على أن وفاته كانت ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة ٦٧١ هـ .

وقد اجتهد أخونا الزميل الدكتور القصبي زلط في تحديد تاريخ مولد القرطبي حيث لم تسعفه المصادر في ذلك ، فافترض بغلبة الظن أنه ولد في الحلقة الأخيرة من القرن السادس الهجري أو قبل ذلك بقليل ، ومن ثم يكون مولده في عهد الخليفة « يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن » [٥٨٠-٥٩٥ هـ][2]

---

(١) انظر : الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون /٣١٧.

(٢) أ.د/القصبي زلط: القرطبي ومنهجه في التفسير (رسالة دكتوراه) نشر دار الأنصار: ص٦.

ونشأ أبو عبد الله القرطبي في رعاية أبيه على طريقة الأندلسيين ، فحفظ القرآن الكريم وإلى جانبه تعلم اللغة والشعر ، وتنقل بين حلقات العلم في قرطبة ناهلاً من محصلات شيوخها كأبي جعفر أحمد المعروف بأبي حجة (ت سنة ٦٤٣ هـ) وكان علامة في العربية وعلوم القرآن ، وكأبي سليمان ربيع بن عبد الرحمن الأشعري قاضي قرطبة وكان من المشاركين في علم الحديث وتوفي بأشبيلية بعد سنة ٦٣٣ هـ.

وكان من شيوخه في قرطبة أيضاً : الشيخ الفقيه المحدث أبو عامر يحيى بن عامر بن أحمد بن منيع الأشعري نسباً ومذهباً ، فقد نص القرطبي في تفسيره على القراءة عليه في ربيع الآخر سنة ٦٢٨ هـ.[١]

وتدلنا ترجمة القرطبي الذاتية لنفسه في أحشاء تفسيره : على أن والده رَحِمَهُ اللهُ تعالى كان يشتغل بالزراعة بقرطبة ، وقد قتل في غارة أغارها النصارى على أهل قرطبة صبيحة الثالث من رمضان سنة ٦٢٧ هـ والناس على غفلة في أجرانهم .[٢]

واستمر أبو عبد الله في تحصيل العلم بالأندلس على شيوخها الأثبات في علوم اللغة والفقه والقراءات، وغيرها حتى سقطت قرطبة سنة ٦٣٣ هـ وبعدها أشبيلية سنة ٦٤٦ هـ.

ومن السيرة الذاتية للقرطبي أيضاً نقف على أنه كان في مواجهة أعداء الله في حروب الأندلس وقد وقعت له كرامة معهم تسجل ولايته وتحقق صوفيته :

ففي تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ٣/٢٣٧.

(٢) نفس المصدر السابق ٤/٢٧٢.

﴿يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [1] : بَيَّن بالسنة والأثر خاصيتها وكذا الآيات من أول سورة « يس » إلى قوله تعالى ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [2] في استتار قارئها عن الأعداء ثم قال :

« قلت : ولقد اتفق لي ببلادنا الأندلس بحصن « منثور » من أعمال قرطبة مثل هذا : وذلك أنى هربت أمام العدو ، وانحزت إلى ناحية عنه فلم ألبث أن خرج في طلبي فارسان وأنا في فضاء من الأرض ، قاعد ليس يسترني عنهما شيء ، وأنا أقرأ أول سورة « يس » وغير ذلك من القرآن ، فعبرا عليَّ ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر : « هذا ديبله » [3] ، يعنون : شيطاناً، وأعمى الله ﷻ أبصارهم فلم يروني ، والحمد لله حمداً كثيراً على ذلك » [4] !!

وشاء القدر الإلهي أن يقدم أبو عبد الله القرطبي إلى مصر الكنانة بعد محنة سقوط الأندلس ليقضي شطر عمره الآخر بمصر ، فقدم إليها بين سنة ٦٤٦ هـ وسنة ٦٤٨ هـ ، وواصل استمداده العلمي من أئمتها ومن المرتحلين إليها من علماء الإسلام ، فتلقى عن الإمام المحدث أبي محمد عبد الوهاب ابن رواج المتوفى سنة ٦٤٨ هـ .

وفي مدينة « الإسكندرية » أقام القرطبي وتلقى عن ثلة من الشيوخ الذين تخرجوا في مدرسة أبي بكر الطرطوشي وابن عوف والحافظ السلفي كابن رواج وأبي العباس القرطبي« ت ٥٦٥ هـ » صاحب « المفهم في شرح مسلم »

---

(١) سورة الإسراء : ٤٥.

(٢) سورة يس : ١-٩.

(٣) ضبطت « ديبله» : بكسر الدال وفتح الياء وسكون الباء وضم اللام لأنها ينطق بها في الأسبانية « ديبلو» « تعليق ومراجعة دار الكتب على تفسير القرطبي : ٢٧٠/٠ ».

(٤) الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٢٧٠/١٠.

الذي اعتمد عليه الإمام النووي ﷺ في شرحه .

كما تتلمذ القرطبي على العلامة أبي الحسن الجميزي « ت ٦٤٩ هـ » ، وقد وصفه الذهبي بأنه شيخ الديار المصرية ومسند زمانه ، فتتلمذ عليه وعلى الحافظ البكري بالقاهرة قبل أن يذهب إلى صعيد مصر .[١]

شيوخه في التصوف :

ولقد وقفت من خلال قراءتي لتفسير القرطبي على ذكر أئمة من شيوخه أصدر عنهم في الولاية والمعرفة منهم : شيخه أبو العباس القرطبي وأبو محمد عبد المعطي اللخمي .[٢]

لقد حصَّل الإمام القرطبي من هؤلاء الأساطين ومن غيرهم رصيداً زاخراً في العلم والمعرفة حتى صار بحراً متلاطم الأمواج وأضحى حرياً بقول الإمام الحافظ الذهبي عنه في « تاريخ الإسلام » : « إمام متفنن متبحر في العلم ، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور عقله وفضله »[٣]

ووصفه ابن العماد بقوله : « كان إماما علما من الغواصين على معاني الحديث حسن التصنيف جيد النقل »[٤]

كتبه وتصانيفه :

وقد صنف الإمام عديداً من الأمهات والمصنفات في فروع العلم :

* فمنها : كتاب « **التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة** » وهو كتاب فريد في بابه ، وقد اختصره الإمام عبد الوهاب الشعراني رضي الله تعالى عنه

---

(١) انظر : القرطبي ومنهجه في التفسير للدكتور القصبي زلط ص ٢٩.

(٢) انظر : الجامع لأحكام القرآن عند تفسير آيات قصة سيدنا موسى والخضر عليهما السلام : ١١/٤٠-٤٣.

(٣) الحافظ الذهبي : تاريخ الإسلام : الترجمة رقم ٨٨.

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب ٥/٣٣٥.

في كتاب لطيف مطبوع أضاف فيه تجربته الروحية ما يعزز نسبته إليه ويرد به على من تشكك في صحة هذه النسبة كصاحب « كشف الظنون ».

* ومنها : كتاب « **الإعلام بما في دين النصارى من المفاسد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام** » ، وهو مصنف بديع الشأن في علم العقيدة ومقارنة الأديان .

* ومنها : كتاب « **الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى** » وهو شرح كبير ومفيد في بابه ويشتمل – كما ذكر صاحب كشف الظنون – على واحد وأربعين فصلاً .

* ومنها : كتاب « **التذكار في أفضل الأذكار** » وهو كما ذكر الحافظ الداودي : وضعه على طريقة « التبيان » للنووي ، لكن هذا أتم منه وأكثر علما .[1]

* ومنها : كتاب « **المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس** » وهو لم يثبت فيما ذكره أصحاب التراجم لكنه ذكره في تفسيره عند تفسير قوله تعالى ﴿ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾ [2]

* ومنها : كتاب « **قمع الحرص بالزهد والقناعة ؛ ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة** » أثنى عليه ابن فرحون بقوله : « لم أقف على تأليف أحسن منه في بابه »[3]

* ومنها : كتاب « **شرح التقصي** » وهو شرح على كتاب التقصي لابن عبد البر صاحب « التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد » وقد ذكر

(١) الحافظ الداودي : طبقات المفسرين ٦٦/٢.

(٢) سورة البقرة : ٢٠٣ ، وانظر : تفسير القرطبي ٩/٣.

(٣) انظر الداودي طبقات المفسرين: ٦٦/٢ والدكتور القصبي : القرطبي ومنهجه في التفسير ص ٦٦.

بروكلمان أن القرطبي اختصر التمهيد أيضاً .[1]

* ومنها : كتاب « **المصباح في الجمع بين الأفعال والصحاح** » وهو في اللغة ، اختصر فيه القرطبي كتاب الأفعال لأبي القاسم بن القطاع وكتاب الصحاح للجوهري .

* وله أيضاً : أرجوزة جمع فيها أسماء النبي ﷺ .[2]

* ثم له : تفسيره العظيم الذي سارت به الركبان وهو المسمى « **الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان** » ، وهو كما قال ابن فرحون : « من أَجَلِّ التفاسير وأعظمها نفعاً ، أسقط منه القصص والتواريخ وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة ، وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ » [3]

إن هذا التفسير الجامع لم ينل حظه اللائق به من التقويم والتقدير مع أن زميلنا الدكتور القصبي قدم عنه دراسة رائعة وفيها جهد كبير ، بيد أن نتاج الشوامخ من أمثال القرطبي لا تفي دراسة واحدة أو اثنتان أو ثلاث بحق موسوعيته وتبحره ، فإن تفسير القرطبي – على الحقيقة – موسوعة قرآنية كبرى لا تصنف في اتجاه واحد كما فعل الدكتور الذهبي في « التفسير والمفسرون » إذ صنفه ضمن تفاسير الفقهاء فأين حظ الجانب اللغوي والبلاغي والنحوي والصوفي وغير ذلك ؟ فلماذا اقتصر على الجانب الفقهي – مع التسليم بتبحره فيه – مع أنه قال في تقويمه : « وعلى الجملة : فإن القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره هذا حر في بحثه ، نزيه في نقده ، عف في مناقشته

---

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر الداودي طبقات المفسرين ٦٦/٢.

(٣) ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٣١٧.

وجدله ، ملم بالتفسير من جميع نواحيه بارع في كل فن استطرد إليه وتكلم فيه » [1]

تصوفه وأخلاقه :

يقف المستطلع لما تناقلته المصادر في ترجمة القرطبي على صورة واضحة المعالم لرجل متشرع متحقق ، جمع بين العمق والموسوعية العلمية ، وبين الزهد والورع والصلاح والمعرفة والتحقق ، فقد ترجم له كل من ابن فرحون والحافظ الداودي بقوله :

« ... كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين ، الورعين الزاهدين في الدنيا المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة ، أوقاته معمورة ما بين توجه وعبادة وتصنيف ... »[2]

ولا يتصف بهذه الصفات – مجتمعة – إلا صوفي عرف الطريق إلى الله تعالى ، فسلك مسلك الأتقياء الأصفياء بالتجرد من علائق الدنيا [3] ، وتبصر أمر الآخرة بالعلم الواسع النافع ، وباستدامة الطاعة والعبادة والتوجه إلى الله سبحانه حتى أشرقت في قلبه أنوار المعرفة وصار متحققاً بمقام الإحسان يعبد الله كأنه يراه ، مكاشفاً بالأنوار والأسرار متجافياً عن دار الغرور منيباً إلى دار الخلود !!

ومصداق ذلك : ما روى عن سلوكه في الزهد وترك الاحتفاء بتجمل الظاهر ، فقد ذكر صاحب « الديباج » في ترجمته أنه « كان مطرحاً للتكلف ،

---

(١) الدكتور الذهبي : التفسير والمفسرون ١٣٠/٣.

(٢) ابن فرحون : الديباج المذهب : ٣١٧ والحافظ الداودي : طبقات المفسرين : ٦٥/٢.

(٣) انظر وجهة نظر القرطبي في الانكشاف عن اللذات والخلوص لرب الأرض والسموات وتأييد مذهب القراء المتنسكين عند تفسير قوله تعالى ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ من سورة الحجر في الجامع لأحكام القرآن ٥٧/١٠.

يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية » !! [1]

ومع ذلك : تصدى القرطبي في تفسيره لغلاة المتزهدين الذين حرموا التمتع بطيب الحلال ، ونعى على من انتسب إلى الصوفية وحرم أكل الطيبات ولبس رفيع الثياب ، وأزال ما يوهم التناقض بين قوله وسلوكه ، فقال في تفسير قوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ ﴾ [2] الآية .

قلت : وقد كره بعض الصوفية أكل الطيبات واحتج بقول عمر ﷺ « إياكم واللحم فإن له ضراوة كضراوة الخمر ».

والجواب : أن هذا من عمر : قول خرج على من خشي منه إيثار التنعم في الدنيا والمداومة على الشهوات ، وشفاء النفس من اللذات ، ونسيان الآخرة ، والإقبال على الدنيا : ولذلك : كان يكتب عمر إلى عماله : « إياكم والتنعم وزى أهل العجم ، واخشوشنوا » ولم يرد عنه ﷺ تحريم شيء أحله الله ، ولا تحظير ما أباحه الله تبارك اسمه ، وقول الله ﷻ : أو ما امتثل واعتمد عليه . [3]

ولقد مر بنا – في الحديث عن شيوخه – أن منهم من كانت لهم قدم في الولاية والتصوف كشيخه الإمام أبي محمد عبد المعطي بن محمود اللخمي الذي صنف شرحاً للرسالة القشيرية . [4]

فانعكس تأثر القرطبي بأشياخه العارفين في سلوكه وفي نتاجه العلمي

(١) انظر المصدرين السابقين .

(٢) سورة الأعراف : ٣٢.

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ١٩٦/٧.

(٤) انظر : الجامع لأحكام القرآن : ٤٣/١١.

ولاسيما « الجامع ».

ولقد دخل القرطبي في التصوف بروح العالم الفقيه الذي أحكم أصول عقيدته على مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري رضوان الله عليه ثم تبحر في الفقه على مذهب الإمام مالك ﷺ ، واستوعب طرائف الاستدلال بعقلية فذة وبصيرة نافذة فابتنى تصوفه على أساس علمي وطيد ، وبث شعاع صوفيته في فجاج موسوعته التفسيرية الكبرى .

ومما يجدر التنويه به : أن القرطبي الذي عاش جل حياته في القرن السابع الهجري وقضى شطرها الأول في ربوع الأندلس والثاني في مصر ما بين الإسكندرية ، والقاهرة ، والصعيد : قد عاصر نخبة وفراء من أعلام الصوفية ومنهم عدد وفير ممن هاجروا مثله من الأندلس والمغرب إلى مصر – التي تزعمت حركة المقاومة الصليبية في العالم الإسلامي – وقد استقر أكثرهم بصعيد مصر ودفن بها .

من هؤلاء : علامة القراءات الصوفي أبو العباس أحمد بن محمد البصير الأنصاري الأندلسي « ت ٣٢٣ هـ » فقد هاجر من المغرب إلى القاهرة وتخرج عليه سبعة آلاف عالم في القراءات .

ومنهم : القطب سيدي عبد الرحيم القنائي الحسني « ت ٥٩٢ هـ » وأصله من « سبتة » ، وقدم مصر واستقر بقنا وبها توفي هو وابناه السيد الحسن « ٦٥٥ هـ » والسيد محمد « ٦٩٢ هـ » .

ومنهم : الشيخ إبراهيم بن على بن عبد الغفار الأندلسي المتوفى بقنا « سنة ٦٥٦ هـ » .

ومنهم : سيدي أبو الحسن الشاذلي ﷺ إمام الطريقة الشاذلية الذي قدم من المغرب وتوفي بصحراء عيذاب بقنا سنة ٦٥٦ هـ ، وأيضاً خليفته سيدي

أبو العباس المرسي ﷺ المولود بـ«مرسية» والمتوفى بالإسكندرية سنة ٦٨٦ هـ.

ومنهم : القطب الشريف العلوي سيدي أحمد البدوي ﷺ إمام الطريقة السطوحية الأحمدية الذي ولد في «فاس» بالمغرب ، وتوفي في طندتا «طنطا» سنة ٦٧٥ هـ.[1]

وغيرهم كثير وكثير تلقتهم الكنانة المباركة وغمروا آفاقها وشعابها نوراً وهديا .

وقد كان قدوم القرطبي إلى مصر في آخر حكم الأيوبيين ثم عاصر اغتصاب المماليك للحكم فاستقر أولا بالإسكندرية حقبة من الزمن ثم انتقل إلى القاهرة ومكث بها فترة ثم اتجه إلى «منية بني خصيب» بصعيد مصر المعروفة الآن بـ« المنيا » واستقر بها إلى أن توفي ﷺ ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة ٦٧١ هـ في عهد « الظاهر بيبرس البندقداري » .

ومما يدل على أن الإمام القرطبي كان من أولياء الله الصالحين ومن الصوفية الواصلين : أنه قد بني له ضريح وقبة يضمها مسجد يحمل اسمه بالمنيا كما حققه الدكتور القصبي في رسالته إذ قال : « وللقرطبي قبر يزار ويتبرك به بالمنيا بشرق النيل ، وقد تم في سنة ١٩٧١م بناء مسجد كبير يحمل اسم القرطبي بمكان يسمى « أرض سلطان » بالمنيا ، ويضم هذا المسجد ضريحاً نقلت رفات القرطبي إليه من الضريح القديم ، ولقد قمت بتصوير قبره القديم وتصوير مسجده وضريحه الجديدين »[2]

---

(١) أحمد عز الدين عبد الله خلف الله : السيد إبراهيم الدسوقي ص ٢٧-٣٣.

(٢) د. القصبي : القرطبي ومنهجه في التفسير ص ٣٠.

ولنأت الآن إلى تعرف :

المعالم الصوفية في تفسير القرطبي :

حفل تفسير أبي عبد الله القرطبي – الذي يعد موسوعة كبرى متعددة الجوانب في التفسير القرآني – بالكثير من المعالم التي تجسد اتجاهه الصوفي وارتواءه من ينابيع التصوف الإسلامي في صورته الخالصة النقية واستنباطه للمفاهيم الصوفية الوضاءة من آي القرآن المجيد .

وسأركز في بحثي هذا على جملة من المعالم الأساسية التي استخلصتها من سياحتي في تفسيره مستشهداً لكل منها بالشواهد والنماذج التي ترسخ وجوده وتوضح أبعاده وتزيح اللبس عن أفهام المنكرين .

فالمعلم الأول : إصداره عن أئمة الصوفية ورجوعه إلى كتبهم وأقوالهم في مواضع بالغة الكثرة في تفسيره .

لقد تحقق الإمام القرطبي بموسوعيته العلمية وشفافيته الصوفية أن أهل المعرفة بالله تعالى ممن سلكوا طريق التصوف المشيد على الكتاب والسنة هم أعرف الخلق بالله تعالى ومرامي كلامه العزيز فأصدر عنهم نقولاً بلغت من الكثرة حداً يتعذر استقصاؤه في صفحات تفسيره « الجامع » ، تارة يعزوها إلى قائليها من أهل المعرفة في القرون الخمسة التالية للقرن الأول – الذي هو خير القرون – وتارة أخرى بالنص على نقلها من كتب تفاسير الصوفية ، وعلى الأخص منها تفسير الإمام سهل بن عبد الله التستري ﷺ « ت ٢٨٣ هـ » المسمى « تفسير القرآن العظيم » ، وتفسير الإمام أبي عبد الرحمن السلمي ﷺ « ت سنة ٤١٢ هـ » المسمى « حقائق التفسير » ، وتارة ثالثة يعزوها إليهم تحت مصطلح « أهل المعاني » أو « أهل الإشارات » .

ومما لا شك فيه : أن ارتضاء القرطبي للنقل عن هؤلاء الأكابر في

كتاب الله تعالى إقرار ضمني بصحة معرفتهم واستقامة مسلكهم وصدق تحققهم والاعتداد بفهمهم النوراني لكتاب الله تعالى لاسيما وأن نقل الإمام القرطبي عنهم قد تعددت جوانبه في تفسيره في المجالات العقدية والسلوكية والأخلاقية . ومن شواهد هذا الإصدار عن أئمة الصوفية ما يلي :

١- في تفسير صدر سورة « الفاتحة » : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال:

« ... ويذكر عن جعفر الصادق [١] في قوله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ : من حمد بصفاته كما وصف نفسه فقد حمد ؛ لأن الحمد حاء ، وميم ، ودال ، فالحاء : من الوحدانية ، والميم : من الملك ، والدال : من الديمومية ، فمن عرفه بالوحدانية والديمومية والملك فقد عرفه وهذا هو حقيقة الحمد !! .

وقال شقيق بن إبراهيم [٢] في تفسيره ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ قال : هو على ثلاثة أوجه :

أولها : إذا أعطاك شيئاً تعرف من أعطاك .

الثاني : أن ترضى بما أعطاك .

والثالث : ما دامت قوته في جسدك: ألا تعصيه . فهذه شرائط الحمد ».[٣]

---

(١) هو الإمام أبو عبد الله جعفر بن الإمام محمد الباقر بن الإمام على زين العابدين بن الإمام أبي عبد الله الحسين بن سيدنا الإمام على بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنهم أجمعين : من أعاظم أئمة أهل البيت الأطهار أخذ عنه شوامخ من علماء السلف وفقهاء الأمة منهم الإمام أبو حنيفة والإمام مالك رضي الله عنهما ، وقد ولد رضوان الله عليه سنة ٨٠ هـ وتوفي سنة ١٤٨ هـ « انظر : معجم المؤلفين ١٤٥/٣ » وقد أخذ عنه أعلام من صوفية القرن الثاني ومنهم سيدي أبو يزيد البسطامي وغيره رضي الله عنهم .

(٢) هو العارف بالله تعالى سيدي أبو علي شقيق بن إبراهيم البلخي « ت سنة ١٩٤ هـ» كان ﷺ من مشايخ خرسان وأول من تكلم في علم الأحوال بها ، وقد أخذ الطريق عن سيدي إبراهيم بن أدهم وعنه سيدي حاتم الأصم .

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ١٣٤/١

وقد استقى القرطبي هذا الإصدار للتفسير الصوفي من « حقائق التفسير» للإمام أبي عبد الرحمن السلمي ﷺ مع أنه لم يشر إليه [١].

٢- وفي تفسير قوله تعالى ﴿ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ من الفاتحة المباركة قال عليه الرضوان :

بعد أن ساق أقوال أهل اللغة والتفسير في معنى ﴿ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ : « وقد ذكر أن رجلا قال بين يدى الجنيد[٢] : الحمد لله . فقال له : أتمها كما قال الله ، قل : ﴿ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ فقال الرجل : ومن « العالمين » حتى تذكر مع الحق ؟ قال : قل يا أخي ، فإن المُحدَث إذا قُرِنَ مع القديم لا يبقى له أثر »[٣]

انظر إلى علو مراقي أهل الحقيقة في معرفة الله تعالى ؟؟ إن الرجل الذي تكلم بين يدي الإمام الجنيد غلب على قلبه إفراد الحق تعالى بالذكر ، فلم يذكر معه ﴿ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ بيد أن العارف الجنيد قدس الله سره كان أتم منه معرفة فأرشده إلى الاقتداء بهدي الكتاب والسنة وأزاح عنه الوهم بتلاشي وجود المُحدَث أمام وجود القديم ، فليت شعري أين المنكرون على الصوفية بدعوى الحفاظ على التوحيد من هذا المرتقى العالي في فهم حقائق التوحيد ؟؟

٣- ومن أمثلة إصدار القرطبي عن التفسير الصوفي لأبي عبد الرحمن السلمي ﷺ : ما ذكره عند تفسير قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ،

---

(١) أ.د/ القصبي زلط : القرطبي ومنهجه في التفسير ص ٣١٥.

(٢) هو الإمام أبو القاسم الجنيد بن محمد البغدادي سيد الطائفة الصوفية ، أصله من « نهاوند» ومولده ومنشؤه ببغداد، أخذ عن خاله الإمام السرى السقطى ودرس الفقه على أبي ثور وصار شيخ وقته «ت ٢٩٧ هـ »

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ١/١٣٩.

حيث قال : « قال السلمي في حقائقه : سمعت محمد بن عبد الله بن شاذان يقول : سمعت أبا حفص الفرغاني يقول : من أقر بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فقد بَرِئَ من الجبر والقدر »[1]

أجل : فإن إقرار العبد بإسناد فعل العبادة إليه مفيد لاختياره لها وعدم إجباره عليها .

واستعانة العبد بمولاه على العبادة دليل على عدم استقلاله الذاتي بأدائها بمحض تقديره لها ، بل بإقدار الحق تعالى له على أدائها ، ومن ثم تدحض الآية الكريم مذهبي الجبرية والمعتزلة القدرية ، كما فهمها أهل السنة والجماعة وفي عدادهم العارفون الصوفية .

٤- ونجد القرطبي يصدر عن الصوفية في بيان علل القلوب وأمراضها وأسبابها – باعتبارهم أهل الاختصاص في معرفة أدواء القلب وأدويته – فيقول عند تفسير قوله تعالى ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ الآية .[2]

« ... وقال أرباب المعاني : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ : أي : بسكونهم إلى الدنيا وحبهم لها وغفلتهم عن الآخرة وإعراضهم عنها .

وقوله : ﴿ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ أي : وكلهم إلى أنفسهم ، وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرغوا من ذلك إلى اهتمام بالدين.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ : بما يفنى عما يبقى.

وقال الجنيد : علل القلوب : من اتباع الهوى ، كما أن علل الجوارح من

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ١٤٥/١.

(٢) سورة البقرة : صدر الآية العاشرة .

مرض البدن ».[1]

٥- كما نجد القرطبي يعتمد التفسير الصوفي الإشاري ويصدر عن الصوفية في مواضع عديدة من تفسيره باسم « أهل الإشارات » ، فيقول مثلا عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [2]

« .... قال أهل الإشارات : ذَكَّرَهم الله تعالى سفر الآخرة ، وحثهم على تزود التقوى ، فإن التقوى زاد الآخرة ، قال الأعشى :

إذا أنت لم ترحل بزاد التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على أن لا تكون كمثله وأنك لم ترصد كما كان أرصدا [3]

وغير ذلك من النقول التي أثبتها القرطبي في تفسيره عن السادة الصوفية الكثير والكثير مما يجعلنا نقرر أن الصوفية من المصادر البارزة في هذا التفسير « الجامع » [4]

كما سيتضح أيضاً من المعالم والشواهد التالية .

المعلم الثاني : في الولاية والأولياء :

لقد تناول القرطبي رحمه الله تعالى في تفسيره : الحديث عن الولاية وبيان مراتب الأولياء وعظم مكانتهم عند الله تعالى ، وبيان صفاتهم وأنواعهم ، وتعرض لبيان طائفة « الأبدال » منهم ، فنوه بمنزلتهم وأكد وجودهم بالسنة الشريفة وبالمأثور عن السلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين بما يعطي

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ١/١٩٨.

(٢) سورة البقرة : من الآية الكريمة ١٩٧.

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٢/٤١٢.

(٤) انظر مبحث : مصادر القرطبي من التفسير الصوفي ضمن الفصل السادس من رسالة «القرطبي ومنهجه في التفسير» لأخينا الزميل الدكتور القصبي محمود زلط ص ٣١٤ نشر دار الأنصار القاهرة .

انطباعاً راسخاً بأن القرطبي كان على معتقد الصوفية سائراً في اتجاههم مذعناً بحقائقهم ، وهذه أمثلة شواهد لذلك :

(٨٠٩ عند تفسير قوله تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [1]

قال : « .... قوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : في الآخرة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ لفقد الدنيا .

وقيل : ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي : من تولاه الله تعالى وتولى حفظه وحياطته ، ورضي عنه فلا يخاف يوم القيامة ولا يحزن ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ أي : جهنم ، إلى قوله : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ »[2]

وروى سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ سئل : من أولياء الله ؟

فقال : الذين يذكر الله برؤيتهم .[3]

وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى ، قيل : يا رسول الله خبرنا من هم ؟ وما أعمالهم ؟ فلعلنا نحبهم . قال : هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال

(١) سورة يونس : ٦٢.

(٢) سورة الأنبياء : ١٠١ وما بعدها

(٣) أخرجه النسائي والبزار مرفوعا عن الإمام ابن عباس رضي الله عنهما وروى مرسلا عن سيدنا سعيد بن جبير ﷺ وأخرجه ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا « انظر التخريج في كتاب الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام للحافظ عبد الله بن الصديق ص ٦٤ » .

يتعاطون بها ، فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس – ثم قرأ ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [1] »[2]

ثم أتبع القرطبي ذلك – مباشرة – برواية عن سيدنا على بن أبي طالب كرم الله وجهه تصور لنا سمات الأولياء وعلاماتهم فقال :

« وقال علي بن أبي طالب ﷺ : أولياء الله قوم صفر الوجوه من السهر ، عمش العيون من العبر ، خمص البطون من الجوع ، يبس الشفاه من الذوى[3] »[4] ثم يقول القرطبي :

وقيل : ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ في ذريتهم ؛ لأن الله يتولاهم ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على دنياهم ؛ لتعويض الله إياهم في أولادهم وأخراهم ، لأنه وليهم ومولاهم .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ : هذه صفة أولياء الله تعالى ، فيكون ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ في موضع نصب على البدل من اسم ﴿ إِنَّ ﴾ وهو ﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾ وإن شئت على أعنى ، وقيل : هو ابتداء وخبره ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ فيكون مقطوعاً عما قبله ، أي:

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه وروى النسائي نحوه عن أبي هريرة ، كما أخرجه ابن حبان في صحيحه « انظر التخريج عن أبي داود في المرجع السابق « الإعلام »والتخريج عن الأخيرين في الترغيب والترهيب للحافظ المنذري ٤٧/٤–٤٨ نشر دار الحديث بالقاهرة».

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٣٥٧/٨.

(٣) الذوى : بفتح الذال المشددة وكسر الواو وتشديد الياء هو الذبول والضعف .

(٤) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٣٥٧/٨ – ٣٥٨.

يتقون الشرك والمعاصي .[1]

٢- ونجد القرطبي يصرح في تفسيره بأن الأولياء هم أكمل النوع الإنساني بعد الأنبياء ، ويضع في دائرتهم : الصديقين والشهداء والصالحين إذ يقول في تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [2]- تعليقاً على ما رواه مسلم عن أبي موسى من قول النبي ﷺ : « كَمُلَ من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » : « قال علماؤنا رحمة الله عليهم الكمال : هو التناهي والتمام ، ويقال في ماضيه كمل - بفتح الميم وضمها - ويكمل في مضارعه ، بالضم ، وكمال كل شيء بحسبه ، والكمال المطلق إنما هو لله تعالى خاصة ، ولا شك أن أكمل نوع الإنسان : الأنبياء ، ثم يليهم : الأولياء من الصديقين ، والشهداء والصالحين ... »[3]

٣- كما تناول مراتب الأولياء عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [4] إذ قال : في هذه الآية دليل على خلافة أبى بكر رضي الله عنه [5]،

---

(١) نفس المصدر .

(٢) سورة آل عمران : ٤٢.

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٤/٨٣.

(٤) سورة النساء : ٦٩.

(٥) تتجلى في هذا البحث من تفسير القرطبي رحمه الله تعالى شدة عنايته بمناصرة مذهب أهل السنة والجماعة في الخلافة ، والرد على الشيعة الذين تجنوا على وزيرى رسول الله ﷺ وخليفتيه من بعده سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر رضي الله تعالى عنهما وعنا بهما في الدارين آمين .

وذلك : أن الله تعالى لما ذكر مراتب أوليائه في كتابه : بدأ بالأعلى منهم وهم النبيون [1] ، ثم ثنى بالصديقين ، ولم يجعل بينهم واسطة . وأجمع المسلمون على تسمية أبي بكر الصديق ﷺ « صديقاً » كما أجمعوا على تسمية سيدنا محمد ﷺ : رسولا ، وإذا ثبت هذا وصح أنه الصديق وأنه ثاني رسول الله ﷺ لم يجز أن يتقدم بعده أحد .[2]

٤- ثم نجد الإمام القرطبي – عليه الرضوان – يوجه أكمل صفات المؤمنين التي وصفهم الله تعالى بها في قرآنه العزيز إلى « الأولياء » كما نراه في تفسير صفات عباد الرحمن في سورة الفرقان حيث يقول في تفسير الصفة الثالثة المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ [3]

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ قال الزجاج : بات الرجل يبيت إذا أدركه الليل ، نام أو لم ينم . قال زهير :

فبتنا قياماً عند راس جوادنا ... يزاولنا عن نفسه ونزاوله [4]

وأنشدوا في صفة الأولياء :

امنع جفونك أن تذوق مناما ... واذر الدموع على الخدود سجاما

واعلم بأنك ميت ومحاسب ... يا من على سخط الجليل أقاما

---

(١) نلاحظ هنا : أن القرطبي اعتبر النبوة مندرجة في الإطار الأعم للولاية حيث يعني بها مطلق القرب من الله تعالى .

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٢٧٣/٥.

(٣) سورة الفرقان : ٦٤.

(٤) يزيل القرطبي بهذا التأصيل اللغوي لمعنى البيتوتة إيهام التعارض بين قوله تعالى ﴿ يَبِيتُونَ ﴾ وبين قوله ﴿ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ حيث لا تعني البيتوتة النوم المناقض للسجود والقيام .

لله قوم أخلصوا في حبه ... فرضى بهم واختصهم خداما

قوم إذا جن الظلام عليهم ... باتوا هنالك سجدا وقياما

خمص البطون من التعفف ضمرا ... لا يعرفون سوى الحلال طعاما[1]

٥- وفي تفسير الصفة الثانية عشرة من صفات عباد الرحمن – وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [2]، قال : « أي قدوة يقتدى بنا في الخير ، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعي متقياً قدوة ، وهذا هو قصد الداعي – ثم قال بعد أن دلل على تفسيره بالحديث والأثر : - وكان القشيري أبو القاسم شيخ الصوفية يقول : الإمامة بالدعاء لا بالدعوى ، يعني : بتوفيق الله وتيسيره ومنته لا بما يدعيه كل أحد لنفسه ... »[3]

فالقرطبي ههنا : يفسر إحدى صفات الولاية بكلام أحد أئمتها وهو شيخ الصوفية في زمانه الإمام أبو القاسم القشيري « ت ٤٦٥ هـ » صاحب « الرسالة » التي تعد من أمهات مصادر التصوف الإسلامي والتعريف بأعلامه ، ومن ثم فالقرطبي هنا يطبق مبدأ « صاحب البيت أدرى بما فيه » !!

(٨٠٩ ثم نجد من أدل البراهين وأخص الشواهد التي تؤكد صوفية الإمام القرطبي واعتناقه لمذهب القوم : تصريحه في تفسيره بمصطلحات الصوفية المتعلقة بطوائف الأولياء وأنواعهم كمصطلح « الأبدال » الذي عَرَّفَ به لدى معالجته اللغوية للفظ « بدل » في قوله تعالى ﴿

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٧١/١٣.

(٢) سورة الفرقان : ٧٤.

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٨٣/١٣.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ (1)

إذ قال :

« .... وتبديل الشيء أيضاً : تغييره وإن لم يأت ببدل ، واستبدل الشيء بغيره وتبدله به : إذا أخذه مكانه ، والمبادلة : التبادل .

والأبدال : قوم من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم إذا مات واحد منهم أبدل الله مكانه بآخر » (2)

وسيأتي بعد : مزيد إيضاح وتقرير واستدلال لهذا النوع من الأولياء في المعلم القادم عن التوسل بالأولياء والصالحين في تفسير القرطبي .

بيد أن الذي يعنينا ابتداء : إنما هو إيمان القرطبي بوجود الأبدال وإقراره لهذا المصطلح الصوفي الذي ينازع أهل الإنكار على الصوفية في الاعتراف به ويعتدون إثباته ضرباً من الخرافات والأساطير التي لا يعتد بها عند أهل العلم !!

٨٠٩) وفي تناول القرطبي لتفسير الآيات الواردة في قصة سيدنا موسى وسيدنا الخضر – على نبينا وعليهما السلام – من سورة الكهف : عالج العديد من مباحث الولاية ، بين حقيقة سيدنا الخضر عليه السلام ورجح القول ببقائه حياً إلى عصره ، ووجه الأحاديث والآثار التي استدل بها البعض على خلاف ذلك .(3)

كما تناول القرطبي من بين تلك المباحث : « معرفة الولي بولايته » مستعرضاً أقوال أئمة الصوفية العارفين في هذا الصدد فقال رحمه الله تعالى :

(1) سورة البقرة : ٥٩.

(2) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٤١٦/١.

(3) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٤١/١-٤٣.

« اختلف الناس : هل يجوز أن يعلم الولي أنه ولي أم لا ؟ على قولين :

احدهما : أنه لا يجوز ، وأن ما يظهر على يديه يجب أن يلاحظه بعين خوف المكر ، لأنه لا يأمن أن يكون مكراً واستدراجاً له .

وقد حكى عن السرى [1] أنه كان يقول : لو أن رجلا دخل بستانا فكلمه من رأس كل شجرة طير بلسان فصيح : « السلام عليك يا ولي الله ، فلو لم يخف أن يكون ذلك مكراً لكان ممكوراً به .

ولأنه لو علم أنه ولي : لزال عنه الخوف ، وحصل له الأمن ، ومن شرط الولي أن يستديم الخوف إلى أن تنزل عليه الملائكة ، كما قال ﷻ : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ ﴾ [2]

ولأن الولي من كان مختوما له بالسعادة ، والعواقب مستورة ، ولا يدري أحد ما يختم له به ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالخواتيم ». [3]

القول الثاني : أنه يجوز للولي أن يعلم أنه ولي ؛ ألا ترى أن النبي عليه الصلاة والسلام يجوز أن يعلم أنه ولي ؟ ولا خلاف أنه يجوز لغيره أن يعلم أنه ولي الله تعالى ، فجاز له أن يعلم ذلك .

وقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن حال العشرة من أصحابه أنهم من

---

(١) هو الإمام أبو الحسن السرى بن المغلس السقطي « ت ٢٥١ هـ » كان أوحد أهل زمانه في الورع والأحوال السنية وكان أول من تكلم في التوحيد ببغداد . أخذ عن الإمام معروف الكرخي وعنه الإمام الجنيد « انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني ﷺ ٦٣/١ ».

(٢) سورة فصلت : ٣٠.

(٣) أخرجه البخاري عن سهل بن سعد ، ورواه الإمام أحمد عن جابر وابن حبان عن السيدة عائشة رضي الله عنهم أجمعين ، انظر التخريج في كشف الخفاء للعجلوني ١٦٥/١.

أهل الجنة ، ثم لم يكن في ذلك زوال خوفهم ، بل كانوا أكثر تعظيماً لله ﷻ ، وأشد خوفاً وهيبة ؟ فإذا جاز للعشرة ذلك ولم يخرجهم عن الخوف فكذلك غيرهم .

وكان الشبلي [1] يقول : أنا أمان هذا الجانب ، فلما مات ودفن عَبَرَ الديلم (دِجْلة) ذلك اليوم واستولوا على بغداد ، ويقول الناس : مصيبتان ، موت الشبلي وعبور الديلم [2] !!

ولا يقال إنه يحتمل أن يكون ذلك استدراجاً ، لأنه لو جاز ذلك لجاز ألا يعرف النبي أنه نبي وولي لله ، لجواز أن يكون ذلك استدراجاً ، فلما لم يجز ذلك لأن فيه إبطال المعجزات لم يجز هذا لأن فيه إبطال الكرامات »[3]

المعلم الثالث في إثبات الكرامات :

وفي مباحث تفسير آيات قصة سيدنا موسى وسيدنا الخضر – على نبينا وعليهما السلام – نجد القرطبي أيضا يقرر ثبوت الكرامات للأولياء فتنعكس معالم شخصيته السنية الصوفية في تفسيره كما تتجلى شواهدها في مواطن عديدة منه .

١- فمن ذلك قوله رحمه الله :

« كرامات الأولياء ثابتة على ما دلت عليه الأخبار الثابتة ، والآيات المتواترة ، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد ، أو الفاسق الحائد.

فالآيات : ما أخبر الله تعالى في حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية في

---

(١) هو الإمام أبو بكر بن جحدر الشبلي ﷺ « ت ٣٣٤ هـ » خراساني الأصل بغدادي المولد ، أخذ عن الإمام الجنيد وصار أوحد وقته علما وحالا ، انظر الطبقات الكبرى للإمام الشعراني ٨٩/١.

(٢) هذه الواقعة التي حكاها القرطبي عن الإمام الشبلي ﷺ إقرار منه بكرامة الشبلي وبالتوسل بالأولياء الصالحين باعتبار أنهم أمان للخلق من البلاء .

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٢٩/١١-٣٠.

الصيف ، والصيفية في الشتاء – على ما تقدم –[1]

وما ظهر على يدها حيث أمرت النخلة وكانت يابسة فأثمرت [2] ، وهي ليست بنبية – على الخلاف –.

ويدل عليها : ما ظهر على يد الخضر عليه السلام من خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار » [3]

٢- ونجد القرطبي يثبت الكرامة للذي عنده علم من الكتاب – في قصة سيدنا سليمان – على نبينا و عليه الصلاة والسلام – ويقرر أنه كان من الصديقين، وأنه كان يعرف اسم الله الأعظم ، فيقول عليه الرضوان عند تفسير قوله تعالى ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [4]:

« أكثر المفسرين على أن الذي عنده علم من الكتاب « آصف بن برخيا» وهو من بني إسرائيل ، وكان صِدِّيقاً يحفظ اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دُعِيَ به أجاب ... » [5]

ثم قال في تفسير كرامة الإتيان بعرش بلقيس في مدة ما دون ارتداد الطرف :

« ... قال ابن عطية : والذي عليه الجمهور من الناس : أنه رجل صالح من بني إسرائيل اسمه آصف بن برخيا ، وروى أنه صلى ركعتين ثم قال

(١) أي تفسير قوله تعالى ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ من سورة آل عمران الآية ٣٧.

(٢) أي حيث قال تعالى : ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ من سورة مريم ٢٥.

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٢٨/١١.

(٤) سورة النمل : ٤٠.

(٥) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٢٠٤/١٣.

لسليمان : يا نبي الله امدد بصرك ، فمد بصره نحو اليمين فإذا بالعرش فما رد سليمان بصره إلا وهو عنده !!

قال مجاهد : هو إدامة النظر حتى يرتد طرفه خاسئاً حسيرا ، وقيل : أراد مقدار ما يفتح عينه ثم يطرف ، وهو كما تقول : افعل كذا في لحظة عين ، وهذا أشبه لأنه : إن كان الفعل من سليمان : فهو معجزة ، وإن كان من آصف أو من غيره من أولياء الله فهي كرامة ، وكرامة الولي معجزة للنبي »[1]

وقد مر بنا ذكر كرامة أبي بكر الشبلي ﷺ كما مر للقرطبي نفسه كرامة اختفائه عن أعين أعدائه في حروب الأندلس مما يقرر رسوخ هذا المعلم الصوفي في تفسير الإمام القرطبي رحمة الله عليه .

المعلم الرابع : في السلوك والمعرفة :

يستطيع الباحث عن الجوانب السلوكية التي تحقق بها الصفوة الصوفية أن يجد في تفسير القرطبي – بالتفحص الدقيق – العديد منها ولكن على طريقة أهل التفسير في عرض هذه الجوانب في مظانها عند تناول تفسير الآيات المتعلقة بها دون توجه مباشر لتناولها بصورة موضعية – كما يصنع الإمام الفخر الرازي مثلاً – بيد أنه يتيح للقارئ المتدبر استقاءها من مصادرها الصوفية في تفسيره ويرصد شواهدها :

١- فنجده إذ يفسر العبادة في قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ يبرز المدلول اللغوي للعبادة موشجا بينه وبين السلوك فيقول : « معناه : نطيع ، والعبادة : الطاعة والتذلل ، وطريق معبد : إذا كان مذللا للسالكين »[2]

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٢٠٥/١٣ ، ٢٠٦.

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ١٤٥/١.

٢- ثم يدلي في تفسير الصراط في قوله تعالى﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ بمعنى آخر مغاير لمقتضى إبدال الصراط الثاني من﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ ينحو بدلالة اللفظ نحو المعرفة بالله تعالى مما يربط بين السلوك والمعرفة، ويصدر في هذا المعنى عن إمام من أئمة آل البيت الأطهار حملة الأنوار والأسرار وهو الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه وعنهم أجمعين ، فيقول :

« ... وقيل : هو صراط آخر ، ومعناه : العلم بالله ﷻ ، والفهم عنه . قاله جعفر بن محمد » [1]

٣- ثم نجد الإمام القرطبي يستقي جوانب من السلوك الصوفي – مع التنصيص على نسبتها للسادة الصوفية – رضوان الله عليهم أجمعين – لدى تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةً ﴾.[2]

« قال النقَّاش : في هذه الآية إشارة إلى صلة الصوم ، لأنه لو ذكر الأيام لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل ، فلما نص على الليالي : اقتضت قوة الكلام أنه عليه السلام واصل أربعين يوماً بلياليها.

قال ابن عطية : سمعت أبي يقول : سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل الجوهري – رحمه الله – يعظ الناس في الخلوة بالله ، والدنو منه في الصلاة ونحوه ، وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب ، ويقول :

أين حال موسى في القرب من الله ووصل ثمانين من الدهر من قوله حين سار للقاء الخضر لفتاه في بعض يوم ﴿ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا ﴾ ??[3]

---

(١) نفس المصدر السابق ١٤٨/١.

(٢) سورة البقرة : ٥١.

(٣) سورة الكهف : ٦٢.

قلت : وبهذا استدل علماء الصوفية على الوصال ، وأن أفضله أربعون يوما » [1]

فالقرطبي في هذا النص التفسيري : يورد تعليل العلماء لإيثار التعبير بالليالي في المواعدة على التعبير بالأيام ، واستنباط إفادته للوصال في الصوم .

ثم يورد – بصدد ذلك – طرفاً من تناول أحد الصوفية العارفين الدعاة إلى الله تعالى وهو الشيخ أبو الفضل الجوهري لبعض الجوانب السلوكية الصوفية ، كالخلوة ، والتقلل من الطعام والشراب ، والتقرب إلى الله ﷻ بالصلاة ، حيث ينشغل العبد بسيده عن حظوظ نفسه !!

ولا ريب أن استنباط هذه الجوانب من قصص الأنبياء في القرآن الكريم تأصيل لها وردٌّ دامغ على من يعتدونها بدعاً دخيلة على الشرع المحمدي !

٤- وفيما يتعلق بسلوك الطريق الموصل إلى الولاية : نجد القرطبي قد وقف موقف الأئمة المتحققين في صيانة طريق الله عن عبث العابثين من زنادقة الباطنية الزاعمين تحررهم من التكاليف الشرعية واستغناءهم عن أحكام الشريعة بما يسول لهم الشيطان من وهم الوقوف على الحقائق والأسرار بصفائهم من الأكدار ، فانبرى لهؤلاء الملاحدة – وهو بصدد تناول مباحث الولاية في قصة سيدنا موسى وسيدنا الخضر على نبينا وعليهما السلام – فقال عليه الرضوان :

« قال شيخنا الإمام أبو العباس : ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق تلزم منه هذه الأحكام الشرعية ، فقالوا : هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأنبياء والعامة ، وأما الأولياء وأهل الخصوص : فلا يحتاجون إلى تلك النصوص ، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم ، ويحكم

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ١/٣٩٦.

عليهم بما يغلب عليهم من خواطر ، وقالوا : وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار وخلوها عن الأغيار ، فتتجلى لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية ، فيقفون على أسرار الكائنات ويعلمون أحكام الجزئيات ، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات كما اتفق للخضر « !! » فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم ، وقد جاء فيما ينقلون : استفت قلبك وإن أفتاك المفتون « !! ».

قال شيخنا ﷺ : وهذا القول زندقة وكفر ، يقتل قائله ولا يستتاب ، لأنه إنكار ما علم من الشرائع ، فإن الله تعالى قد أجرى سنته وأنفذ حكمته بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه ، وهم المبلغون عنه رسالته وكلامه ، المبينون شرائعه وأحكامه ، اختارهم لذلك ، وخصهم بما هنالك ، كما قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (1)

وقال تعالى ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (2)، وقال تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ (3) إلى غير ذلك من الآيات .

وعلى الجملة : فقد حصل العلم القطعي ، واليقين الضروري ، واجتماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه ولا يعرف شيء منها إلا من جهة الرسل ، فمن قال إن هناك طريقاً آخر يعرف بها أمره ونهيه غير الرسل بحيث يستغنى عن الرسل فهو كافر يقتل

---

(1) سورة الحج : ٧٥.

(2) سورة الأنعام : ١٢٤.

(3) سورة البقرة : ٢١٣.

ولا يستتاب ولا يحتاج معه سؤال ولا جواب »[1]

ولقد أزهق القرطبي بهذا البيان المحكم والرد المتين أباطيل الباطنية الزنادقة الذين ألصقت دعاواهم المارقة – زوراً وبهتاناً – بالتصوف والولاية ، وهما منها براء .

٥- ويوضح القرطبي أيضاً وجهة نظره في عدم التعارض بين التصوف الحقيق وبين التجمل في المظهر بلباس الرفيع من الثياب ، إذ يرى أن السلوك الصوفي كما عرف عن سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين:

إنما هو تقْوَى القلب وزهد النفس والتحقق بالبر والإخلاص ، وليلبس الصوفي مع ذلك ما شاء مما أحله الله تعالى من زينة الملبس ، وقد ضرب الأمثلة لذلك عند تفسير قوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [2] فقال بعد استدلاله بالآية والحديث لذلك :

« ... وقد اشترى تميم الداري حلة بألف درهم كان يصلي فيها ، وكان مالك بن دينار يلبس الثياب العدنية الجياد ، وكان ثوب أحمد بن حنبل يشترى بنحو الدينار ، أين هذا ممن يرغب عنه ويؤثر لباس الخشن من الكتان والصوف من الثياب ، ويقول : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [3] ؟ هيهات ! أترى من ذكرنا تركوا لباس التقوى ؟ لا والله ! بل هم أهل التقوى وأولوا المعرفة والنهى ، وغيرهم أهل دعوى [4] ، وقلوبهم خالية من التقوى .

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ١١/٤٠ – ٤١.

(٢) سورة الأعراف : ٣٢.

(٣) سورة الأعراف : ٢٦.

(٤) يقصد غيرهم من المدعين لا المتحققين الذين لا يقصدون اشتهارهم عند الخلق بالتصوف والتقوى بدليل أن القرطبي نفسه كان زاهدا في ملبسه يلبس جلابية وطاقية .

قال خالد بن شوذب : شهدت الحسن وأتاه فرقد [1] ، فأخذ الحسن بكسائه فمده إليه وقال : يا فرقد ، يا ابن أم فريقد ، إن البر ليس في هذا الكساء، إنما البر ما وقر في الصدر وصدقه العمل .

ودخل أبو محمد ابن أخى معروف الكرخي على أبي الحسن بن يسار وعليه جبة صوف ، فقال له أبو الحسن : يا أبا محمد ، صوفت قلبك أو جسمك ؟ صَوِّفْ قلبك والبس القوهي على القوهي .[2]

وقال رجل للشبلي : قد ورد جماعة من أصحابك وهم في الجامع ، فمضى فرأى عليهم المرقعات والفوط ، فأنشد يقول :

أما الخيام فإنها كخيامهم   وأرى نساء الحي غير نسائه [3] »

يتضح لنا من هذا الشاهد التفسيري الذي ضمنه القرطبي أقوال أئمة من الصوفية في علاقة السلوك الصوفي بتقشف الملبس : أنه كان يُعَوِّلُ على « تصويف القلب » لا على تصويف الجسم ، فذاك أدخل في الإخلاص والتقوى الموصلين إلى المعرفة .

٦- إننا نجد المنهج الرباني الذي هو جوهر السلوك الصوفي الصحيح – كما يتجسد في تفسير القرطبي – متمثلا في الاستقامة على طريق الله تعالى ، وقد بين حقيقة ذلك بالمأثور عن سلف الأمة الصالح وأئمة الصوفية العارفين عند تفسير قوله تعالى ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ [4] إذ قال :

---

(١) هو الإمام التابعي المحدث أبو يعقوب فرقد السبحي البصري الزاهد « ت سنة ١٣١ هـ » حدث عن سيدنا أنس وجماعة وقد وثقه ابن معين وضعفه آخرون وهو من أعلام الصوفية التابعين « انظر شذرات الذهب ١/١٨١ » .

(٢) القوهي : ضرب من الثياب بيض فارسي .

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ١٩٦/٧.

(٤) سورة فصلت : ٣٠.

« وروى عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ﴾ لم يشركوا بالله شيئا ، وروى عنه الأسود بن هلال أنه قال لأصحابه : « ما تقولون في هاتين الآيتين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ﴾ ، و﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾ [1] ، فقالوا : استقاموا فلم يذنبوا ولم يلبسوا إيمانهم بخطيئة . فقال أبو بكر : لقد حملتموها على غير المحمل ، ﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ﴾ : فلم يلتفتوا إلى إله غيره [2] ولم يلبسوا إيمانهم بشرك ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ »

وروى عن عمر ﷺ أنه قال على المنبر وهو يخطب :

« ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ﴾ ، فقال : استقاموا والله على الطريقة لطاعته ثم لم يروغوا روغان الثعالب.

وقال عثمان ﷺ : « ثم أخلصوا العمل لله ». وقال علي ﷺ : « ثم أدوا الفرائض ». وأقوال التابعين بمعناها :

قال ابن زيد وقتادة : « استقاموا على الطاعة لله » .

وقال الحسن: « استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته ».

وقال مجاهد وعكرمة : « استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى ماتوا ».

وقال سفيان الثوري : « عملوا على وفاق ما قالوا ».

---

(١) سورة الأنعام : ٨٢.

(٢) يؤخذ من هذا أن الاستقامة عند سيدنا أبي بكر ﷺ تعني عدم الالتفات إلى السوى – كما سيتضح من قول الربيع بعد – ومن السوى : الهوى ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾

وقال الربيع : « أعرضوا عما سوى الله !! ».

وقال الفضيل بن عياض : « زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية ».

وقيل : « استقاموا إسراراً كما استقاموا إقراراً ».

وقيل : « استقاموا فعلاً كما استقاموا قولا ... ».(١)

وهكذا تتجسد جوانب الاستقامة التي هي بعينها جوانب السلوك الصوفي الرفيع في صدق التوحيد والإخلاص والطاعة والزهد في الدنيا والإعراض عما سوى الله تعالى .

٧- ثم يبين القرطبي في تفسيره أن انتهاج الأولياء للصراط المستقيم والوصول إلى المعرفة والمشاهدة إنما هو من فيض تجلي اسمه تعالى « اللطيف » إذ يقول عند تفسير قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ (٢) في معنى « اللطيف » :

« ... وقيل هو الذي أوقد في أسرار العارفين من المشاهدة سراجا وجعل الصراط المستقيم لهم منهاجا ، وأجزل لهم من سحائب بره ماء ثجاجا » (٣)

وينقل عن سيد الطائفة الصوفية الإمام الجنيد قدس الله سره – في تفسير الآية الكريمة – فيقول :

« وقال الجنيد : لطيف بأوليائه حتى عرفوه ، ولو لطف بأعدائه لما جحدوه »(٤)

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٣٥٨/١٥.

(٢) سورة الشورى : ١٩.

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ١٧/١٦.

(٤) نفس المصدر ١٦/١٦-١٧.

٨- ولقد بين القرطبي – في مقدمة تفسيره – أن الأولياء الذين خاطبهم الله بالقرآن ففهموا أسراره وبين لهم مراده منه فعلموا ، فقال عليه الرضوان في شأن التنزيل الحكيم :

« ... جعل أمثاله عِبراً لمن تدبرها ، وأوامره هدى لمن استبصرها ، وشرح فيه واجبات الأحكام ، وفرق فيه بين الحلال والحرام ، وكرر فيه المواعظ والقصص للأفهام ، وضرب فيه الأمثال ، وقص فيه غيب الأخبار ، فقال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ [1] خاطب به أولياءه ففهموا « وبين لهم فيه مراده فعلموا ... »!! ».[2]

٩- كما بين – في مبحث معاني فواتح السور المقطعة – اختصاص الأنبياء ثم الأولياء بمعرفتها ، وأورد ذلك عن أحد أئمة الصوفية ، إذ قال في تفسير ﴿ ألم ﴾ البقرة :

« .... وروى عن محمد بن على الترمذي أنه قال : إن الله تعالى أودع جميع ما في تلك السورة من الأحكام والقصص في الحروف التي ذكرها في أول السورة ولا يعرف ذلك إلا نبي أو : ولي ، ثم بين ذلك في جميع السورة ليفقه الناس » [3]

---

(١) سورة الأنعام : ٣٨.

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ١/١.

(٣) المصدر السابق : ١٥٦/١.

المعلم الخامس : في الأحوال والمقامات [1]:

تناول الإمام القرطبي في تفسيره الأحوال والمقامات التي يتحقق بها السالكون لطريق الله تعالى من الصبر والشكر والرضا والزهد والتوكل ونحو ذلك في مواطن كثيرة عند ورودها في الكتاب العزيز ، مصدراً في معاني هذه المقامات عن أئمة الصوفية العارفين بالله تعالى باعتبار أنهم أخبر بها من غيرهم لتحققهم بها ذوقا وكشفاً فهم أقدر على التعبير عنها :

١- فنجده عند تفسير قوله تعالى ﴿ ..... وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [2]، يتناول مقام الصبر مبيناً حقيقته وموطنه وإفضاءه بعد التمكن فيه إلى مقام الرضا ، وقد استمد معارفه في هذا المقام من صفوة أعلام الصوفية كالإمام التستري والعارف الخواص والإمام ذي النون وغيرهم فيقول عليه الرضوان :

« قوله تعالى ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ أي : بالثواب على الصبر ، والصبر أصله الحبس ، وثوابه غير مقدر – وقد تقدم – [3] لكن : لا يكون ذلك إلا بالصبر عند الصدمة الأولى ، كما روى البخاري عن أنس عن النبي ﷺ قال « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » وأخرجه مسلم أتم منه – أي إنما الصبر الشاق على النفس الذي يعظم الثواب عليه : إنما هو عند هجوم المصيبة وحرارتها ، فإنه يدل على قوة القلب وتثبته في مقام الصبر ، وأما إذا بردت

---

(١) في بيان معنى الأحوال والمقامات قال سيدي أحمد ضياء الدين الكمشخانوى النقشبندي شيخ شيخي وجدي الشيخ جودة إبراهيم رضي الله عنهما وعنا بهما : « الحال : ما يرد على القلب بمحض الموهبة من غير تعمل ولا اجتلاب ، كحزن أو خوف أو بسط أو قبض أو ذوق ويزول بظهور صفات النفس سواء تعقبه المثل أو لا ، فإذا دام أو صار ملكاً سمي مقاماً » [انظر : جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم ص ٦٨].

(٢) سورة البقرة : ١٥٥.

(٣) أي سبق تناوله للصبر عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ سورة البقرة : ٤٥ ، وانظر الجامع لأحكام القرآن : ٣٧١/١.

حرارة المصيبة : فكل أحد يصبر إذ ذاك ، ولذلك قيل : يجب على كل عاقل أن يلتزم عند المصيبة ما لابد للأحمق منه بعد ثلاث .

وقال سهل بن عبد الله التستري : لما قال تعالى ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ صار الصبر عيشاً ، والصبر صبران : صبر عن معصية الله فهذا مجاهد ، وصبر على طاعة الله فهذا عابد ، فإذا صبر عن معصية الله وصبر على طاعة الله أورثه الله الرضا بقضائه ، وعلامة الرضا : سكون القلب بما ورد على النفس من المكروهات والمحبوبات.

وقال الخواص [(١)]: الصبر : الثبات على الكتاب والسنة .

وقال رويم [(٢)]: الصبر: ترك الشكوى .

وقال ذو النون المصري [(٣)]: الصبر هو الاستعانة بالله تعالى .

وقال الأستاذ أبو علي [(٤)]: الصبر حده : ألا تعترض على التقدير ، فأما إظهار البلوى على غير وجه الشكوى فلا ينافي الصبر ؛ قال تعالى في قصة أيوب ﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [(٥)] مع ما أخبر عنه أنه قال :

---

(١) هو العارف بالله أبو إسحق إبراهيم بن أحمد الخواص « ت ٢٩١ هـ » من أقران الإمامين : الجنيد والنوري ، ذكره السلمي في الطبقة الثالثة من طبقاته « ص ٢٨٤ » وقال إنه أحد من سلك طريق التوكل وكان أوحد المشايخ في وقته ا هـ.

(٢) هو العارف بالله الشيخ رويم بن أحمد البغدادي « ت ٣٠٣ هـ » وكان فقيها على مذهب داود الأصفهاني ، مكث عشرين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء . ترجم له الإمام الشعراني في طبقاته ٧٥/١.

(٣) هو العارف بالله تعالى أبو الفيض ذو النون ثوبان بن إبراهيم المصري « ت ٢٤٥ هـ » قال ابن خلكان في ترجمته بالوفيات « ٣١٥/١ » « أحد رجال الطريقة كان أوحد وقته علما وورعا وحالا وأدبا وهو معدود في جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك ﷺ ».

(٤) يعني به الشيخ أبا علي الدقاق النيسابوري « ت ٤٠٦ هـ » شيخ الإمام القشيري وإمام عصره [انظر شذرات الذهب ١٨٠/٣]

(٥) سورة ص : الآية ٤٤.

﴿ مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ »[1]

وهنا ملحظ جدير بالنظر والاهتمام :

وهو أن القرطبي – بتتبع مصادره – وجدته ينقل مادته العلمية في تفسيره لمقام الصبر هاهنا عن مصدر صوفي رئيس هو « الرسالة القشيرية » للإمام أبي القاسم القشيري ﷺ ، ففيه كل النقول التي مرت بنا عن أئمة التصوف بترتيبها مع اقتصار القرطبي في هذا الموضوع من تفسيره على نقل بعض ما أورده صاحب « الرسالة » .

وقد استرعى انتباهي في اكتشاف هذا التأثر والإصدار : أن القرطبي استعمل لقب « الأستاذ » وهو يورد قول أبي علي الدقاق ، وهو صنيع القشيري لأن أبا علي شيخه في الطريق الصوفي .

ومن ثم نسجل – باطمئنان – أن القرطبي استقى مادته العلمية في تفسير الآيات التي عرضت لمقامات السلوك الصوفي : من أئمة الصوفية بما يستنتج منه بالضرورة : أن شيوخ الصوفية هم أساتذة المفسرين ومصادر معرفتهم في تأويل آي التنزيل المتضمنة لحقائق على القلوب وتزكية النفس ومعرفة المقامات والأخلاق ونحو ذلك من قواعد السلوك وما أكثرها !!

٢- وتأكيداً لما تقرر آنفاً : نجد سريان الاتجاه الصوفي بتدفق غزير في تفسير القرطبي لمقام الشكر عند تفسير قوله تعالى ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [2] إذ قال بعد تناول المدلول اللغوي للشكر :

« الرابعة [3] في عبارات العلماء في معنى الشكر :

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٢/١٧٤.

(٢) سورة البقرة : ٥٢.

(٣) أي المسألة الرابعة من مسائل تفسير الآية الكريمة .

فقال سهل بن عبد الله [1]: الشكر : الاجتهاد في بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية في السر والعلانية .

وقالت فرقة أخرى : الشكر هو الاعتراف في تقصير الشكر للمنعم ، ولذلك قال تعالى ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا ﴾ [2] فقال داود : كيف أشكرك يا رب والشكر نعمة منك ؟ قال : الآن قد عرفتني وشكرتني ، إذ قد عرفت أن الشكر مني نعمة ، قال يا رب فأرني أخفى نعمك علي ؟ قال : يا داود تنفس ، فتنفس داود ، فقال الله تعالى : من يحصي هذه النعمة الليل والنهار ؟

وقال موسى عليه السلام : كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها بيدي من نعمك لا يجازي بها عملي كله ! فأوحى الله إليه : يا موسى : الآن شكرتني .

وقال الجنيد : حقيقة الشكر العجز عن الشكر . وعنه : كنت بين يدي السري السقطي ألعب وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر، فقال لي : يا غلام ما الشكر ؟ فقلت : ألا يُعصَى الله بنعمه !! فقال لي : أخشى أن يكون حظك من الله لسانك !! قال الجنيد : فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري لي .

وقال الشبلي : الشكر التواضع والمحافظة على الحسنات ومخالفة الشهوات، وبذل الطاعات، ومراقبة جبار الأرض والسماوات.

وقال ذو النون المصري أبو الفيض : الشكر لمن فوقك بالطاعة ، ولنظيرك بالمكافأة ، ولمن دونك بالإحسان والإفضال » [3]

---

(١) هو الإمام سهل بن عبد الله التستري « ت ٢٨٣ هـ » قال الإمام القشيري في ترجمته « في الرسالة ١/٨٣ »: أحد أئمة القوم ، لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع . ا هـ.

(٢) سورة سبأ : ١٣.

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ١/٣٩٨.

٣- كذلك تناول القرطبي في تفسيره مقام « التوكل على الله » وبين حقيقته بلسان القوم الصوفية ، ثم عرض لقضية : علاقة التوكل بمباشرة الأسباب مبيناً – في عمق ووضوح – مذهب محققي الصوفية الذي هو مرتضى القرطبي ومعتنقه في هذه القضية ، فقال عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [(١)]

« واختلف العلماء في حقيقة التوكل ، فسئل عنه سهل بن عبد الله فقال : قالت فرقة : الرضا بالضمان [(٢)] وقطع الطمع من المخلوقين.

وقال قوم : التوكل ترك الأسباب والركون إلى مسبب الأسباب ، فإذا شغله السبب عن المسبب [(٣)] : زال عنه اسم التوكل .

قال سهل : من قال التوكل يكون بترك السبب فقد طعن في سنة رسول الله ﷺ ، لأن الله ﷻ يقول ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [(٤)] فالغنيمة اكتساب ، وقال تعالى : ﴿ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [(٥)] فهذا عمل .

وقال النبي ﷺ : « إن الله يحب العبد المحترف » .[(٦)]

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يقرضون على السرية .[(١)]

---

(١) سورة آل عمران : ١٢٢.

(٢) أي بضمان الله تعالى لعبده أمر رزقه وتدبير شئونه .

(٣) ضبط المسبب هنا : بكسر الباء الأولى المشددة بعد السين المفتوحة .

(٤) صدر الآية الكريمة / ٦٩ من سورة الأنفال .

(٥) من الآية الكريم الثانية عشر من سورة الأنفال .

(٦) خرجه الإمام النبهاني في الفتح الكبير « ١/٣٥٤ ط الحلبي » عن الحكيم الترمذي والطبراني والبيهقي عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما بلفظ : « إن الله يحب العبد المؤمن المحترف ».

قال غيره : وهذا قول عامة الفقهاء ، وأن التوكل على الله : هو الثقة بالله والإيقان بأن قضاءه ماض ، واتباع سنة نبيه ﷺ في السعي فيما لابد منه من الأسباب من مطعم ومشرب وتحرز من عدو ، وإعداد الأسلحة ، واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة . وإلى هذا ذهب محققو الصوفية.

لكنه لا يستحق اسم التوكل عندهم مع الطمأنينة إلى تلك الأسباب والالتفات إليها بالقلوب ، فإنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً ، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى والكل منه وبمشيئته ، ومتى وقع من المتوكل ركون إلى تلك الأسباب : فقد انسلخ عن ذلك الاسم .

ثم المتوكلون على حالين : الأول : حال المتمكن في التوكل ، فلا يلتفت إلى شيء من تلك الأسباب بقلبه ، ولا يتعاطاه إلا بحكم الأمر .

الثاني : حال غير المتمكن ، وهو الذي يقع إليه الالتفات إلى تلك الأسباب أحياناً غير أنه يدفعها عن نفسه بالطرق العلمية والبراهين القطعية والأذواق الحالية ، فلا يزال كذلك إلى أن يرقيه الله بجوده إلى مقام المتوكلين الموقنين ويلحقه بدرجات العارفين »[٢]

إننا نرى صوفية القرطبي قد تمثلت بأجلى صورها في هذا التفسير الرائع لحقيقة التوكل على الله تعالى وبيان مشروعية مباشرة الأسباب مع عدم ركون القلب إليها بل إلى مسببها جل شأنه ، وفى نص القرطبي على أن مذهب محققي الصوفية هو متابعة سنة سيد الخلق ﷺ ، خلافا لما يلصقه بهم الجهلاء بحقيقتهم .[٣]

---

(١) السرية مشتقة من الشيء السري النفيس ، وتطلق على طائفة من خيار الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة .

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ١٩٠/٤.

(٣) هنا نلاحظ : أن القرطبي الناقد عندما يبرز حقائق السلوك الصوفي المستمدة من الكتاب والسنة ينسبها للمحققين من الصوفية ، فيتجلى سريان مذهبهم في شخصيته ونتاجه العلمي ، بيد أنه عندما يتصدى لبيان

ثم نجد القرطبي يقسم المتوكلين إلى أصحاب « حال » وأصحاب « مقام » . ويقسم أصحاب الحال إلى متمكنين وغير متمكنين ، وهؤلاء الآخرون مع بذل جهدهم في دفع ركون قلوبهم إلى الأسباب يرقيهم الحق تعالى – بجوده الإلهي – إلى التمكن في مقام المتوكلين ويلحقهم بدرجات المعرفة التي هي من أسمى مراتب الصوفية الواصلين .

إن الشاهد يؤكد مصداقية انتماء القرطبي إلى طائفة الصوفية الأخيار أيما تأكيد .

المعلم السادس : في التوسل والتبرك :

احتلت قضية التوسل والتبرك مكانة بارزة بين القضايا التي ثار الجدل فيها حول التصوف ، وحاول خصوم التصوف أن يلصقوا بالصوفية دعاوى الإشراك والتبديع حاملين معاني الآيات التي نددت بعباد الأصنام والأوثان على أنقى وأخلص عباد الله توحيداً « !! » فإلى من يتحاكم في هذه القضية التي التبس فيها الحق بالباطل ؟ لا شك إلى الله ورسوله ، فالفيصل كتاب الله تعالى وسنة مصطفاه الأعظم ﷺ ومن أدرى الناس بكتاب الله تعالى ؟ لا شك أنهم أهل التنزيل علماؤه ومفسروه .

فإذا ما ارتأى علماء التنزيل أن الحق مع مشروعية التوسل والتبرك من منطلق بصرهم بالقرآن ورسوخهم في فهمه وعلمه كان الحق مع الصوفية وبان الصبح لذى عينين !!

زيف ما ألصقه الأدعياء بالتصوف من دخيل عليه : نجده ينسبه إلى جهلة المتصوفة ، فيفرق بين الصوفي والمتصوف ، إذ الأخير هو المتكلف في سلوكه المتشبه في سلوكه بالصوفية سواء كان صادقاً أم دعياً . ومن أمثلة نقد القرطبي للصنف الأخير : قوله عند تفسير قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا ﴾ [سورة الكهف : ٧٧] « في هذه الآية دليل على سؤال القوت وأن من جاع وجب عليه أن يطلب ما يرد جوعه خلافا لجهال المتصوفة » . انظر : الجامع لأحكام القرآن : ١١/٢٤.

وقد أسفر لنا ضوء البحث في تفسير القرطبي أن صاحبه – الذي أخذ مكانته الشامخة في قمم المفسرين – قد أخذ اتجاهه مع السادة الصوفية في إقرار شرعية التوسل والتبرك واستقى هذه الشرعية من دلالة آي الكتاب العزيز فقررها تفسيراً وتأويلاً في مواطن بالغة الكثرة من تفسيره ، ونقدم لذلك بعض الأمثلة والشواهد :

١- إنه يقرر في تفسير « البسملة » - فيما أورده من وجوه تفسير اسم « الرحيم » - أن هذا الاسم نعت لسيدنا محمد ﷺ ، وبتعلق باء الاستعانة به يكون المعنى أن الوصول إلى الله تعالى إنما يكون برسوله ﷺ أي بصدق متابعته ومحبته وملازمة سنته ، فيقول عليه الرضوان :

« وقيل : إن معنى الرحيم : أي بالرحيم وصلتم إلى الله وإلى الرحمن ، فالرحيم : نعت محمد ﷺ ، وقد نعته الله بذلك فقال ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [1].

فكأن المعنى أن يقول : بسم الله الرحمن ، وبالرحيم ، أي : وبمحمد ﷺ وصلتم إلي ، أي : باتباعه وبما جاء به وصلتم إلى ثوابي ، وكرامتي والنظر إلى وجهي [2]، والله أعلم » [3]

٢- وكذلك : أثبت الإمام القرطبي – عليه رضوان الله تعالى – مشروعية التوسل بالنبي ﷺ قبل مولده ومبعثه إذ قرر التوسل بحضرته جوازاً

(١) سورة التوبة : الآية ١٢٨ وصدرها قوله تعالى ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾

(٢) إلى نحو هذا الوجه نحا الإمام الآلوسي قدس الله سره إذ قال في تفسيره « ٦٣/١ » « وعندي من باب الإشارة : أن تأخير الرحيم : لأنه صفة محمد ﷺ قال تعالى ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وبه عليه السلام كمال الوجود وبالرحيم تمت البسملة وبتمامها تم العالم خلقاً وإبداعاً وكان ﷺ مبتدأ وجود العالم عقلا ونفسا فيه بدء الوجود باطناً وبه ختم المقام ظاهراً في عالم التخطيط فقال لا نبي بعدي » .

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٦٤/١.

ووقوعاً ، وكذلك بالصالحين وذلك عند تفسير قوله تعالى شأنه ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [١] إذ قال :

« قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ يعني : اليهود ، ﴿ كِتَٰبٌ ﴾ يعني القرآن ﴿ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ ﴾ نعت للكتاب ، ويجوز في غير القرآن نصبه على الحال ، وكذلك هو في مصحف « أبي » بالنصب فيما ورد ، ﴿ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ يعني : التوراة والإنجيل يخبرهم بما فيهما ، ﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ ﴾ أي يستنصرون ، والاستفتاح : الاستنصار [٢] ، استفتحت : استنصرت .

وفي الحديث : كان النبي ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين .[٣]

أي : يستنصر بدعائهم وصلاتهم ، ومنه : ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ [٤]، والنصر : فتح شيء مغلق ، فهو يرجع إلى قولهم : فتحت الباب .

وروى النسائي عن أبي سعيد الخدري [٥] أن النبي ﷺ قال « إنما نصر

---

(١) سورة البقرة : ٨٩.

(٢) الاستنصار : طلب النصر ، فالسين والتاء فيه : للطلب.

(٣) رواه الطبراني عن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وقال فيه الحافظ المنذري : رواته رواة الصحيح وهو مرسل .

انظر تخريجه في كتاب الرد المحكم المتين ، لأبي الفضل الغماري ص ١٩٧.

(٤) سورة المائدة : بعض الآية الكريمة ٥٢.

(٥) جاء في تعليق لجنة مراجعة تفسير الطبري – ط دار الكتب – أن راوي هذا الحديث هو سيدنا سعد بن أبي وقاص والحديث في سنن النسائي « ١/٦٥ ط الميمنية » : باب الاستنصار بالضعيف .

هذه الأمة بضعفائها بدعوتهم وصلاحهم وإخلاصهم »

وروى النسائي عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ابغوني الضعيف ، فإنكم إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم »[1]

قال ابن عباس : « كانت يهود خيبر تقاتل غطفان ، فلما التقوا هزمت يهود ، فعاذت بهذا الدعاء وقالوا : إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم ، قال : فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان ، فلما بعث النبي ﷺ كفروا فأنزل الله تعالى ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي بك يا محمد ، إلى قوله ﴿ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .[2]

هكذا استنبط القرطبي من الآية الكريمة أن أهل الكتاب – يهود خيبر – كانوا يتوسلون إلى الله تعالى بنبي الإسلام سيدنا محمد ﷺ - الذي بشر به في التوراة – لينصرهم الله تعالى على عدوهم وذلك قبل مولده ومبعثه ﷺ فكانوا ينصرون بعد أن كانوا ينهزمون فيما قبل ، وذلك دليل على جواز التوسل به ﷺ حتى قبل وجوده البشري .

ثم عزز القرطبي مشروعية التوسل بإيراد ثبوت توسله ﷺ بصعاليك المسلمين من الحديث الشريف ، وكذا بإبراز دعوته ﷺ إلى التوسل إلى الله ﷻ لنصر هذه الأمة بضعفائها والصالحين من أوليائها ، فهل بعد بيان ﷺ

(١) خرجه النبهاني في الفتح الكبير « ١٨/١ ط الحلبي » عن الإمام أحمد ومسلم وابن حبان في صحيحه ، والبخاري في الأدب والحاكم في مستدركه عن سيدنا أبي الدرداء بلفظ « ابغوني الضعفاء فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » .

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٢/٢٦-٢٧ والأثر الأخير أخرجه الغماري في الرد المحكم المتين ص ١٩٦ عن الحاكم في المستدرك والبيهقي في الدلائل وأبي نعيم في الدلائل.

حاجة إلى بيان ؟؟ »

٣- ثم لقد أبرز القرطبي في ضوء البيان القرآني أن النبي ﷺ كان بوجوده البشرى في حياته الدنيا : حصن الأمان من العذاب للمسرفين على أنفسهم من أمته ، وذلك عند تفسيره قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (١) حيث قال :

« وقال ابن عباس : لم يعذب أهل قرية حتى يخرج النبي ﷺ منها والمؤمنون ، ويلحقوا بحيث أمروا ... » (٢)

ثم قال في تفسير نفس الآية : « وقال المدائني عن بعض العلماء : قال : كان رجل من العرب في زمن النبي ﷺ مسرفاً على نفسه لم يكن يتحرج ، فلما أن توفي النبي ﷺ لبس الصوف ، ورجع عما كان عليه ، وأظهر الدين ، والنسك ، فقيل له : لو فعلت هذا والنبي ﷺ حي لفرح بك ، قال : كان لي أمانان فمضى واحد وبقي الآخر ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ ﴾ فهذا أمان ، والثاني : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ »

لقد كان وجود النبي ﷺ وكينونته في هذه الدنيا وسيلة الأمة وجوهر الأمن والأمان لها من حلول عذاب الاستئصال والهلاك الماحق كما حل بالأمم المكذبة التي خلت ، وقص الله علينا أمرها في الذكر الحكيم .

٤- ثم لقد قدم القرطبي أيضاً بيان مشروعية التوسل بالنبي ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، رداً على من ينكرون التوسل به بعد وفاته ﷺ ، فقال عند

(١) سورة الأنفال : ٣٣.

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٧/٣٩٩.

تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (1)

« روى أبو صادق عن علي قال : قدم علينا أعرابي بعد ما دفنا رسول الله ﷺ بثلاثة أيام ، فرمى بنفسه على قبر رسول الله ﷺ ، وحثا على رأسه من ترابه ، فقال : قلتَ يا رسول الله فسمعنا قولك ، ووعيت عن الله فوعينا عنك ، وكان فيما أنزل الله عليك﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ... ﴾ الآية ، وقد ظلمت نفسي وجئتك تستغفر لي ، فنودي من القبر : أنه قد غُفِرَ لك (2) » (3)

٥- ولقد انعكست إشراقية صوفية الإمام القرطبي في تفسيره موضحة متجهه في اعتقاد سيادة النبي ﷺ لأمته ووساطته لها إلى ربها ، فقال رضوان الله عليه عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ (4):

« ... وهذا كله خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته ، وكثيراً ما جاء في القرآن، فإن النبي ﷺ لما كان سيدهم وواسطتهم إلى ربهم عبر به عنهم على عادة العرب في ذلك ... »(5)

---

(١) سورة النساء : ٦٤.

(٢) هذا الأثر عن سيدنا علي كرم الله وجهه . أخرجه ابن السمعاني في دلائله ونقله الحافظ السيوطي في « تنوير الحلك » كما رواه الحافظ ابن حجر الهيثمي في « تحفة الزوار إلى قبر النبي المختار » [ص: ٥٦] وقد بين ابن حجر في « الجوهر المنظم في زيارة القبر المعظم » أن هذا الأثر جاء عن سيدنا علي من طرق أخرى . وقد خرجه العاملي في « كشف الارتياب /٣٢٢ » والحافظ أبي الفضل عبد الله الغماري في الرد المحكم المتين [ص ٤٦] وفيه رد تعنت ابن عبد الهادي في التعصب لرأيه بإنكاره .

(٣) ٥/٢٦٥-٢٦٦.

(٤) سورة الإسراء : ٢٩.

(٥) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ١٠/٢٥٠.

فما بال المتنطعين يرفعون عقائرهم ويقولون لا وساطة بين العبد وربه ؟ وينكرون سيادته ﷺ زاعمين أن السيادة لله وحده مع أن الله تعالى عبر عن بعض أنبيائه بلقب السيادة ، فقال عن سيدنا يحيى على نبينا وعليه السلام ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (١) وقال في غير الأنبياء ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ﴾ (٢) فكيف تُنْكَرُ سيادة من قال ﷺ « أنا سيد ولد آدم » (٣)

٦- ثم نجد أيضاً صوفية الإمام القرطبي في أجلى صورها متمثلة في تقرير حقية التوسل بخواص الأولياء لاسيما طائفة « الأبدال » منهم ، وهم الذين يدفع الله تعالى بهم البلاء عن الأمة ، فنجده يقرر ذلك في تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ (٤) إذ يقول :

« واختلف العلماء في الناس المدفوع بهم الفساد ، من هم ؟؟

فقيل هم « الأبدال » ، وهم : أربعون رجلا ، كلما مات منهم واحد بدَّلَ الله آخر ، فإذا كان عند القيامة : ماتوا كلهم ، اثنان وعشرون منهم بالشام ، وثمانية عشر بالعراق .

وروى عن على ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الأبدال يكونون بالشام ، وهم أربعون رجلا ، كلما مات منهم رجل أبدل الله مكانه رجلا ، يسقى بهم الغيث ، وينصر بهم على الأعداء ، ويصرف بهم عن أهل

---

(١) سورة آل عمران : ٣٩.

(٢) سورة يوسف : ٢٥.

(٣) أخرجه الإمام مسلم وأبو داود عن سيدنا أبي هريرة « انظر التخريج في الفتح الكبير للنبهاني ٢٧٤/١ ».

(٤) سورة البقرة : ٢٥١.

الأرض البلاء »[1] ذكره الترمذي الحكيم في نوادر الأصول .

وخَرَّجَ أيضاً عن أبي الدرداء قال : « إن الأنبياء كانوا أوتاد الأرض فلما انقطعت النبوة أبدل الله مكانهم قوماً من أمة محمد ﷺ يقال لهم « الأبدال » لم يفضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ، ولكن بحسن الخلق ، وصدق الورع . وحسن النية ، وسلامة القلوب لجميع المسلمين ، والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر وحلم ولب وتواضع في غير مذلة ، فهم خلفاء الأنبياء قوم اصطفاهم الله لنفسه ، واستخلصهم بعلمه لنفسه ، وهم أربعون « صديقا » منهم ثلاثون رجلا على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن يدفع الله بهم المكاره عن أهل الأرض والبلايا عن الناس وبهم يمطرون ويرزقون لا يموت رجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه » .

[والحديث بمعناه : خرّجه الحافظ السيوطى من رواية الطبرانى عن ابن عمر . راجع الجامع الكبير ١٧٤٦/١] .

وقال ابن عباس : ولولا دفع الله العدو بجنود المسلمين لغلب المشركون فقتلوا المؤمنين وخربوا البلاد والمساجد .

وقال صفيان الثوري : هم الشهود الذين تستخرج بهم الحقوق .

وحكى مكي : أن أكثر المفسرين على أن المعنى : لولا أن الله دفع بمن يصلي عمن لا يصلي ، وبمن يتقي عمن لا يتقي ، لأهلك الناس بذنوبهم . وكذا ذكر النحاس والثعلبي أيضاً .

وقال : سائر المفسرين : ولولا دفاع الله المؤمنين الأبرار عن الفجار

(١) خرجه الحافظ عبد الله الصديق الغماري عن الإمام أحمد بإسناد صحيح إلا أن فيه انقطاعا بين شريح وسيدنا على وخرجه من طريق آخر عن ابن عساكر ، كما خرجه من طريق ثالث عن الحاكم في مستدركه وقد سلمه الذهبي « انظر الاعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام ص ٧٠-٧١ دار نشر لوران للطباعة والنشر » .

والكفار لفسدت الأرض ، أي هلكت ... »[1]

٧- **ثم نجد من شواهد مشروعية التبرك بالصالحين عن القرطبي** : ما ذكره في تفسيره سورة يوسف عليه السلام عند قوله تعالى ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [2] إذ قال عليه الرضوان :

« ﴿ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ يريد آباءه الثلاثة : إبراهيم وإسحق ويعقوب ، فتوفاه الله – طاهرا طيباً ﷺ - بمصر ، ودفن في النيل في صندوق رخام ، وذلك أنه لما مات تشاحَّ الناس عليه ، كل يحب أن يدفن في محلتهم لما يرجون من بركته واجتمعوا على ذلك ، حتى هموا بالقتال ، فرأوا أن يدفنوه في النيل من حيث مفرق الماء بمصر ، فيمر عليه الماء ثم يفترق في جميع مصر فيكونوا فيه شرعاً ، ففعلوا فلما خرج موسى ببني إسرائيل أخرجه من النيل ونقل تابوته بعد أربعمائة سنة إلى بيت المقدس فدفنوه مع آبائه لدعوته ﴿ وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ وكان عمره مائة عام وسبعة أعوام » [3]

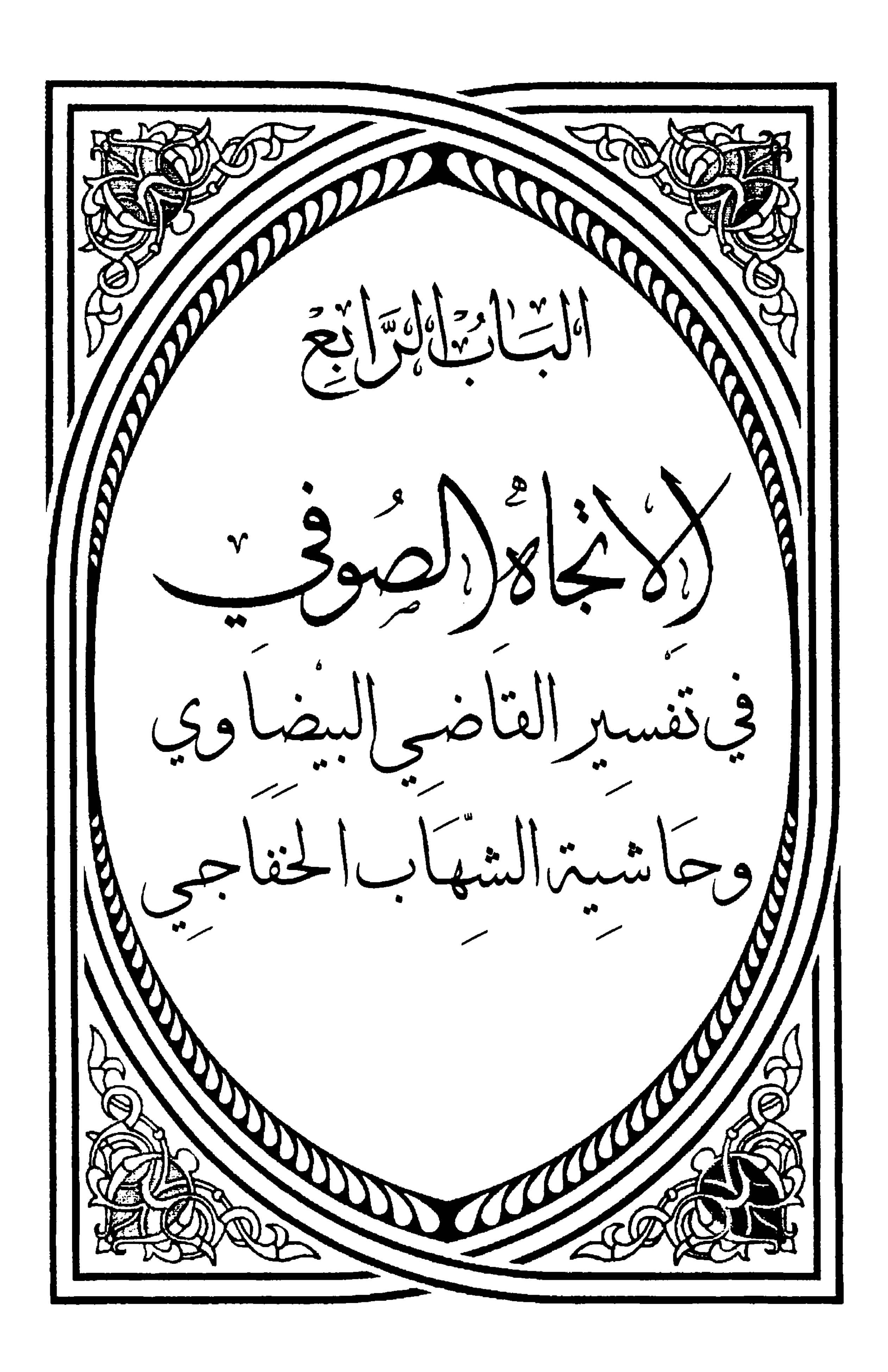
وهكذا تتجلى الشواهد العديدة للمعالم الصوفية التي تجسدت في تفسير الإمام الفذ أبى عبد الله القرطبي مؤكدة تحققه الصوفي وسريان هذا التحقق في فهمه لكتاب الله تعالى بما يعطينا بغير مراء ولا لجاج : أن الفهم الحق للقرآن العظيم يسلم صاحبه لأقوم السبل وهو الصراط المستقيم الذي سار عليه صفوة الأمة الصوفية العظام ورثة روحانية سيد العالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحابته وأتباعه ، حشرنا الله في زمرتهم يوم الدين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٢٦٠/٣.

(٢) سورة يوسف : ١٠١.

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن : ٢٧٠/٩.



الباب الرابع

الاتجاه الصوفي

في تفسير القاضي البيضاوي وحاشية الشهاب الخفاجي

مباحث هذا الباب

- تمهيد
- معالم شخصية وجوانب علمية .
- تصوف الإمام البيضاوي واتصال سنده الصوفي بنسبه العمري.
- المعالم الصوفية في تفسير البيضاوي .

المعلم الأول : في حقيقة المعرفة .

المعلم الثاني : في الظاهر والباطن وإصدار البيضاوي عن الصوفية في البطون القرآنية .

المعلم الثالث : في السير والسلوك ومنهاج الوصول إلى ملك الملوك ، والمقامات الثلاثة : الشريعة ، والطريقة والحقيقة.

المعلم الرابع : في الأحوال والمقامات.

المعلم الخامس : في التوسل والتبرك.

تمهيد

من أنوار التنزيل استقى أهل الرسوخ والشموخ العلمي قوام معرفتهم وهدايتهم وسلوكهم للصراط المستقيم توصلاً لاستكمال الذاتية الربانية بالنهل من ينابيع الحكمة القرآنية والاستفاضة من إشراقات الذات المحمدية . فكانوا – ولا يزالون – مناراتٍ تضيء الطريق لمن سبقت لهم من الله الحسنى. وسُرُجاً يهتدي بها الباحثون عن نور الحقيقة .

وعلى طريق التأصيل العلمي لمعالم التصوف الإسلامي الوضاء المستمد من نور الكتاب والسنة : انتهجنا إبراز مصداقية انتماء أسسه ومعالمه وسلوكياته إلى الوحيين النيرين ، وذلك برصد اتجاهات أساطين علماء الإسلام وكشف النقاب عن مذاهبهم الروحية ومشاربهم العرفانية والسلوكية فاهتدينا بالبحث المتجرد لطلب الحقيقة إلى أن الغالبية العظمى والأكثرية من أئمة علماء الإسلام ينتمون إلى التصوف وينهلون من نبعه المحمدي ، وما ذاك إلا لأنهم برسوخهم في العلم ووقوفهم على أصول الحقائق وبصرهم بطرائقه ومعالمه من مشكاة التنزيل الحكيم والسنة المطهرة .

ولقد آثرت في هذا البحث دراسة الاتجاه الصوفي عند هذين الإمامين بالذات لجملة اعتبارات : من أبرزها أن تفسير البيضاوي يمثل في التاريخ التفسيري القرآني مرحلة جديدة تالية لمرحلة تفسير الفخر الرازي متأثرة بها من جهة، ومؤثرة بها من جهة ثانية، ومؤثرة بغيرها وبذاتها من جهة ثالثة .

فلقد ولج الفخر الرازي ميدان التفسير وفرسانه إما من المحدثين وإما من الأدباء فانتزع منهم الميدان انتزاعاً وغِلاباً ، فَسَادَ عليه وحازه متصرفاً فيه ثم أورثه أخلافَه من بعده، رجال الأصلين : أصول الدين وأصول الفقه،

فاصطبغ علم التفسير بعده بصبغته الجديدة وتقرر ثبوته لأهل الحكمة الدينية فاكتمل كيانه الجديد بأجلى صوره في تفسير البيضاوي الذي أضاف إلى طابع تفسير الكشاف للزمخشري كما أضاف إليهما الكثير من الأحكام المستخرجة والاستظهارات الشخصية المبدعة التي استقل بتحقيقها وإخراجها في أروع صورة[1] .

ثم إن تفسير القاضي البيضاوي قد اعتبره المحققون مبلغ المنهج العلمي في تفسير القرآن إلى ذروته ، وأحلُّوه مكانة عظمى بين أمهات كتب التفسير[2] فتواترت عليه حواشي أئمة المفسرين الأعلام وكان من أبرزها مكانة وأرفعها شأناً حاشية العلامة الشهاب الخفاجي التي ضمنها درر أسرار التنزيل ودقائق حقائق التأويل ، وقد حفل كل من التفسير والحاشية بعطاء علمي ثمين في الجانب الصوفي على وجه الخصوص بالإضافة إلى عطائهما الوفير المتفرد في شتى جوانب التفسير وعلومه ، فكان من حق البحث العلمي المتجرد لتجسيد الحقيقة في قضية التأصيل العلمي للتصوف الإسلامي أن يسلط ضوء البحث على الجانب الصوفي ورصد اتجاهه في تفسير البيضاوي وحاشية الشهاب عليه .

ولنبدأ بالتعرف على شخصيتي العلامتين الشامختين : البيضاوي والشهاب ومنزلتهما العلمية ومكانتهما التفسيرية .

معالم شخصية وجوانب علمية :

فأما البيضاوي : فهو الإمام العلامة قاضي القضاة ، ناصر الدين أبوالخير: عبد الله بن عمر بن محمد بن علي العمري نسبًا ، البيضاوي مولدا ، الشيرازي

(١) انظر : التفسير ورجاله للعلامة الشيخ محمد الفاضل بن عاشور ٨٩ – ٩٣ .

(٢) انظر المصدر السابق ، كتاب : التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي ١/ ٣٠٣ .

موطنا ، الأشعري عقيدة ، الشافعي مذهباً ، الصوفي مشرباً ، رضي الله عنه وأرضاه .

أصله من شيراز الواقعة جنوب إيران وقد ولد بمدينة البيضاء ، من أعمالها ببلاد فارس ، وبها كانت نشأته العلمية وتخرجه في علوم أصول الدين والفقه واللغة والأدب والحكمة والمنطق [1] فكانت نشأته العلمية على المنهج الأعجمي الذي يجمع شعاب العلوم المختلفة ويحقق الترقي في درجاتها المتقابلة والتكامل بينهما تحقيقا يرمي إلى تحصيل الملكة العامة المتصرفة بالتحصيل والتحليل والاستنساخ والبحث في العلوم على نسبة واحدة وصياغة قوالبها وصورها التعبيرية على منهج متحد وأسلوب مطرد [2] .

وقد بلغ البيضاوي شأناً رفيعا في تحقيق ذلك فأنتج ذخائر المصنفات في عديد من الجوانب العلمية نذكر من أبرزها : «الطوالع» [3] و «المصباح» في أصول الدين ، و « الغاية القصوى في دراية الفتوى » في الفقه الشافعي . و«المنهاج» في أصول الدين . و « شرح مصابيح السنة» للبغوى في الحديث الشريف . ثم تفسيره «أنوار التنزيل و أسرار التأويل» .

وقد تناول الإمام السبكي إثر عرضه لهذه التصانيف التنويه بمكان القاضي البيضاوي قائلاً :« كان إماماً مبرزا نظارا صالحا متعبدا زاهداً »[4] وتقديراً لمكانة الإمام البيضاوي قُلد منصب قاضي القضاة في شيراز ثم انتقل

---

(١) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ١٣ / ٣٢٧ وطبقات الشافعية للسبكي ٨ / ١٥٧ وشذرات الذهب لابن العماد ٥ / ٣٩٢ ومعجم المؤلفين لعمر كحالة ٩٧/٦ – ٩٨ .

(٢) انظر : التفسير ورجاله : ٩٠ – ٩١ .

(٣) انظر:صاحب الشذرات (٥ /٣٩٣) عن السبكي أنه قال عن " الطوالع " « وهو أجل مختصر في علم الكلام » والنقل عن الطبقات الوسطى كما أثبته المحقق في الطبقات الكبرى .

(٤) العلامة تاج الدين السبكي : طبقات الشافعية بتحقيق د / عبد الفتاح الحلو و د / محمود الطناحي ٨ /١٥٧ .

بعدها إلى مدينة «تبريز» حوالي سنة ٦٥٠ هـ وبها أقبل على تفسير القرآن الكريم في الحقبة الأخيرة من حياته تتويجاً لتصانيفه العلمية بعد أن تربع على القمة وصار عالم أذربيجان وشيخ تلك الناحية، وطبقت شهرته الآفاق فكان قمة أعماله خدمة كتاب الله المجيد في أوج ارتقائه الروحي ونسكه الصوفي كما أشار إليه التاج السبكي في عبارته السابقة . وتلك كانت خاتمة المطاف إذ لقي ربه تعالى في تبريز سنة ٦٨٥ هـ .

تصوف الإمام البيضاوي واتصال سنده الصوفي بنسبه العمري :

كشف المترجمون للقاضي البيضاوي النقاب عن هويته الصوفية وسلوكه لطريق القوم وارتشافه من سلاف معرفتهم ونهله من ينابيع تحققهم حتى أشعت معرفته الصوفية في تصانيفه العلمية لاسيما تفسيره « أنوار التنزيل» .

ولقد كنت - قبل شروعي في هذا البحث - أشعر وأنا أدرس وأبحث في تفسيره القيم في مراحل دارستي وبحثي مختلفة أن هذا العلم قد خرج من مشكاة عارف بالله تشرع وتحقق وتذوق وتربى على أيدي العارفين من السادة الصوفية قدس الله أسرارهم العلية ، ولكني لم أقف - قبل ولوج هذا البحث - على مدرسته الصوفية وعلى شيوخه من العارفين حتى مَنَّ الله تعالى عليَّ بخوض غمار أنواره، فكشف البحث عن سنده الصوفي ومشربه العرفاني فتحققت من انخراطه في سلك القوم ، ومن إفادته العظمى من تحققه الصوفي في إشعاع «أنوار التنزيل» في تفسبره وعطائه العلمي .

فلقد نقل العلامة السيد محمد بن عبد الرسول[1] بن قلندر بن السيد

---

(١) هكذا ترجمه صاحب إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ص ١٤٨ بينما ترجمه صاحب معجم المؤلفين (٩ / ٣٠٨) بأنه محمد بن عبد الرسول الحسن البرزنجي الشهرزوري ثم المدني وأرخ لمولده ووفاته بـ (١٠٤٠ - ١١٠٣ هـ) .

البرزنجي في حاشيته «أنهار السلسبيل لشرح أنوار التنزيل للبيضاوي» عن الإمام العارف بالله تعالى الشيخ أحمد بن عبد الله بن أبي الفتوح الكاووس أنه ذكر في رسالته المسماة : «جمع الفرق لرفع الخرق» : أن القاضي البيضاوي لبس خرقة التصوف من الغوث الإلهي الخضر ﷺ بلا واسطة ، ومن أمير المؤمنين عمر بواسطة سلسلة آبائه ، إذ قال : « فإنه لبسها من والده قاضي القضاة إمام الدين عمر من والده عمر من والده فخر الدين محمد من والده أبي بكر من والده عمر من والده عبد الرحمن من والده مفتي الصحابة عبد الله بن عمر (عنهم)[1] . »

ومن ثم يعلم :

اتصال السند الصوفي للإمام البيضاوي واتحاده بنسبه العمري من جهة ، والتقاؤه المباشر بسيدنا الخضر ﷺ وأخذُه العهد عليه في الطريق الصوفي ولبسه خرقة التصوف من يده الشريفة ، وبذا يتأكد ما قررناه آنفا : أن هذا التفسير قد شع من مشكاة صوفي عارف وهذا يتلاقى مع ما هو مثبت في حاشية البرزنجي على تفسير البيضاوي كما حققته رسالة جامعية للدكتوراه بجامعة الأزهر الشريف .

ثم إلى جانب ذلك :

ذكر صاحب كشف الظنون (١ / ١٨٧) : أن القاضي البيضاوي لما رحل إلى تبريز في طلب القضاء بشيراز ، وأظهر تبحره العلمي وفرط ذكائه بحضرة الوزير ، أكرمه وخلع عليه خلعة القضاء في يومه ورده ظافرا ، فلما طالت مدة ملازمته للقضاء والاتصال بالحكام جاء إلى أحد الصوفية العارفين

---

(١) انظر النقل والسند المتصل في حاشية أنهار السلسبيل للسيد محمد البرزنجي مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٢٢م تفسير والنقل المثبت عنها في رسالة الدكتوراه : «الإمام البيضاوي ومنهجه في التفسير» للدكتور حسن محمد شداد بإشراف د / أحمد الكومي ص ١٤٢ .

وهو الشيخ محمد بن محمد الكحتائي مستشفعا منه ، فلما مثل بحضرته قال الشيخ الصوفي مشيراً إلى القاضي البيضاوي « إن هذا الرجل عالم فاضل يريد الاشتراك مع الأمير في السعير » - ثم وجه كلامه إلى الأمير - « يعنى : أنه يطلب منكم مقدار سجادة في النار وهي مجلس الحكم » !!

فتأثر الإمام البيضاوي من كلامه وترك المناصب الدنيوية ولازم الشيخ إلى أن مات ، وصنف التفسير بإشارة شيخه !!

وهذا يعطينا :

أن ثمة رافداً ثالثا من روافد التصوف صب في المجرى الروحي للإمام البيضاوي ألا وهو العارف الشيخ محمد الكحتائي .

ثم نجتلي مما أورده صاحب (كشف الظنون) معلما علميا وصوفيا خطيرا ألا وهو أن تفسير البيضاوي إنما صنف بإشارة وتوجيه شيخ صوفي عارف وهو شيخ القاضي كما قررناه من قبل في بحث «الاتجاه الصوفي في تفسير الفخر الرازي» أنه أيضاً صنف تفسيره إثر تلقيه الصوفي عن الشيخ العارف نجم الدين الكبرى وبعد خروجه من الخلوة فجاء درة التفسير !!

ثم نأتي على الشهاب الخفاجي :

فهو الشيخ العلامة ، قاضي القضاة ، شهاب الدين ، أبو العباس أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي – نسبة إلى قبيلة خفاجة – المصري الحنفي المتوفي سنة ١٠٦٩هـ .

وقد ولد بقرية «سرياقوس» القريبة من القاهرة سنة ٩٧٩هـ ونشأ في بيت علم وتصوف ، فقد ترجم لنفسه ، وعرف بنشأته وتكوينه العلمي والروحي فقال :

« قد كنت في سن التمييز في مغرس طيب النبات عزيز ، في حجر

والدي ، ممتعاً بذخائر طريفي وتالدي ، مربى بغذاء علمي الظاهر والباطن ، في النعيم المقيم وأرفع المساكن، ومقام والدي غني عن المدح ، والوُرْقُ بأوكارها لا تُعَلِّمُ الصدح .

فلما درجت من عشى : قرأت على خالي[1] – سيبويه زمانه – علوم العربية ، ونافست إخواني في الجد والطلب ثم ترقيت فقرأت المعاني والمنطق وبقية علوم الأدب الأثنى عشر ، ونظرت كتب المذهبين : مذهب أبي حنيفة والشافعي مؤسساً على الأصلين من مشايخ العصر ، متنزهاً في حدائق السحر ، موشحا لآدابي بحلل النظم والنثر »[2] .

ومن الترجمة الذاتية التي أوردنا طرفاً منها الشهاب : نقف على صوفية منبته ونشأته حيث يقول : « مربى بغذاء علمي الظاهر والباطن » ولهذه الجملة دلالتها ومغزاها الصوفي العميق الذي ندرك أبعاده بجلاء في مصنفاته لاسيما حاشيته على تفسير البيضاوي وشرحه للشفاء للقاضي عياض .

ونقف – في ترجمته الذاتية أيضاً – على تلقيه الصوفي عن والده أولاً ثم عن شيوخه الجامعين بين التشريع والتحقق كشمس الإسلام شمس الدين الرملي ، والعلامة إبراهيم العلقمي الذي يحدثنا عنه الشهاب قائلا : « قرأت عليه الشفاء بتمامه ، وأجازني به وبغيره ، وشملني نظره وبركة دعائه لي »[3].

وتلقى الشهاب عن أساطين علماء عصره في مختلف فروع العلم ، وكانت له رحلات علمية إلى الحرمين والقسطنطينية ، ودمشق وتولى القضاء ببلاد الروم وغيرها ، وصنف العديد من فرائد المصنفات منها : « عناية

---

(١) يعني به العلامة أبا بكر إسماعيل بن عمر الشنواني المتوفى سنة١٠١٩ هـ وترجمته بمعجم المؤلفين ٢/٢٨٣.

(٢) انظر : ترجمة الشهاب في : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر للمحبي١/٣٣١ والبيان عند الشهاب الخفاجي في كتابه «عناية القاضي وكفاية الراضي» للدكتور النكلاوي١/٥ .

(٣) انظر : مقدمة عناية القاضي ٢/١ والنقل عنها في البيان عند الشهاب الخفاجي ٦/١ .

القاضي » ، و « ريحانة الألبا » ، و «زهرة الحياة الدنيا» ، و «نسيم الرياض في شرح الشفا للقاضي عياض » ، و «شرح درة الغواص في أوهام الخواص للحريري » ، و «ديوان الأدب في ذكر شعراء العرب » ، و «شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل » ، و «الروض النضير في شرح شواهد التفسير » ، وغير ذلك[1] .

وإن حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي لتعد من بين حواشيه وتعاليقه التي تقارب الخمسين – كما أثبته صاحب «كشف الظنون» [2] - : درة الحواشي ، وموسوعة التفسير الحافلة بأعظم الفوائد وأدق المباحث ، وأغزر المعارف في أدق عبارة وألطف إشارة ، وأعمق تحليل ، وأصوب تحقيق ، فكانت بهذه المثابة من أمهات المصادر التفسيرية[3] .

فإذا ما ضمت هذه الخصائص إلى ما سبق تقريره لمكانة تفسير البيضاوي من إنه يعد مبلغ المنهج العلمي في تفسير القرآن الكريم إلى ذروته كما حققه صاحب «التفسير ورجاله» [4] كان رصد الاتجاه الصوفي عند الإمامين الجليلين : البيضاوي والشهاب الخفاجي خطوة علمية كبرى في إبراز مصداقية تأصيل التصوف الإسلامي بأسسه ومعالمه وسلوكياته على هدى القرآن العظيم ، واثبات انتماء أئمة المفسرين وعلماء التنزيل إلى الطائفة الصوفية قدس الله أسرارهم العلية .

ولا ريب أن تجسيد هذا التأصيل وذاك الانتماء يدحض – بالضرورة –

---

(١) انظر معجم المؤلفين لعمر كحالة ١٣٨/٢ والمرجع الأخير ، وكشف الظنون لحاجي خليفة ٦٩٩ ، ٧٤١ وهدية العارفين للبغدادي : ١٦٠/١ .

(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون ١٨٨/١-١٩٤ .

(٣) انظر التنويه بهذه الحاشية في : التفسير ورجاله للفاضل بن عاشور ص ١٠٠ .

(٤) نفس المصدر ص ٩٦ .

دعاوي المارقين من خصوم التصوف ومزاعمهم الرامية إلى عزل التصوف عن الإسلام وعزو أصوله وسلوكياته إلى مصادر غير إسلامية – فارسية أو هندوكية مثلا – فلا حجة لهم بعد تجلية التأصيل القرآني للتصوف وسريان هذا التأصيل في النتاج التفسيري ، وفي مفاهيم واتجاهات علماء التفسير والتأويل فيما ذهبوا إليه ، ولا محل لهذه الافتراءات من الصحة بعد سطوع شمس الحقيقة من أفق التنزيل الحكيم وتجلي أضوائها في ذخائر التفاسير شاهدة بحقية كينونة التصوف في الإسلام كالرأس من الجسد إذ هو حقيقة «الإحسان» المشيدة على ركنى الإسلام والإيمان كما نطقت بذلك السنة الغراء[1] .

وسأنتهج – بتوفيق الله تعالى – في إبراز الاتجاه الصوفي عند الإمامين : البيضاوي والشهاب : رصد جملة من المعالم الصوفية وإيراد الشواهد الدالة على تصوفهما من تفسير البيضاوي ومن حاشية الشهاب التي تبرز مراميه ، وتوضح خوافيه وتقرر مفاهيمه وتبين مجمله ، وتخرج شواهده .

فالمعلم الأول : في حقيقة المعرفة

لقد انعكست إشراقية المعرفة الصوفية في تفسير البيضاوي ، فألفيناه يؤمن بوصول العبد إلى المعرفة الشهودية والكشفية بالتقرب إلى الله تعالى بالعبادة والاستغراق في حضرة الجمع حيث يغيب عما سوى الحق تعالى في توجهه إليه وملاحظته لجناب قدسه وقد تمثل ذلك في نماذج بالغة الكثرة وشواهد عديدة من تفسيره مستعملا فيها مصطلحات الصوفية في هذا الصدد مثل « العارف » ، « الشهود» ، «المشاهد» ، «الكشف» ، «الإلهام» وغير ذلك . ومن تلك الأمثلة والشواهد :

---

(١) انظر حديث أم السنة – في بيان الإسلام والإيمان والإحسان – في الصحيحين والسنن الأربعة والمسند للإمام أحمد . وتخريجه عنهم في الفتح الكبير للنبهاني ١/٥٠٥ ط – الحلبي.

(١) في تفسيره للبسملة : نجده يعلل لتخصيصها بالأسماء الحسنى الثلاثة : « الله » ، « الرحمن » ، « الرحيم » فيقول :

« وتخصيص التسمية -أي البسملة- بهذه الأسماء الثلاثة : ليعلم العارفُ أن المستحِقَّ لأن يُستعانَ به في مجامع الأمور هو المعبود الحقيقي الذي هو مولى النعم كلها، عاجلها وآجلها ، جليلها وحقيرها ، فيتوجه بشراشره [١] إلى جناب القدس ، ويتمسك بحبل التوفيق ، ويشغل سره بذكره والاستمداد به عن غيره [٢]. »

ونجد العلامة الشهاب : يعلق على هذا النص مبرزا خلفيته الصوفية ، فيوشج بين التوجه المذكور في جملة « فيتوجه بشراشره » وبين مصطلح « العارف » الذي عبر به البيضاوي بعد توضيح مدلول التوجه المذكور – كما أوردناه في التعليق – فيقول :

« .. كأنه لتهالكه طرح عليه نفسه بكليته ، وهو الذي عناه المصنف رحمه الله ، إذ مراده : التوجه ظاهرا وباطنا ، ولذا خصه بالعارف »[٣] .

ومن تقرير القاضي البيضاوي وتعليق الشهاب عليه يعلم : أن التوجه إلى الله تعالى بالكلية الجامعة للظاهر والباطن ، المرتب على العلم بتخصيص البسملة بالأسماء الثلاثة : أمر مختص بالعارف بالله تعالى ، إذ هو المتأهل للتحقق به .

---

(١) الشراشر : جمع شرشره وتستعمل بمعنى النفس والجسد – وهي في الأصل أطراف الأجنحة والذنب – واللفظ هنا : كناية عن الجملة ، إذ يمثل به لمن يتوجه إلى شيء بكليته فيقال : ألقى عليه شراشره . انظر : حاشية الشهاب عناية القاضي : ١ / ٧٢ .

(٢) القاضي البيضاوي : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب ٧٢/١ .

(٣) نفس الموضع من : عناية القاضي

(٢) وفي تفسيره لقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يورد القاضي البيضاوي وجوه التوجيه والتعليل لتقديم مفعول فعل العبادة عليه فيقرر أحدها مبينا حالة العارفين مع الله تعالى في عبادتهم لجنابه سبحانه فيقول:

« .. والتنبيه على أن العابد ينبغي أن يكون نظره إلى المعبود أولاً وبالذات ومنه إلى العبادة ، لا من حيث أنها عبادة صدرت عنه ، بل من حيث إنها نسبة شريفة إليه ووصلة بينه وبين الحق .

فإن العارف إنما يحق وصوله إذا استغرق في ملاحظة جناب القدس ، وغاب عما عداه ، حتى أنه لا يلاحظ نفسه ، ولا حالاً من أحواله إلا من حيث أنها ملاحظة له ومنتسبة إليه ، ولذا ما حكى الله عن حبيبه حين قال : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [١] على ما حكاه عن تكليمه حيث قال : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [٢] » [٣].

ففي هذا التوجيه التفسيري : يتجلى حرص القاضي البيضاوي على أن يتضمن تفسيره هذه الرؤية الصوفية التي يعبر بها عن منظور أهل الحقائق العرفانية في دلالة النص القرآني ، فيصور هنا حالة أهل المعرفة بالله سبحانه معبراً عنها بمصطلحات القوم كالعارف ، والوصول ، والاستغراق ، وملاحظة جناب القدس ، ويوجه لما يذكر بدلالة السياق القرآني وطرائق تعبيره .

---

(١) سورة التوبة ٩ / ٤٠

(٢) سورة الشعراء ٢٦ / ٦٢

(٣) البيضاوي : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب ١ / ١٢١ -١٢٢ .

ثم إننا نجد العلامة الشهاب الخفاجي يولي مثل هذا الجانب الصوفي في تفسير البيضاوي عناية فائقة فيقوم في حاشيته بشرح هذه المصطلحات الصوفية والتوجيه لاستعمالها في موضعها ، إذ نجده إزاء النص التفسيري المذكور .

أ) يعرف بمصطلح العارف عند الصوفية المعبر عنهم بـ « أهل السلوك» فيقول :

« العارف عند أهل السلوك من أشهده الله ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله . وأما في اللغة والعرف فأشهر من أن يذكر »[1]

ب) ويبين مدلول الاستغراق الذي يتحقق به العارف الصوفي بمقتضى دلالة اللغة فيقول : « واستغرق : بمعنى تَمَحَّضَ مُعرضاً عن غير ما استغرق له ، وهو إما من الاستغراق بمعنى الاستيعاب ، لاستيعاب أوقاته أو نظره في ذلك . أو بمعنى اشتغل به وتفرغ عن غيره ، وفي القاموس : فلانة تغرق نظرهم أي تشغلهم بالنظر إليها عن النظر إلى غيرها لحسنها !! »[2] .

ج) ثم يبين الشهاب سر المغايرة في التعبير بين «العابد» و «العارف» فيقول:

« لما كان قوله : «فإن العارف ...»[3] إلخ تعليلاً لقوله « ينبغي ... »[4]، لأن العابد إما عارف ، أو بصدد أن يكون عارفاً ، وعلى الأول : الاستغراق مقتضى حاله ، وعلى الثاني : هو طالب لأن يكون حاله »[5]

---

(١) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي ١ / ١٢١ .

(٢) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي ١ / ١٢١ .

(٣) أي : قول البيضاوي السابق ذكره : « فإن العارف إنما يحق وصوله إذا استغرق .إلخ » .

(٤) أي في قول البيضاوي : « إن العابد ينبغي أن يكون نظره إلى المعبود » .. إلخ .

(٥) الشهاب : عناية القاضي ١ / ١٢١ .

فيتحصل من كلام البيضاوي أولاً والشهاب ثانياً : أن العابد مراتب ، وقمة مراتبه أن يكون عارفا من أهل الشهود مستغرقا في الذات والأسماء والصفات ، فيكون الحق تبارك وتعالى مشهوده قبل الأشياء ، وملاحظة ذاته الأقدس مقدمة على ملاحظة معيته للأشياء ، ولا ريب أن هذا مرتقى رفيع في المعرفة يجحده – عن جهالة – أولئك الذين يغفلون عن تفاوت الخلق في درجات العبادة وفي مراتب قربهم من جناب الحق جل وعلا ، ومن ثم يجحدون اختصاص العارفين من الصوفية بما حباهم الله تعالى به من المعرفة والقرب والشهود .

(٣) وهذا شاهد ثالث من تفسير البيضاوي يصرح فيه بالكشف والإلهام والمنامات الصادقة كوسائل للمعرفة عند الأولياء، إذ يقول عند تفسير قوله تعالى ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ في بيان أجناس الهداية المطلوبة في الآية الكريمة .

« .. الرابع أن يكشف على قلوبهم السرائر ، ويريهم الأشياء كما هي بالوحي أو الإلهام ، والمنامات الصادقة ، وهذا قسم يختص بنيله الأنبياء والأولياء ، وإياه عنى بقوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [(١)] ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[(٢)] » [(٣)]

لقد بين العارف البيضاوي - رضوان الله عليه – في سياق حصره لأجناس الهداية المذكورة في الفاتحة – هذا الجنس الخاص بالأنبياء والأولياء ، بعد ذكر ما يعمهم وغيرهم كإفاضة القوى الإدراكية ونصب الدلائل العقلية ،

(١) سورة الأنعام ٦ / ٩٠ .

(٢) سورة العنكبوت ٢٩ / ٩٠ .

(٣) البيضاوي : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب : ١ / ١٢٨ -١٢٩ .

فأوضح للمعرفة وسائل خاصة بهؤلاء الخواص كالوحي ، والإلهام ، والكشف ، والرؤى .

ثم جاء العارف الشهاب ليوضح في حاشيته مغايرة هذا الجنس العرفاني الخاص بالأنبياء والأولياء ، وليعرف بوسائل المعرفة الخاصة بهم فيعلق على هذا الجنس الرابع بقوله :

« مغايرته لما قبله ظاهرة ، لاختصاصه بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والأولياء ، إذ المراد بالوحي : كشف الحقائق وإظهارها لهم بغير الطرق المعهودة ، ولا وجه لتعميمه ؛ والإلهام : إلقاء الخير في القلب ، إذ غيره يقال له وسوسة ، وأما قوله تعالى ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[1] : فمؤول كما سيأتي في محله ، والمنامات الصادقة هي المبشرات وهي جزء من أجزاء النبوة – كما ورد في الحديث المشهور[2]- وانكشاف الحقائق بها يقيناً مخصوص برؤياهم سواء أولت أو وقعت بعينها [3]» .

(٤) ونجد الإمام البيضاوي يعول في نظرته للمعرفة على علم المشاهدة الذي هو من حقائق التصوف ويصرح في تفسيره بأنه أعلى مراتب اليقين ، فيقول في تفسير قوله تعالى ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾[4] :

---

(١) الشمس ٩١ / ٨ .

(٢) أخرج البخاري عن أبي سعيد ، ومسلم عن ابن عمر وعن أبي هريرة ، والإمام أحمد وابن ماجة عن أبي رزين ، والطبراني عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال"«الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» انظر الفتح الكبير للنبهاني٢/١٣٨ط – الحلبي .

(٣) الشهاب : عناية القاضي : ١/١٢٨-١٢٩ .

(٤) سورة التكاثر ١٠٢/٨ .

« .. أي الرؤية التي هي نفس اليقين ، فإن علم المشاهدة أعلى مراتب اليقين »[1].

فإذا ما توجهنا إلى مصادر التصوف للتعرف على حقيقة المشاهدة للتحقق من استقاء القاضي البيضاوي معارفه الصوفية من ينابعه ومطابقة ما أفضى به منها في تفسيره لما هو مقرر من حقائقهم : وجدنا شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري رضوان الله عليه يقول في «منازل السائرين» .

« **المشاهدة** : سقوط الحجاب بتاً ، وهي فوق المكاشفة ، لأن المكاشفة ولاية النعت ، وفيها شيء من بقايا الرسم ، والمشاهدة : ولاية العين أو الذات ، وهي على ثلاث درجات : الدرجة الأولى : مشاهدة معرفة تجري فوق حدود العلم في لوائح نور الوجود منيخة بفناء الجمع ؛ الدرجة الثانية : مشاهدة معاينة تقطع حبال الشواهد ، وتلبس نعوت القدس ، وتخرس ألسنة الإشارات ؛ الدرجة الثالثة : مشاهدة جمع ، تجذب إلى عين الجمع ، مالكة من صحة الوارد ، راكبة بحر الوجود »[2]

ونجد العلامة الشهاب يتفق مع القاضي البيضاوي في نظرته للمشاهدة ويقرر كلامه السابق معلقا على تفسيره عين اليقين بأنها الرؤية التي هي نفس اليقين بقوله :

« إشارة إلى العين هنا بمعني النفس ، كما في نحو : جاء زيد عينه ، أي نفسه . وقوله «فإن علم المشاهدة ..» إلخ : تعليل لكون الرؤية نفس اليقين دون غيرها من العلوم ، فإن الانكشاف بالرؤية والمشاهدة فوق الانكشاف فهو أحق بأن يكون عين اليقين ، فاندفع ما أورد عليه من أن أعلى اليقينيات

---

(١) البيضاوي : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب : ٨ /٣٩٥ .

(٢) الإمام عبد الله الأنصاري : منازل السائرين ص ٤٠ - ٤١ ط الحلبي الثانية .

الأوليات دون المشاهدات كما تقرر في محله »[1]

كما نجد من شواهد صوفية الشهاب الخفاجي : إصداره في حاشيته عن أعلام علماء الصوفية في شرح مصطلحاتهم وتقرير الحقائق العلمية بأقوالهم ، ففي تعليقه على تعريف البيضاوي لليقين عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَبِٱلْأَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[2] تراه يعرض لمذاهب العلماء والمفسرين في حقيقة اليقين ويتوجها بالنقل عن الإمام أبي القاسم القشيرى قدس الله سره فيقول :

« وقال الإمام القشيري في كتاب «مقامات الصوفية» : اليقين علمٌ لا يتداخل صاحبة ريبٌ على مطلق العرف ، ولا يطلق في وصف الحق ﷻ ، لعدم التوقيف »[3]

(٥) ثم إننا نجد الإمام البيضاوي يرى تقسيم العلماء والعارفين إلى طبقات متفاوتة في العلم والمعرفة تبعا لتفاوتهم في القرب من الحق تعالى وفي وسائل المعرفة ، إذ يقول عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[4] ما نصه :

« قسمهم أربعة أقسام بحسب منازلهم في العلم والعمل ، وحث كافة الناس على أن لا يتأخروا عنهم ، وهم :

الأنبياء : الفائزون بكمال العلم والعمل ، المتجاوزون حد الكمال إلى درجة التكميل .

(١) الشهاب : عناية القاضي ٨ / ٣٩٥ .

(٢) سورة البقرة /٤ .

(٣) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي : ١ / ٢٣٩ .

(٤) سورة النساء / ٦٩ .

ثم **الصديقون** : الذين صعدت نفوسهم تارة بمرقى النظر في الحجج والآيات ، وأخرى بمعارج التصفية والرياضات إلى أوج العرفان ، حتى اطلعوا على الأشياء وأخبروا عنها على ما هي عليها .

ثم **الشهداء** : الذين أدى بهم الحرص على الطاعة والجد في إظهار الحق حتى بذلوا مهجهم في إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى .

ثم **الصالحون** : الذين صرفوا أعمارهم في طاعته وأحوالهم في مرضاته .

ولك أن تقول :

المُنعَم عليهم : هم العارفون بالله سبحانه وتعالى وهؤلاء : إما أن يكونوا بالغين درجة العيان ، أو : واقفين في مقام الاستدلال والبرهان .

والأولون : إما أن ينالوا مع العيان القرب بحيث يكونون كمن يرى الشيء قريبا ، وهم الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – أو لا ، فيكونون كمن يرى الشيء من بعيد وهم الصديقون .

والآخرون : إما أن يكون عرفانهم بالبراهين القاطعة ، وهم العلماء الراسخون الذين هم شهداء الله في أرضه ، وإما أن يكون بأمارات وإقناعات تطمئن إليها نفوسهم ، وهم الصالحون »[1]

هكذا يتجلى العرفان الصوفي عند الإمام البيضاوي في بيان تفاوت مراتب أكمل الخلق وأقربهم إلى الحق تبارك وتعالى ، إذ يعرفنا بمنازلهم في العلم والعمل لاستنهاض الهمم العالية للفوز بمعيتهم ، فيبين تحقق القسم الأعلى وهم الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – بالكمال والتكميل[2] كما يبين التحقق

(١) القاضي البيضاوي : أنوار التنزيل ٣ / ١٥٣ .

(٢) المراد بالكمال هنا : الكمال البشري اللائق بمراتب النبيين والمرسلين – عليهم الصلوات والتسليمات – في دائرة المخلوقية والعبودية الحقة لله تبارك وتعالى فلا يتوهم منه أدنى مشاركة في الكمال الإلهي اللائق بجنابه

العرفاني عند الصديقين تارة بمراقى النظر والاستدلال ، وتارة أخرى بالتصفية والمجاهدة حتى يرتقوا إلى ذرى العرفان فيعاينوا حقائق الأشياء ويخبروا عنها كما هي عليه .

ثم يبين مرتبة الشهداء من منظورين : أحدهما عرفي وشرعي والآخر عرفاني تحقيقي - ولا مشاحة في الجمع بينهما - وكذا يعرض لمرتبة الصالحين من الوجهتين : العملية والعلمية .

ونجد العلامة الشهاب الخفاجي لا يترك هذا البيان العرفاني لأقسام المنعم عليهم يمر دون أن يدلي هو الآخر بدلوه في معين المعرفة الصوفية ، فيعلق في هذا الموضوع من حاشيته على تفسير البيضاوي - المزدوج - للشهداء في الآية الكريمة قائلا :

« وفسر الشهداء بمعناه المعروف ، وعلى ما بعده : جعله من الشهادة ، أي المشاهدة .

وحاصل الثاني : أن العارف بالله إما أن تكون معرفته عن مشاهدة بالحقيقة مع قرب واتصال ، أو مع بعدها وانفصال ، أو للصور المنطبعة في مرآة العقل التي معه ، أو البعيدة عنه ، وهذا مما لا شبهة فيه لمن ألقى السمع وهو شهيد .

اللهم أشرق علينا ذرة من أنوار معرفتك تخلصنا من ظلمات الهيولي» [1].

تلك جملة من الشواهد التي تجسد لنا جوانب من المعلم الصوفي الأول ، وهو حقيقة المعرفة في تفسير البيضاوي وحاشية الشهاب عليه ، ومنها ننتقل إلى :

وَجَلَّ .

(١) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي : ٣ / ١٥٣ .

المعلم الثاني : في الظاهر والباطن وإصدار البيضاوي عن الصوفية في البطون القرآنية .

يقف الباحث في تفسير القاضي البيضاوي لدى تعريفه المعالم الصوفية فيه على إيمانه بعلمي الظاهر والباطن كما هو معتقد السادة الصوفية قدس الله أسرارهم ، وعلى أخذه بالتأويل الباطني بشروطه المرتضاه عند العلماء المحققين كابن الصلاح والتفتازاني والنسفي والسيوطي وغيرهم ، وقد تضمن تفسيره طرفا نفيسًا من ذلك يدل على ارتضائه له وإفادته منه ، وهذه بعض الشواهد لذلك :

١- عند تفسيره قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ [(١)]

قال الإمام البيضاوي :

« ... وقيل : البحران موسى وخضر – عليهما السلام – فإن موسى كان بحر علم الظاهر، والخضر كان بحر علم الباطن »[(٢)] .

وعلى الرغم من أن الزمخشري اعتد هذا من بدع التفاسير حيث قال : « ومن بدع التفاسير أن البحرين: موسى والخضر لأنهما كانا بحرين في العلم »[(٣)] . إلا أن البيضاوي ارتضاه ولم يعبأ برفض الزمخشري له . هذا فضلا عن كون الزمخشري لم يصرح في نقده بالظاهر والباطن وإنما كان مصب إنكاره – فيه يبدو – على إطلاق البحرين على الشخصين على سبيل الاستعارة

---

(١) سورة الكهف ٦٠/١٨

(٢) البيضاوي : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب ٦ / ١١٦ .

(٣) الزمخشري : تفسير الكشاف : ٢ / ٤٩٠ ط – الحلبي .

لكثرة علمهما ، لنبو السياق في رأيه عنه كما أوضحه الشهاب في حاشيته[1] .

٢- وعند تفسير قوله تعالى ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾[2] .
نجد القاضي البيضاوي يقول عليه الرضوان :

« .. « سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا » بالخبر الباطن فيما لم تستطع الصبر عليه لكونه منكرا من حيث الظاهر »[3] .

وقد علق الشهاب الخفاجي على ذلك مبيناً حقيقة التأويل وعلاقته بالظاهر والباطن وبالمعنى اللغوي فقال عليه الرضوان :

« بالخبر الباطن » : إشارة إلى أن معنى التأويل : إظهار ما كان باطنا لبيان وجهه وحكمته ، وهو راجع على معناه اللغوي وهو ما يؤول إليه الشيء [4] فلا منافاة إذن بين المعنى الظاهر وبين المعنى الباطن ، وكلاهما لا يخرج عن دائرة المعنى اللغوي بحال ، والظاهر آيل للباطن بتعرف وجهه وحكمته ، وقصة سيدنا موسى مع سيدنا الخضر عليهما السلام خير دليل على ذلك ، وخير تأصيل لازدواجية الشريعة والحقيقة والظاهر والباطن . ومن ثم استقى البيضاوي والشهاب تأصيلهما منها .

٣- وقد أصدر القاضي البيضاوي في تفسيره عن الصوفية المحققين قدس الله أسرارهم نماذج من التأويل الإشاري الصوفي الذي يعد من البطون القرآنية المرتضاة عند العلماء الراسخين – ومنهم الشهاب الخفاجي ﷺ – ومن ذلك : ما ذكره في تأويل المائدة المذكورة في قوله تعالى

---

(١) الشهاب : عناية القاضي ٦ / ١١٦ .
(٢) سورة الكهف ١٨ /٧٨ .
(٣) البيضاوي : أنوار التنزيل : ٦ / ١٢٧ .
(٤) الشهاب : عناية القاضي ٦ / ١٢٧ .

﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[1] حيث قال بعد ذكر وجوه التفسير :

« وعن بعض الصوفية : المائدة ههنا : عبارة عن حقائق المعارف ، فإنها غذاء الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن .

وعلى هذا : فلعل الحال أنهم رغبوا في حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها ، فقال لهم عيسى عليه الصلاة والسلام : إن حصَّلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الإطلاع عليها ، فلم يقلعوا عن السؤال وألحوا فيه ، فسأل لأجل اقتراحهم فبين الله سبحانه وتعالى أن إنزاله سهل ، ولكن في خطر ، وخوف عاقبة ذلك ، فإن السالك إذا انكشف له ما هو أعلى من مقامه لعله لا يحتمله ولا يستقر له فيضل به ضلالا بعيداً »[2] !!

وقد وقف العلامة الشهاب من هذا التفسير الإشاري موقف المحقق الراسخ فقال عليه الرضوان :

« إن قال : إن المقصود من الآية هذا فلا وجه له ، وإن أراد أنه من البطون القرآنية : فنعم ، وتنزيل النظم عليه ظاهرة »[3] .

نعم إن قضية التفسير الإشاري والتأويل الصوفي قد خاض فيها العلماء ما بين مؤيد ومعترض . لكن منطق أهل العرفان الصوفي فيها مشع بالأنوار !! ولله درُّ حجة الإسلام سيدنا أبي حمد الغزالي رضوان الله عليه إذ قال في هذه القضية كلاما شافيا نجتزئ منه قوله :

---

(١) سورة المائدة ٥/ ١١٤

(٢) البيضاوي : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب ٣ / ٣٠٢ .

(٣) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي : ٣ / ٣٠٢ .

« .. فاعلم أن من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه وهو مصيب في الأخبار عن نفسه . ولكنه مخطئ في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده ومحطه . بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم . قال علي ﷺ « .. إلا أن يؤتى العبد فهما من القرآن » فإن من لم يكن له سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم ؟ وقال رسول الله ﷺ « .. إن للقرآن ظهرا وبطنا وحدا ومُطَّلَعا»[1] ويروى أيضاً عن ابن مسعود موقوفا عليه وهو من علماء التفسير »[2].

المعلم الثالث : في السير والسلوك ومنهاج الوصول إلى ملك الملوك ، والمقامات الثلاثة : الشريعة ، والطريقة والحقيقة :

لقد تناول القاضي البيضاوي في تفسيره – بلغة العارفين الواصلين – بيان مراحل السلوك الصوفي . ومنهاج السير إلى جناب الحق تبارك وتعالى ، ومقامات العارفين بالله ﷻ ، استنباطا من دلالة النص القرآني الحكيم بما يزيح ظلمات الريب ودُجُنَّاتِ الإنكار على مسلك السادة الصوفية المتحققين ، وينزل السكينة في قلوب الباحثين عن الحق بنصفة وتجرد ، ويضئ نور اليقين في نفوس أرهقتها الحيرة وأضناها جموح التعصب المذهبي فافتقدت رشدها بعيدا عن مدى التنزيل ، فقيض الحق سبحانه لطريقه من يذود عنه من أهل التنزيل .

وهذه شواهد الحق من تفسير البيضاوي وحاشية الشهاب عليه تنطق بحقائق هذا المعلم المتعدد الجوانب والأبعاد :

---

(١) خرجه العراقي عن ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه « المغني عن حمل الأسفار بهامش الأحياء ١ / ٨٨ » .

(٢) الإمام أبو حامد الغزالي : أحياء علوم الدين : ١ / ٢٦٠ ط العثمانية .

١- فنجده يبرز سر الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ كاشفا ما يدل عليه من منهاج السير والنزول في منازل السائرين ومقامات العارفين للوصول إلى الله ﷻ والتحقق بحق اليقين ، حيث يحظى العارف بالمشاهدة والمكالمة فيقول علية الرضوان :

« ثم إنه ذكر الحقيق بالحمد ، ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات ، وتعلق العلم بمعلوم معين : خوطب بذلك ، أي يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة ليكون الخطاب أدل على الاختصاص والترقي من البرهان إلى العيان ، والانتقال من الغيبة إلى الشهود ، وكأن المعلوم صار عياناً ، والمعقول مشاهدا ، والغيبة حضورا .

بنى أول الكلام على ما هو مبادئ حال العارف من الذكر والفكر ، والتأمل في أسمائه والنظر في آلائه ، والاستدلال بصنائعه على عظيم شأنه وباهر سلطانه .

ثم قفى بما هو منتهى أمره ، وهو أن يخوض لجة الوصول ، ويصير من أهل المشاهدة فيراه عيانا ، ويناجيه اللهم اجعلنا من الواصلين إلى العين ، دون السامعين للأثر »[1] !!

وقد علق الشهاب على هذا البيان العرفاني للقاضي البيضاوي بإيراد تعقبات شراح تفسيره والمحشين عليه واستدراكاتهم على بيان استنباطه لمبادئ حال العارف وأواسطه ورد على هذه التعقبات والاستدراكات بما يبرز علو مراقى استنباط القاضي ودقة إشاراته ، إذ قال :

(١) البيضاوي : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب ١ /١١٠-١١٣ .

« وقيل : الأَوْلَى : أن يذكر في مبادئ حاله تهذيب الظاهر بوظائف العبادات المستفاد من «الحمد» أن كان بمعناه العرفي[1] ودلالته إن حُمِلَ على المعنى اللغوي ، لأن من عرف أن جميع النعم له : يلزمه أن يشكره بجميع الموارد .

وقيل: أواسط حاله : الإيمان بالشرع وما لا طريق للعقل إليه إلا من جهة الوحي رجاء وعده ووعيده ، وقد تضمنه ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ فلم يفت النظم أواسط حاله .

وفيه نظر !! إذ كيف يكون الإيمان بالشرع من أواسط حال العارف ؟؟

بل : أواسط حاله تزكية الباطن عن الأخلاق ، في﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ فيه : إشارة إليها لكن لا كما توهم !!

ويمكن أن يقال : التحلي بالأخلاق الفاضلة والتخلي عن الملكات الرديئة : من مقتضى الرحمة الرحمانية ، لأنه من النعم الجليلة الدنيوية ، وجزاؤه في الآخرة : من مقتضيات الرحمة الرحيمة ، فالاسمان يشعران بأواسط حاله .

وهذا كله تكلف ناشئ عن الغفلة عن قوله «العارف» ، فإنه في اصطلاحهم : من أشهده الله ذاته وصفاته وأسماءه وأفعاله ، والعارف تكفيه الإشارة » .[2]

ثم تناول الشهاب إيراد أقوال المتعقبين للبيضاوي في بيان منتهى حال العارف والجواب عنها ، فقال عليه الرضوان :

---

(١) ذكر الشهاب في حاشيته (٧٤/١) أن الحمد عرفا هو «فعل ما يشعر بتعظيم المنعم من حيث أنه منعم على الحامد أو غيره» ، وهو مقابل أعم في الأداة من الحمد اللغوي الذي هو : الثناء باللسان على الجميل الاختياري من نعمة أو غيرها .

(٢) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي : ١ /١١٣ .

« قيل : وفيه بحث ، أما أولاً : فلأن منتهى حال العارف : مرتبة حق اليقين ، والظاهر : أن ما ذكره إشارة إلى مرتبة عين اليقين[1] .

وأما ثانيا : فَلِما ذكره بعض العلماء من أن الخطاب لا يقتضي إلا كون المتكلم بحيث يراه المخاطب ويسمع صوته لا كونه رائياً للمخاطب ومشاهدا له .

وفيه نظر : لأنه لا يفهم من كلام المصنف استدعاء الخطاب مطلقا شهود المتكلم ، بل يفهم أن الخطاب الواقع بعد إجراء الصفات الموجبة لليقين يوجب كون المخاطب كأنه مشاهد ، ولا شبهة في صحة هذا الكلام .

والجواب عن الأول : أن هذا منتهى السير إلى الله ، فلذا عدت منتهى حاله ، وفيه نظر لا يخفى »[2] .

٢- ومن شواهد تبيان القاضي البيضاوي لمعالم سلوك الطريق إلى الله ﷻ وتأصيل مسلك الصوفية الأخيار باستنباط قواعدهم في السلوك من كتاب الله ﷻ : ما ذكره عند تفسير قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[3] . إذ قال في تفسيره :

« ... كأنه قال : اعبدوا ربكم راجين أن تنخرطوا في سلك المتقين الفائزين بالهدى والفلاح ، المستوجبين لجوار الله سبحانه وتعالى .

---

(١) يقول الإمام القشيري في مراتب اليقين : «فعلم اليقين – على موجب اصطلاحهم – أي الصوفية – : ما كان بشرط البرهان ، وعين اليقين ما كان بحكم البيان ، وحق اليقين : ما كان بنعت العيان .فعلم اليقين : لأرباب العقول ، وعين اليقين : لأصحاب العلوم ، وحق اليقين : لأصحاب المعارف » الرسالة القشيرية بتحقيق د / عبد الحليم محمود ٢٤٤/١ .

(٢) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي ١١٣/١ .

(٣) سورة البقرة /٢١ .

نبه على أن التقوى منتهى درجات السالكين ، وهو التبري من كل شيء سوى الله سبحانه وتعالى ، وان العابد ينبغي أن لا يغتر بعبادته ، ويكون ذا خوف ورجاء كما قال سبحانه وتعالى ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[1] ، ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾[2] » .

لقد علق العلامة على الشهاب على هذا التبيان بما أجلى روعة استنباطه من النص التنزيلي ووضح مدلول السلوك الصوفي ومراحله فقال :

« .. وأشار بقوله «نبه» إلى أنه ليس من منطوق اللفظ ، بل من إيمائه ، فإنه غير مخصوص بهؤلاء سواء عم الخطاب أو خص .

لكن التعبير بالترجي في حق الجميع يومئ إلى أنها رتبة عظيمة ، لأن طالب الحق لا يزال يترقى من حال إلى آخر ، ويسمى ذلك سيرا .

والسلوك معناه في اللغة : مطلق الدخول ، ثم خص عند الصوفية : بالدخول في طريق موصل للحق ، والسالك عندهم : هو السائر إلى الله ، المتوسط بين المريد والمنتهى ما دام في السير .

وفسر التقوى بما ذكر ، وهو من مراتبها السابقة .

وقوله : « وأن العابد ...» الخ : هذا إما نظراً إلى ظاهر الترجي ، لأنه يستعمل فيما يحتمل الوقوع وعدمه فكل مُتَرَجٍ خائف مما يؤدي إلى سخطه تعالى ، ويحتمل أنه إشارة إلى حمل التقوى على معناها الأول – الذي يتقى به العذاب – فلا يتجه عليه شيء .

ولا يرد ما قيل من أن المفهوم من «لعل» الرجاء دون الخوف، إذ المراد:

---

(١) سورة السجدة /١٦ .

(٢) سورة الإسراء /٥٧ .

خوف عدم حصول المرجو من التقوى المفضي إلى العذاب ، فينطبق حينئذ على ما استشهد به من قوله تعالى ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ ، ويؤيده كون «لعل» يدل على الإشفاق أيضاً وفي احتماله ما يومئ لما ذكر لمن تدبر »[1] .

وهكذا تتضح في مرآة الشهاب التي انعكست فيها أنوار التنزيل من تفسير البيضاوي : معالم السلوك الصوفي في إطار مفاهيم العبادة ، والتقوى ، والخوف والرجاء .

٣- ثم نجد العلامة البيضاوي يبين في مواضع عديدة من تفسيره أن طريق السلوك الموصل إلى الله تعالى هو المراد بالصراط المستقيم في كتاب الله تعالى ، ومن ذلك ما ذكره عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[2] إذ قال :

« ...﴿ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ : يصلون بسلوكه جناب القدس وعليهم أبواب الغيب . قال عليه الصلاة والسلام : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .. »[3]

وقد عقب الشهاب الخفاجي على قوله «يصلون بسلوكه» بقوله :

« يعني يتقربون به إلى الله ، ويفتح عليهم به معرفة غوامض كثيرة من

---

(١) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي ٢/١٢ .

(٢) سورة النساء /٦٦-٦٨ .

(٣) القاضي البيضاوي : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب ٣/ ١٥٣

العلوم الإلهية !!

والحديث المذكور : أورده أبو نعيم في الحلية عن أنس ﷺ ، وحمل المراتب بعد الإيمان فلا حاجة لتأويله بالزيادة أو الثبات كما في الكشاف »[1] .

٤- وفي نفس المعلم السلوكي يقول القاضي البيضاوي عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

« .. ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ﴾ : في حقنا ، فإطلاق المجاهدة ليعم جهاد الأعادي الظاهرة والباطنة بأنواعه ، ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ سبل السير إلينا والوصول إلى جنابنا . أو : لنزيدنهم هداية إلى سبيل الخير وتوفيقا لسلوكها كقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [3] ، وفي الحديث : « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » .. »[4]

وقد علق الشهاب الخفاجي على ذلك التفسير مبيناً أعماقه المستورة وموضحا طرق الوصول إلى الله ﷻ فقال :

« قوله «في حقنا» ففيه مضاف مقدر ، ومعنى «في حقنا » : من أجلنا ولوجهنا خالصا ، وأما جعله للمبالغة بجعل ذات الله مُستقراً للمجاهدة – كما قيل – فلا حسن فيه .

وقوله : «بأنواعه» : أي الجهاد ، كالقتل والأسر ، وقمع النفس بالصبر

---

(١) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي ٣ / ١٥٣ .

(٢) سورة العنكبوت ٢٩/٦٩ .

(٣) سورة محمد ﷺ ٤٧ /١٧ .

(٤) القاضي البيضاوي : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب : ٧/١١٠ .

على المكاره والعبادة .

ولا حاجة إلى تأويل «جاهدوا» بأرادوا الجهاد ، لتقدم الهداية عليه ، على ما فسره المصنف به .

وطرق الوصول إلى الله ورضوانه : هي الطاعات والمجاهدات كما لا يخفى »[1] .

٥- ثم إننا نجد القاضي البيضاوي – قدس الله سره – يصرح في تفسيره بالمقامات الثلاثة التي يجحد خصوم التصوف كينونتها في جوهر الإسلام مجتمعة لاستكمال بنائه الروحي وهي «الشريعة» و «الطريقة» و « الحقيقة» .

فيرى أن تحقق هذه المقامات الثلاثة لا يتأتى إلا بعد الجهاد الأكبر لأعدى الأعداء والتحقق بتقوى السوى – وهو المتمثل في السير والسلوك – للوصول إلى الفلاح ؛ والفلاح بأقصى غاياته – كما يراه العارف البيضاوي – هو نيل مقامات الشريعة والطريقة والحقيقة ، وهى جماع التصوف عند العارفين بالله تعالى .

فيقول – عليه الرضوان – عند تفسير قوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[2] :

« ... فاتقوه بالتبرى عما سواه لكي تفلحوا غاية الفلاح .أو : واتقوا القبائح لعلكم تفلحون بنيل المقامات الثلاثة المترتبة التي هي : الصبر على مضض الطاعات ، ومصابرة النفس في رفض العادات ، ومرابطة السر على

---

(١) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي ٧ / ١١٠ .

(٢) سورة آل عمران ٣ / ٢٠٠ .

جناب الحق لترصد الواردات المعبر عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة »[1] .

وفي تعليق الشهاب الخفاجي على هذا النص التفسيري يقول موضحاً لمراتب المقامات الثلاثة :

« ... و «المعبر عنها» : صفة المقامات ، فالصبر على الطاعات : المرتبة الأولى التي هي الشريعة ، ورفض العادات – التي هي الطريقة – الثانية والمرابطة على جناب الحق – التي هي الحقيقة – الثالثة »[2] .

إن كلاً من القاضي البيضاوي و الشهاب الخفاجي يرى – كما يرى جمهور الصوفية – أن طريق الوصول إلى الله ﷻ هو تحصيل مقامات الشريعة والطريقة والحقيقة على هذا الترتيب .

فإن أول ما يجب على المريد للوصول من المطالب هو الشريعة . والمراد منها أوامر الله ورسوله من الطهارة والصلاة بالصبر على الطاعات .

ثم سلوك الطريقة بالأخذ بالتقوى وما يقربه إلى الله زلفى من قطع المنازل والمقامات ، وهو المعبر عنه بمصابرة النفس في رفض العادات .

ثم الوصول إلى الحقيقة والمقصد ومشاهدة نور التجلي المعبر عنه بمرابطة السر على جناب الحق لترصد الواردات .

يقول سيدى أحمد ضياء الدين الكمشخانوي النقشبندي شيخ شيخنا الشيخ جوده إبراهيم قدس الله سرهما : « واعلم أن الحقيقة نتيجة الطريقة والطريقة نتيجة الشريعة ، كأنك إذا صفيت الشريعة – يعني إذا عملت بما هو أقرب إلى الورع والتقوى غير ملاحظ إلى الرخصة – تظهر منه الطريقة ، وإذا نقحت الطريقة : يظهر منها أسرار الحقيقة .

---

(١) القاضي البيضاوي : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب ٣ / ٩٥ .

(٢) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي ٩٥/٣ .

وليس المراد بالرخصة هنا ما هو كقصر الصلاة والجمع والفطر وغيرها، بل المراد : مثل مداراة الناس والإقبال على الأسباب من الوجه الحلال وادخار الأموال بعد إخراج زكاتها ، وإعداد النوائب . فهذا كله مباح في الشرع إلا أنه نزول عند القوم من درجة الزهد والتوكل ، وقيل : عن الشريعة والطريقة والحقيقة ، فإذا أكل الصائم عمداً بطل صومه في الشريعة ، وإذا اغتاب أفطر في الطريقة ، وإذا خطر بباله ما سوى الله أفطر في الحقيقة !!

فلا يمكن الوقوف على أسرار الحقيقة إلا بإثبات الأعمال المبينة ببيان صاحب الشرع ، لأن كل طريقة تخالف الشريعة فهي كفر ، وكل حقيقة لا يشهد لها الكتاب والسنة فهي إلحاد وزندقة »[1].

هذه إضافة عرفانية قصدت بإثباتها تجلية ارتباط الشريعة بالطريقة وانبناء الحقيقة عليهما كما قرره الإمام البيضاوي في تفسيره والشهاب في حاشيته . وننتقل إلى :

المعلم الرابع : في الأحوال والمقامات[2] :

وهذا المعلم وثيق الصلة بسابقه ، لأنه من مترتباته ، لذا وجدنا القاضي البيضاوي معنياً في تفسيره ببيان الأحوال والمقامات التي يتحقق بها السالكون في سير قلوبهم إلى الحق تبارك وتعالى ، حيث يحل بها المحبة والشوق والخوف والرجاء وغير ذلك ، ويقوم بهم في سائر الأوقات مثل مقام الصبر .

---

(١) العارف بالله تعالى سيدي أحمد ضياء الدين الكمشخانوي جامع الأصول: ص٤٣ ط- الحلبي

(٢) في التعريف بالحال والمقام : يقول الإمام أحمد ضياء الدين في "جامع الأصول ص ٥٨" :

« الحال : ما يرد على القلب بمحض الموهبة من غير تعمل واجتلاب كحزن أو خوف أو بسط أو قبض أو ذوق ، ويزول بظهور صفات النفس سواء تعقبه المثل أو لا ، فإذا دار وصار ملكة سمي مقاما» .

ويقول الإمام القشيري في الرسالة (١٩٠/١) : « والمقام ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق به بضرب تطلب ومقاساة تكلف » وقال في ص (١٩٣/١) « فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب والأحوال تأتي من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود » اهـ .

والتوكل والرضا ونحو ذلك[1] . وكلها مذكورة في التنزيل الحكيم الذي نزله الحق تبارك وتعالى تبياناً لكل شيء ، وإنما اختص العارفون بالله تعالى من أهل البصر بالتنزيل باستنباطها وتجسيد معالمها لطلاب المعرفة فكان من مبرِّزيهم الإمام البيضاوي والعارف الشهاب رضي الله عنهما ، وسأثبت فيما يلي بعض الشواهد لذلك :

١- عند تفسير قوله تعالى:﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [2]: يقول الشيخ البيضاوي عليه الرضوان :

« حصر لمقامات السالك على أحسن ترتيب ، فإن معاملته مع الله تعالى إما توسل وإما طلب . والتوسل : إما بالنفس – وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل والصبر يشملهما – وإما بالبدن ، وهو : إما قولى : وهو الصدق وإما فعلى ، وهو القنوت الذي هو ملازمة الطاعة ، وإما بالمال وهو الإنفاق في سبيل الخير .

وأما الطلب : فالاستغفار ، لأن المغفرة أعظم المطالب ، بل الجامع لها، وتوسيط الواو بينهما : للدلالة على استقلال كل واحدة منهما وكمالهم فيها ، أو لتغاير الموصوفين بها »[3]

هكذا استنبط العارف البيضاوي بيان الآية الكريمة لمقامات السالكين لطريق الله عز وجل في إطار معاملة المتقين – الذين أجريت عليهم هذه

---

(١) انظر ترتيب الأحوال والمقامات في دراسات عن الجنيد البغدادي "الأحوال والمقامات" للدكتور محمد مصطفى ص ١٤ .

(٢) سورة آل عمران ٣ / ١٧ .

(٣) القاضي البيضاوي : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب ٢ / ١٢ .

الصفات[1] – مع الله تعالى فتحققوا بمقامات : الصبر ، والصدق ، والقنوت ، ونحوها .

ثم جاء تعليق الشهاب على بيان القاضي البيضاوي لمقامات السالك في الآية الكريمة بمزيد بيان إذ قال :

« .. ثم إن التوسل اتخاذ الوسيلة ، ويترتب عليها الطلب ، وأقصى مراد السالك : المغفرة ، ثم هي بعد ذلك مراتب وأقصاها الرضوان فلا يرد عليه أنه قال أولا : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾[2] وهنا المغفرة أعظم المطالب ولا حاجة أن يقال أنها شاملة للرضوان »[3] .

٢- ونجد الإمام البيضاوي يتناول حال «المحبة» - الذي هو من أشرف أحوال الصوفية – عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[4] فيقول :

« .. المحبة : ميل النفس إلى الشيء لكمال أدرك فيه بحيث يحملها على ما يقربها إليه .

والعبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله ﷻ ، وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه أو غيره فهو من الله وبالله وإلى الله : لم يكن حبه إلا لله وفي الله ، وذلك يقتضي إرادة طاعته والرغبة فيما يقربه ، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول ﷺ في عبادته والحرص على

---

(١) أي المتقين المذكورين قبل الآية المستشهد بها حيث قال تعالى ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ ﴾ الآية ١٥ من سورة آل عمران

(٢) من الآية الكريمة ٧٢ من سورة التوبة ، المستشهد بها قبل في تفسير البيضاوي لحمل المطلق على المقيد .

(٣) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي : ٣/ ١٢ .

(٤) سورة آل عمران ٣ / ٣١ .

مطاوعته .

﴿ يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ جواب للأمر ، أي : يرضى عنكم ويكشف الحجب عن قلوبكم بالتجاوز عما فرط منكم ، فيقربكم من جناب عزه ويبوئكم في جوار قدسه ، عبر عن ذلك بالمحبة على طريق الاستعارة أو المقابلة »[1] .

ثم تناول الشهاب في تعليقه على هذا التفسير : حقيقة المحبة عند المتكلمين أولا وعند العارفين بالله من أئمة الصوفية ثانياً ، وعالج قضية تعلق المحبة بذاته تعالى أروع معالجة فقال قدس الله سره :

« قوله « المحبة ميل النفس » : ذهب عامة المتكلمين إلى أن المحبة نوع من الإرادة ، وهي لا تتعلق حقيقة إلا بالمعاني والمنافع ، فيستحيل تعلقها بذاته وصفاته . فإذا قيل إن العبد يحب الله فمعناه : يحب طاعته وخدمته ، أو ثوابه وإحسانه .

وأما محبة الله العباد : فعبارة عن إرادة إيصال الخيرات والمنافع في الدين والدنيا إليهم . وهما مجاز من باب إطلاق الملزوم على اللازم . أو : استعارة تبعية ، شبه إرادة العباد اختصاصه تعالى بالعبادة ورغبتهم فيها بميل قلب المحب إلى المحبوب ميلاً لا يلتفت إلا إليه . وقد اغتر بهذا صاحب الكشاف حتى طعن على من ادعى محبة ذات الله بما لا يليق صدوره عن عاقل !!

(١) القاضي البيضاوي : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب ٣ / ١٨ - ١٩ .

وأما العارفون : فقالوا :

إن العبد يحب الله لذاته . وأما محبة ثوابه : فدرجة نازلة .

قال الغزالي رحمه الله : المحبة عبارة عن : ميل النفس إلى الشيء المستلذ . فإذا قوى ذلك : سُمِّيَ عشقا . والبغض : نفرة الطبع عن المؤلم ، فإن زاد سُمِّيَ مقتاً . ولا يظن أن الحب مقصور على المحسوس ، وهو سبحانه لا يدرك بالحواس ولا يتمثل في الخيال فلا يحب ، لأنه عليه الصلاة والسلام : سمى الصلاة قرة عين ، وجعلها أبلغ المحبوبات وليس للحواس فيها حظ ، بل حس البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، والقلب أشد إدراكاً من العين ، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فيكون لا محالة لذة القلوب بما تدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ ، فميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ، ولا معنى للحب إلا الميل إلى ما فيه إدراك لذة ، فلا ينكر حب الله إلا من قيده القصور في مرابط البهائم .

نعم : هذا الحب يستلزم الطاعة كما قال الوراق رحمه الله :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه

هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبا صادقاً لأطعته

إن المحب لمن يحب مطيع

وهذا معنى قول المصنف : « بحيث يحملها ..» إلخ . فإنه يشير إلى ما ذكره المتكلمون نظراً إلى الظاهر . والتفاسير المذكورة في كلامهم كالإرادة : تفسير باللازم .

وقوله : «من الله ..» أي حدوثه منه. «وبالله»: أي بقاؤه به. «وإلى الله » أي مآله ومرجعه إليه . والحب لله : أي لأجله أو المختص به ، وفي الله : أي مرضاته – وهما متقاربان – وهو إشارة إلى مرتبة الحب الصرف الذي لم يمتزج مشربه . في زجاجة كأنها كوكب دري ، وهي التي بها العقول سكارى وما هي بسكارى :

على نفسه فليبك من ضاع عمره

وليس له منها نصيب ولا سهم[1]

والقطرة تغني عن الغدير »[2] .

هكذا يتجسد الجانب العرفاني والذوقي والتحققي عند العارف بالله الشهاب الخفاجي في هذا النص الرائع في المحبة . فنراه ينبذ مذهب المتكلمين في المحبة ومن اغتر بهم من المفسرين كالزمخشري – الذي ولج التفسير باعتزاله • ويجنح إلى متجه السادة الصوفية فيعرض رأي محققيهم – ممثلا في وجهة نظر حجة الإسلام مولانا الغزالي ﷺ - الذي قرر حقية تعلق المحبة بذاته تعالى على أحسن وجه بناء على الارتقاء بأدوات المعرفة عن مجرد الإدراك الحسي أو العقلي إلى المعرفة القلبية التي يدرك بها الصوفي العارف من الأمور الإلهية الشريفة ما يجل عن الإدراك الحسي والعقلي ، ومن ثم نعى على منكري المحبة الإلهية المتعلقة بذاته تعالى أنهم مقيدون بقصورهم في مرابط البهائم حيث قصر إدراكهم على المحسوسات !!

ثم بين علاقة المحبة بالطاعة على الوجه الصحيح ومعنى الحب لله

---

(١) البيت لسيدي عمر بن الفارض ﷺ من قصيدته الميمية . انظر : ديوان الفارض بشرح البوريني والنابلسي٢/١٥٦ ط – الأولى بالشرفية .

(٢) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي ٣/١٨-١٩ .

وبالله وإلى الله وفي الله ، وختم بمرتبة الحب الصرف التي عبر عنها بما يسكر الألباب متمثلا بشعر سيدي عمر بن الفارض الملقب لدى الصوفية بسلطان العاشقين ﷺ .

٣- وفي تفسير القاضي البيضاوي وحاشية الشهاب عليه : نجد الحديث عن «الفناء والبقاء» لدى بيان هداية السائرين العارفين بالله تعالى ، وذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ حيث أورد القاضي البيضاوي أجناس الهداية ثم قال :

« فالمطلوب : إما زيادة ما ت مُنِحُوه من الهدى والثبات عليه ، أو حصول المراتب المرتبة عليه .

فإذا قال العارف[1] الواصل عنى به : أرشدنا طريق السير فيك لتمحو عنا ظلمات أحوالنا وتميط غواشي أبداننا لنستضيء بنور قدسك فنراك بنورك »[2] .

وقد علق الشهاب على قول البيضاوي « فإذا قاله العارف .. » الخ بما أجلى به حقيقة الفناء والبقاء اللذين هما من أحوال ومقامات الصوفية العارفين السائرين إلى الله تعالى فقال عليه الرضوان :

« الظاهر أنه تفريغ على قوله « حصول المراتب المترتبة عليه» ، وأن هذا من جملتها ، ولذا قالوا : إن العارف لا يزال مسافرا ، فكلما ألقى عصاه بدا له سفر !! فهو من معنى الهداية المترتبة على أحد الأربعة[3] .

---

(١) أي : إذا قال الصوفي العارف بالله : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

(٢) القاضي البيضاوي : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب : ١/١٢٩ -١٣٠ .

(٣) يقصد بأحد الأربعة هنا : الجنس الرابع من أجناس الهداية المطلوبة بقوله تعالى﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ وهو هداية الكشف وإراءة حقائق الأشياء بالوحي أو الإلهام ونحوه مما هو مختص بالأنبياء وورثتهم الأولياء .

وقيل : الحصر فيها بالنسبة إلى السالك ، وهذا متفرع عليها بعد التكميل، فلا يرد عليه ما قيل : لا يخفى أن الإرشاد المذكور جنس خامس من الهداية ، فإن الرابع هو : هداية السير إلى الله كما سبق ، فالحصر في الأجناس الأربعة غير مستقيم .

وقد رد أيضاً بأن قيل : إن الفناء عبارة عن نهاية السير إلى الله ﷻ ، والبقاء : عبارة عن بداية السير في الله سبحانه[1] .

والسير إنما ينتهي إذا قطع بادية الوجود بالكلية ، وبعده : يتحقق السير فيه بالاتصاف بالأوصاف الإلهية ، والتخلق بالأخلاق الربانية .

وقطع بادية الوجود : عبارة عن فناء الحظوظ الدنيوية والأخروية ، ويلزمه : بقاء طلب الحق سبحانه ، بل يندرج فيه : السير إليه أيضاً ، كما أن قوله تعلى : ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[2] بشملهما ، فالحصر مستقيم .

والعارف : الواقف على الأسرار الإلهية .

والسير – كما في الفتوحات - : أن يكشف له عجائب الملكوت فتنتقش في جوهر نفسه ، فيفر إلى الله مسافرا عما سواه ، إلى أن يراه في كل شيء .

ويطلق عندهم أيضاً : على الانتقال من اسم إلهي إلى آخر :

---

(١) تعبير «المسير إلى الله » : مصطلح صوفي لا يقصد به ظاهره الموهم للظرفية المسندة للذات الأقدس سبحانه وتعالى وإنما فسره الكاشاني في (الاصطلاحات/١٣٤ بهامش شرحه على منازل السائرين ط طهران) بقوله : « السير في الله : بالانصاف بصفاته – أي بما يتأتى للعبد التخلق به من جنسها كالرحمة والكرم ونحوهما – والتحقق بأسمائه إلى الأفق الأعلى وهو نهاية الحضرة الواحدية » وكذا فسره بنحوه سيدي أحمد ضياء الدين النقشبندي شيخ شيخنا الشيخ جودة إبراهيم رضي الله عنهما في كتابه : «جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم وأوصافهم : ص ٦٢ ط الحلبي» .

(٢) من الآية الكريمة ٦٩ من سورة العنكبوت .

فيـــا دارهـــا بـــالخيف إن مزارهـــا

قريـــب ولكـــن دون ذلـــك أهـــوال »

أرأيت هذا المرتقى السامي في علوم الحقائق وأذواق أهل الشهود ؟؟

إن العارف الشهاب – رضوان الله عليه – قد خاض بنا في هذا الموضع من حاشيته لجج المعرفة ووضح حقيقة «الفناء والبقاء» من خلال تناول مراحل السير الصوفي والسفر إلى الله تعالى مستعملاً – كصوفي – مصطلحات القوم وشارحاً لها ، مصدرا في ذلك عن كبار الصوفية العارفين بالله تعالى كسيدي محيي الدين بن عربي قدس الله سره – صاحب الفتوحات المكية التي أشار إليها – وهذا يعكس مدى تحقق الشهاب – ومن قبله البيضاوي – وارتوائهما من رحيق القوم قدس الله أرواحهم .

على أننا نؤكد في التحفظ : بأن لغة القوم الصوفية في علومهم وتناول حقائقهم ومقاماتهم وأحوالهم هي لغة الخاصة التي لا تؤخذ دلالاتها من ظواهر ألفاظها بل بسبر مراميها كما عناها أصحابها .

ومن ثم صرح الإمام أبو بكر بن العربي – إمعانا منه في التحفظ – بحرمة مطالعة كتبهم إلا لمن تحلى بأخلاقهم وعلم معاني كلماتهم الموافقة لاصطلاحاتهم . وعقب عليه الحافظ ابن حجر الهيثمي بقوله : ولا تجد ذلك إلا فيمن جد وشمر ، وجانب السوء وشد المئزر ، وتضلع من العلوم الظاهرة ، وتطهر من كل خلق دنيء مما تعلق بالدنيا والآخرة ، فهذا هو الذي يفهم الخطاب ، ويؤذن له في الدخول إذا وقف على الباب[1] ا .هـ .

---

(١) الحافظ ابن حجر الهيثمي : الفتاوى الحديثية : ص ٢٩٧ ط الحلبي .

المعلم الخامس : في التوسل والتبرك :

تحتل قضية التوسل والتبرك موقع الصدارة في التصوف - بازاء تأصيله إسلاميا - بل إن خطورة هذه القضية تصاعدت لدرجة اجتراء الخصوم على المتصوفة برميهم بالشرك الأكبر لمجرد اعتقادهم في التوسل والتبرك !!

والذي أوقع الخصوم في هذا الحكم الجائر أمران أولهما : خطؤهم في فهم التوسل باعتقاد أن المتوسل به شريك للمتوسل إليه تعالى شأنه في التأثير الذاتي بجلب نفع أو دفع ضرر ، مع أن اعتقاد الصوفي جازم بانفراده تعالى بالتأثير الذاتي . والوسيلة : مجرد سبب لنيل هذا التأثير المطلوب ممن طلب منا ابتغاء الوسيلة إليه بقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾[1] .

وثاني الأمرين : أن الخصوم لم يحسنوا فهم القرآن العظيم في دلالته على التوسل مع الحفاظ التام على توحيد المسلم وصون عقيدته عن ذرائع الشرك بأنواعه .

من ثم : كان استقراء الحقيقة من أساطين المفسرين - كالبيضاوي والشهاب وغيرهما - باعتبارهم من أبصر الأمة بدلالة التنزيل وفهم مراميه وتدبر أسراره : واضعاً الأمر في نصابه وإتياناً للبيت من بابه ونشراناً للحق بأسبابه ، فلنتعرف وجهتي الإمامين وموقفهما من القضية :

لقد أعرب الإمام البيضاوي ثم العلامة الشهاب من بعده عن اعتقادهم مشروعية التوسل إلى الله تعالى بالنبي ﷺ وبصالحي الأمة من الصحابة والتابعين والعلماء العاملين باعتبارهم وسائل مقربة إلى الله ﷻ وأسباباً لنيل

---

(١) سورة المائدة ٥/ ٣٥ .

الخيرات ونجح المقاصد ووسائط لإفاضة البركات والنفحات ، ومن ثم يصح التوسل والتبرك بهم ، واستفاضة النور والمعرفة من بركاتهم .

وهذه بعض الشواهد التي ترسخ هذا العلم ، وتبدد بضيائها غياهب الإنكار وظلمات الشبهات في وضوح لا لبس فيه :

١- في مقدمة تفسير البيضاوي «أنوار التنزيل وأسرار التأويل » : يتوجه العارف بالله ناصر الدين البيضاوي إلى الله ﷻ بهذا التضرع إلى جنابه بالصلاة على رسوله سيدنا محمد ﷺ الذي بين للناس ما نزل إليهم من ربهم ، وعلى ما قرر تبيانه من الصحابة وتابعيهم وعلماء الدين العاملين مستفيضاً من بركاتهم وطالبا الانخراط في سلكهم ، إذ يقول عليه رضوان الله :

« ... فيا واجب الوجود ويا فائض الجود ويا غاية كل مقصود : صَلِّ عليه صلاة توازي غناءه ، وتجازي عناءه ، وعلى من أعانه وقرر تبيانه تقريراً ، وأفض علينا من بركاتهم واسلك بنا مسالك كراماتهم ، وسلم علينا وعليهم تسليما كثيراً »[1] .

وقد علق العلامة الشهاب على هذه الفقرات تعليقات نفيسة تشهد برسوخ علمه وتحقق عرفانه وترسيخه للمفاهيم الصوفية التي قررها الإمام البيضاوي ، ومن هذه التعليقات :

« .. قوله : «وأفض علينا من بركاتهم .. إلخ » : قد مر تحقيق الإفاضة وما يدل على أنها الإحسان الكثير ، والبركة : الزيادة والنماء ، وهي هنا : زيادة معنوية .

والمعنى : حصل لنا الخيرات بالتوسل بهم إليك حتى كأن ذلك من

---

(١) القاضي البيضاوي : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب ١ /١٣ .

نفس خيراتهم . أو : علمنا علومهم وأفض علينا من معارفهم .

قوله : « واسلك بنا مسالك كراماتهم « أي : أدخلنا في الطريق التي أوصلتهم إلى إكرامك لهم بنيل المراتب العلية عندك وبما أعددته لهم مما هو كالمنزل لهم في دار البقاء . وهذا أحد معاني الكرامة »[1] » .

لقد حفل كلام كل من العارفين : البيضاوي والشهاب بأروع المفاهيم الصوفية العرفانية والسلوكية كالإفاضة ، والبركة ، والسلوك ، والكرامات ، والتوسل ، والمعارف والطريق وما إلى ذلك مما ينم عن التحقق الصوفي والإشراق الذوقي العرفاني . بيد أن المحور الذي تدور عليه جملة المعاني هو محور التوسل والتبرك الذي يتوصل به إلى نيل المقاصد وتحصيل الخيرات .

٢- وأن من يقرأ مقدمة حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ليمتلئ انبهارا بالفتح العرفاني لدى هذا الرجل !! وليدرك في وضح نور الحق أنه ممتلئ تصوفاً ، وليقفن منذ السطور الأولى من مقدمة الحاشية على تصريحه بالوساطة المحمدية باعتبارها مناط الفوز بمتاع أسرار الدقائق العرفانية .

يقول العلامة الشهاب في مفتتح حاشيته بعد البسملة المباركة :

« يا مفيض البركات ومنزل الآيات البينات ، افتح عيون بصائرنا لمشاهدة أنوارك ، وارزقنا من موائد كرمك ذوق حلاوة أسرارك ، ووفقنا لشكر آلائك والتوفيق له من جملة نعمائك . واجعلنا ممن تمسك بعرى اليقين واعتصم بحبلك المتين من كتابك الكريم المنزل نجوما مشرقة بنور الهدى ورجوما لشياطين الغواية المسترقة لسمع التحدي في ظلمات الردى فقطع علاقتهم عن طريق الحقيقة فلم يهتدوا إلى المجاز ، حتى تصغى

---

(١) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي ١/١٣ .

أسماعهم إلى هيمنة الإعجاز ، فظل كل شاعر في واديهم لا يجد شعورا . وكل خطيب لسن يرى أسجاعه هباء منثورا ، إلا من لمعت له أنوار ذاته من خلف سرادقات صفاته ، قد حل عكاظ الحقائق ، وفاز بمتاع أسراره الدقائق بالوساطة المحمدية لازالت الملائكة تهدي منا إليه كل حين أنفس صلاة وسلام وتحية .. »[1] .

إن العارف الشهاب يسجل منذ بداية حاشيته : أن الواقفين على أسرار دقائق التنزيل الحكيم هم الذين لمعت لهم أنوار الذات العلية من خلف سرادقات الصفات الإلهية وحلوا عكاظ الحقائق بالوساطة المحمدية ، فكيف تنكر وساطته صلى الله عليه وسلم بين الحق والخلق ، وما هدانا الله إلا به ؟ وما خرجنا من الظلمات إلى النور إلا بيده صلى الله عليه وسلم ؟ وما عرفنا كتاب الله وشرعه إلا بجنابه عليه الصلاة والسلام ؟

٣- ولقد بين الإمام البيضاوي رضوان الله عليه حكمة وساطة الأنبياء بين الله وبين عباده لدى بيان سر استخلاف أبينا آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2] حيث قال :

« والخليفة : من يخلف غيره وينوب منابه ، والهاء فيه للمبالغة ، والمراد به : آدم عليه السلام لأنه كان خليفة الله في أرضه ، وكذلك كل نبي استخلفهم الله في عمارة الأرض ، وسياسة الناس ، وتكميل نفوسهم ، وتنفيذ أمره فيهم لا

(١) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي ٢/١ .
(٢) سورة البقرة ٣١/٣ .

لحاجة به تعالى إلى من ينوبه ، بل لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه وتلقي أمره بغير وسط ، ولذلك لم يستنبئ ملكا كما قال ﷻ : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[1] ألا ترى أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لما فاقت قوتهم واشتعلت قريحتهم بحيث يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، أرسل إليهم الملائكة ؟؟ ومن كان منهم أعلى رتبة كلمه بلا وساطة كما كلم موسى عليه السلام في الميقات ، ومحمداً ﷺ ليلة المعراج ؟؟

ونظير ذلك في الطبيعة : أن العظم لما عجز عن قبول الغذاء من اللحم ، لما بينهما من التباعد ، جعل الباري تعالى وبحكمته بينهما الغضروف المنسب لهما ، ليأخذ من هذا ويعطي ذاك »[2] .

تلك حكمة وساطة الأنبياء بالاستخلاف وهي كما أجلاها الإمام البيضاوي لا تقدح إطلاقا في كمال الحق تعالى ووحدانيته ، واعتقادها لا ينال مطلقا من توحيد العبد وإخلاصه لله في عبادته .

وقد أضاف الشيخ الشهاب إلى ذلك مزيداً من التعميق والترسيخ إذ قال في تعليقه :

« ... وقوله : «لا لحاجة» يعني ليس استخلافه تعالى كاستخلاف غيره فإن شأن الغير : أنه إنما يستخلف لعيبة أو عجز . بل لقصور المستخلف عليه كالسلطان يأمر خاصته بتبليغ أوامره للعامة ، ويأمرهم تارة بالذات وأخرى بالواسطة وهذه حكمة أنه لو جعل ملكا خليفة لكان رجلا »[3] .

---

(١) سورة الأنعام ٦ / ٩ .

(٢) القاضي البيضاوي : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب ٢/١٢٠ .

(٣) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي ٢ /١٢٠ .

٤- ولقد أثبت البيضاوي والشهاب وقوع التوسل بالنبي ﷺ وثبوته في القرآن الكريم ، وذلك عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾[١] .

فالآية الكريمة في الحديث عن بني إسرائيل المعاصرين للمبعث المحمدي حيث جاءهم القرآن الكريم مصدقاً لما معهم من التوراة في أصول العقيدة ومنها مبعثه صلى الله عليه وسلم الذي كانوا مصدقين به فكانوا يتوسلون إلى الله تعالى به قبل مجيئه . قال القاضي البيضاوي :

« ... ﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي يستنصرون على المشركين ويقولون : اللهم انصرنا بنبي آخر الزمان المبعوث في التوراة »[٢] .

وقد علق الشهاب على هذا التفسير بتقرير مضمونه وتأييده بالتفسير المأثور حيث قال عليه الرضوان :

« ... والاستفتاح : طلب الفتح والنصر ، وأصله في المدن ونحوها ، ثم عم فيستفتحون بمعنى يستنصرون على المشركين بالنبي ﷺ ، أي : يطلبون من الله أن ينصرهم به ، قال تعالى : ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾[٣]

روى السدي رحمه الله أنهم كانوا إذا اشتدت الحرب بينهم وبين المشركين أخرجوا التوراة ووضعوا أيديهم على موضع ذكر النبي ﷺ وقالوا : اللهم إنا نسألك بحق نبيك الذي وعدتنا أن تبعثه في آخر الزمان أن تنصرنا

---

(١) سورة البقرة ٢ / ٨٩ .

(٢) القاضي البيضاوي : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب ١٠٢/٢ .

(٣) سورة الأنفال ٨ / ١٩ .

اليوم على عدونا فينتصرون !! »[1] .

٥- وللبيضاوي والشهاب توجيه رائع فيما يتعلق بإثبات الوسائط ورفعها من منظور العارفين بالله تعالى ، وذلك في قصة سيدنا موسى وسيدنا الخضر على نبينا وعليهما الصلاة والسلام حيث حكى سبحانه عن العبد الصالح قوله في شأن خرق السفينة ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾[2] وقوله في شأن قتل الغلام ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾[3] وقال في شأن إقامة الجدار: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا ﴾ [4] فقال الشيخ البيضاوي في توجيه اختلاف الإسناد في الصور الثلاث :

ولعل إسناد الإرادة أولاً إلى نفسه : لأنه المباشر للتعييب وثانيا: إلى الله وإلى نفسه : لأن التبديل بإهلاك الغلام وإيجاد الله بدله .

وثالثاً : إلى الله وحده : لأنه لا مدخل له في بلوغ الغلامين .

أو : لأن الأول في نفسه شر ، والثالث خير ، والثاني ممتزج .

أو : لاختلاف حال العارف في الالتفات إلى الوسائط[5] .

وانظر إلى تعليق الشهاب على هذا التوجيه الأخير الذي يمثل روعة المعرفة الصوفية إذ يقول عليه الرضوان :

---

(١) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي ٢٠٢/٢ وانظر تخريج الأثر بنحوه في تفسير الطبري بتحقيق محمود شاكر ٣٣٥/٢ .

(٢) سورة الكهف ٧٩/١٨ .

(٣) سورة الكهف ٨١/١٨ .

(٤) سورة الكهف ٨٢/١٨ .

(٥) القاضي البيضاوي : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب ١٣٠/٦ .

« وقوله : « أو لاختلاف حال العارف» أي بالله ، فإنه في ابتداء أمره يرى نفسه مؤثرة ، فلذا أسند الإرادة أولاً إلى نفسه ، ثم تنبه إلى أنه لا يستقل بالفعل بدون الله ، فلذا أسنده لهما ، ثم يرى أنه لا دخل له ، وأن المؤثر والمريد إنما هو الله فلذا أسنده إليه فقط ، وهو مقام الفناء ومقام : «كان الله ولا شيء معه وهو الآن كما كان »[1] .. »[2] .

٦- ومما يدخل في إطار مَغلَم التوسل والتبرك : قضية اتخاذ المساجد بجوار الصالحين ومشروعية الصلاة فيها ، وهي من القضايا التي لا تزال محل جدل وخلاف في عصرنا ، وقد أدلى فيها كل من القاضي البيضاوي و الشهاب الخفاجي برأيه المستند إلى دلالة القرآن الكريم .

فعند تفسير قوله تعالى – في قصة أصحاب الكهف - ﴿ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾[3]

نقل البيضاوي وجوه التنازع في أمر فتية الكهف فقال :

« ... أو : قالت طائفة نبني عليهم بنياناً يسكنه الناس يتخذونه قرية . وقال آخرون : لنتخذن عليهم مسجدا يُصلىَ فيه كما قال تعالى : ﴿ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم

---

(١) خرجه العجلوني في «كشف الخفا٢/١٨٩» بلفظ «كان الله ولا شيء معه » فقط عن ابن حيان والحاكم وابن أبي شيبة عن بريدة ، ونقل عن القارئ أن زيادة «وهو الآن على ما عليه كان » : من كلام الصوفية ، ثم قال : وإن صحت فتأويلها : أنه تعالى ما تغير بحسب ذات الكمال وصفات الجلال عما كان عليه بعد خلق الموجودات .ا.هـ ملخصا

(٢) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي ٦/١٣١ .

(٣) سورة الكهف ١٨ /٢١ .

مَّسْجِدًا ﴾ ... »

ثم ذكر حكايتهم إلى أن قال :

« فماتوا فدفنهم الملك في كهف وبنى عليهم مسجدا »[1].

وقد قال الشهاب في حاشيته تعليقاً على هذا التفسير :

« ... وكونه مسجدا يدل على جواز البناء على قبور الصلحاء ونحوهم – كما أشار إليه فى الكشاف – وجواز الصلاة في هذا البناء »[2] .

وقد أزال القاضي البيضاوي شبهة المحتجين لتحريم اتخاذ المساجد بجوار القبور والصلاة فيها استناداً إلى حديث « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » [3] .حيث نقل الحافظ بن حجر – في فتح الباري – وجهة نظره الصحيحة مقراً لها قائلاً .

« وقال القاضي البيضاوي : لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيما لشأنهم ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها واتخذوها أوثانا : لعنهم ومنع المسلمين عن مثل ذلك .

فأما من اتخذ مسجدا بجوار صالح وقصد التبرك بالقرب منه لا التعظيم له ولا التوجه نحوه فلا يدخل في ذلك الوعيد » [4].

٧- وفي مقام الاستشهاد لمعلم التوسل والتبرك أيضاً نجد القاضي البيضاوي والعلامة الشهاب – عليهما رضوان الله – يثبتان ما يدل على تصرف

(١) القاضي البيضاوي : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب ٨٦/٦ .

(٢) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي ٨٧/٦ .

(٣) خرجه الإمام النبهاني في الفتح الكبير (١٤/٣ ط الحلبي) عن الإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي من عدة طرق .

(٤) الحافظ بن حجر العسقلاني : فتح الباري : ٤١٧/١ ط : البهية .

الأولياء والصالحين بعد الموت مما يسوغ التوسل بهم إلى الله ﷻ .

٨- ففي تفسير قوله تعالى ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴾[١] يورد البيضاوي وجوها لبيان المتصفين بهذه الصفات ، ومن بين هذه الوجوه التفسيرية ما ذكره بقوله :

« ... أو صفات النفوس الفاضلة حال المفارقة ، فإنها تنزع عن الأبدان غرقا أي نزعا شديدا – من إغراق النازع في القوس – وتنشط إلى عالم الملكوت ، وتسبح فيها فتسبق إلى حظائر القدس فتصير لشرفها وقوتها من المدبرات .

أو حال سلوكها ، فإنها تنزع عن الشهوات ، فتنشط إلى عالم القدس ، فتسبح في مراتب الارتقاء ، فتسبق إلى الكمالات حتى تصير من المكملات »[٢] .

وقد علق العلامة الشهاب في حاشيته على هذا الوجه التفسيري بما أضاء به العقول والقلوب إذ قال قدس الله سره :

قوله : «أو صفات النفوس الفاضلة » : معطوف أيضاً على قوله «صفات ملائكة» : فالمراد بالنازعات : النفوس المفارقة لأبدانها بالموت . ووصفها بالنزع: لأنه يعسر عليها مفارقة البدن بعد الألفة ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم : « إن للموت سكرات » [٣] فلا يختص بغير المؤمن على هذا ، وقيل

(١) سورة النازعات ٧٩/١-٥ .

(٢) القاضي البيضاوي : أنوار التنزيل بحاشية الشهاب : ٣١٣/٨ .

(٣) من حديث أخرجه الحافظ السيوطي في «الدر المنثور ١٠٥/٦ » عن ابن شيبة والبخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه عن السيدة عائشة رضي الله عنها وصدره «أن رسول الله ﷺ كانت بين يديه ركوة..»

النزع بمعنى الكف عن هذا . وقوله «تنشط» من النشاط وهو في خفة السوق . وقوله «وتسبح فيها » : أنث الضمير سواء رجع للعالم أو للملكوت، لتأويله بمؤنث وإرادة المقار ونحوه : يعنى أنها تتوجه لعالم العقول المجردة فترقى الملكوت من مرتبة إلى أخرى بسرعة ، فتسبق لحظائر القدس بالطهارة من النقائص وهو مقام القرب من الرب .

قوله : « فتصير لشرفها وقوتها من المدبرات » : يحتمل أم المراد بالمدبرات : الملائكة ، وأن النفوس بعد الاستكمال ومفارقة البدن ودخولها في الحظائر المقدسة تلتحق بالملائكة ، ولذا أَلِفَتْ المقام الأعلى وصلحت للخلود .

أو : هو صفة للنفوس المفارقة العالية ، فإنها بقوتها وشرفها تصلح للوصف بأنها مدبرة كما قال الإمام[1]: أنها بعد المفارقة قد يظهر لها آثار وأحوال في هذا العالم ، فقد يرى المرء أستاذه بعد موته فيرشده لما يهمه !!

وقد نقل عن جالينوس : أنه مرض مرضاً عجز عن علاجه الحكماء ، فوصف له في منامه علاجه ، فأفاق وفعله ، فأفاق . وقد ذكره الغزالي ، ولذا قيل : « إذا تحيرتم في الأمور فاستعينوا من أصحاب القبور »[2] إلا أنه ليس بحديث كما توهم .

ولذا : اتفق الناس على زيارة مشاهد السلف والتوسل بهم إلى الله وإن أنكره بعض الملاحدة في عصرنا ، والمشتكى إليه هو الله »[3] .

---

(١) يعني به الإمام فخر الدين الرازي ﷺ والقول المحكى عنه بشواهده في تفسيره مفاتيح الغيب ٣٢/٣١ .

(٢)ذكره العجلوني في «كشف الخفا ٨٨/١» نشر دار التراث بالقاهرة ، وقال «كذا في الأربعين لابن كمال باشا »

(٣) الشهاب الخفاجي : عناية القاضي ٣١٣/٨ .

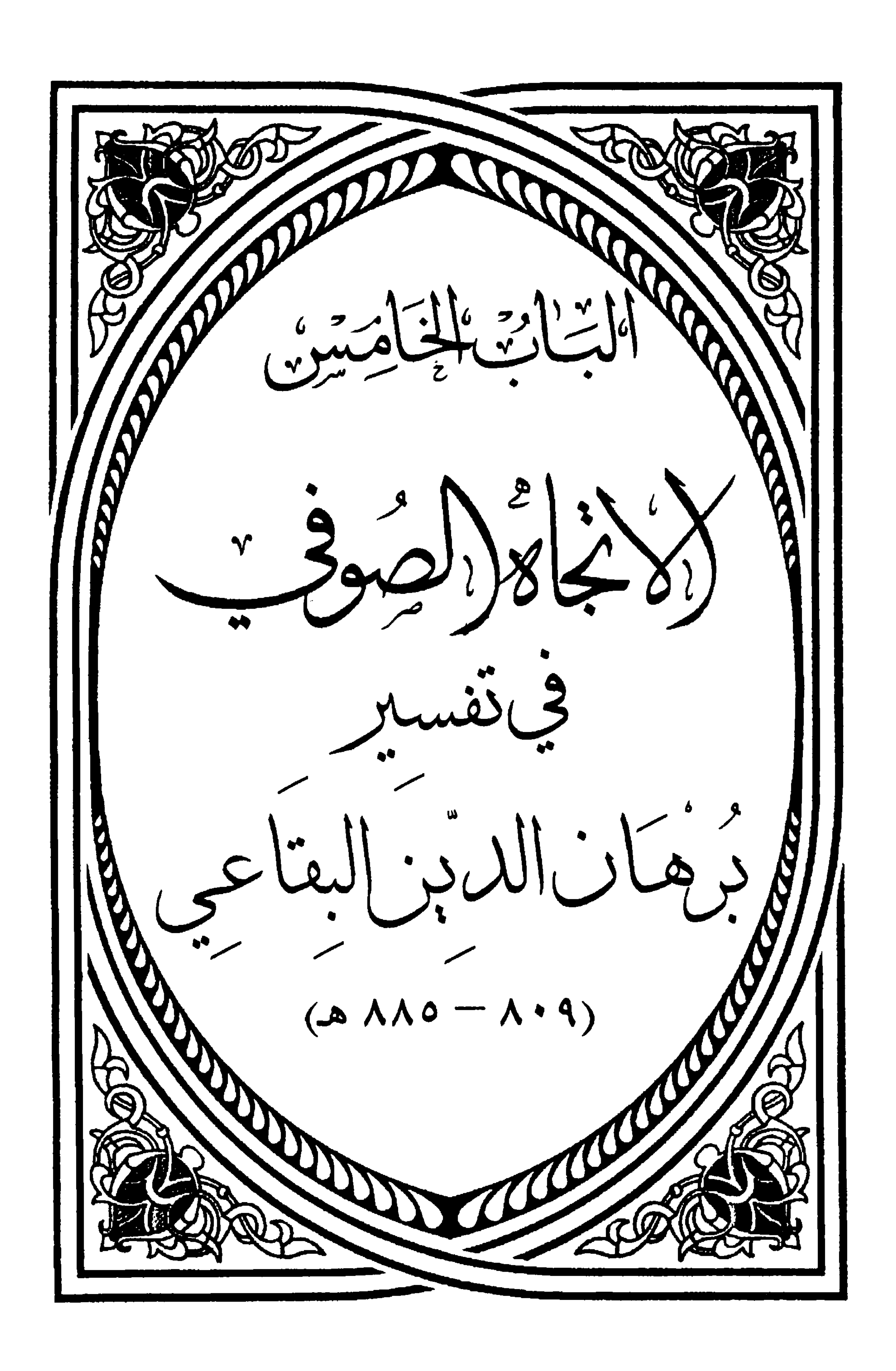
هذا هو منطق العلماء الراسخين الجامعين بين المعقول والمنقول وبين نور الكشف والشهود ، يشهد بحقيقة مشروعية التوسل والتبرك على أساس الفهم المستنير بكتاب الله ﷻ وهو المنطق الذي يرفضه من سماهم العلامة الشهاب «بعض الملاحدة » في عصره ، فليت شعري ماذا يقول الشهاب لو عاش في عصرنا ليرى التكفير والتشريك والتبديع لجمهرة الصوفية والمحبين لأولياء الله تعالى ؟؟ وماذا يكون مبلغ شكواه ؟

إننا نضع هذه المعالم الصوفية بشواهدها وحججها أمام من ينشدون الحق والرشد ، ويبتغون هدى الله في فهم كتابه وسنة رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم .

وإننا وقد تفيأنا ظلال هذين العلمين الشامخين – البيضاوي والشهاب – لم يكن قصدنا أن نعرف الحق بالرجال بل توخينا معرفة الحق بالحق ، وهذانه الكوكبان النيران هما من أعلام الحق بشهادة عدول علماء الأمة ، وهما من أدلاء الحق بدلالة أنوار تحققهما الساطعة من سطور تفسيرهما .

فاللهم أرنا الحق دائما حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل دائما باطلا وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك ومن ورثة نبيك ورسولك وحبيبك الأعظم سيدنا محمد ﷺ في الدنيا ويوم الدين.

اللهم آمين يارب العالمين



الباب الخامس

الاتجاه الصوفي في تفسير برهان الدين البقاعي

(٨٠٩ - ٨٨٥ هـ)

مباحث هذا الباب

- تمهيد
- جوانب في شخصية البقاعي .
- مولده ونشأته .
- شيوخه في فروع العلم .
- مكانته العلمية وآثاره ومصنفاته .
- تفسير البقاعي وقيمته العلمية .
- تصوف البقاعي وموقفه من أئمة الصوفية .
- المعالم الصوفية في تفسير البقاعي

المعلم الأول : جمعه من الظاهر والباطن في تفسير .

المعلم الثاني : في الحقيقة المحمدية .

المعلم الثالث : في الولاية والأولياء .

المعلم الرابع : في الشريعة والطريقة والحقيقة والعلم اللدني .

المعلم الخامس : في الأحوال والمقامات والتوسل والتبرك .

تمهيد

في ذرى الشموخ العرفاني تربع أهل التدبر لأسرار التنزيل الحكيم ممن صفت قلوبهم من أكدار التعلقات الكونية وطهرت نفوسهم من أدرانها الطبيعية، وشفت أرواحهم فتجلت أبكار الحقائق في مراياها القدسية ففقهت عن الله تعالى معاني كلامه وبواطن أسراره التي لا منتهى لبحارها ، ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [1] .

ولقد أكد أهل الرسوخ والتحقيق : أن من لم يطهر قلبه بماء الصفاء والنقاء ويبرأ من حب الدنيا وهوى النفس – أي بالسلوك الصوفي الحقيقي – فإنه بمعزل عن الوقوف على حقيقة أسرار كتاب الله ﷻ وتدبر معانيه حق التدبر .

يقول الإمام ابن عجيبة الحسنى في تفسير قوله تعالى﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[2]

« .. « الإشارة » : تدبر القرآن على حسب صفاء الجنان ، فبقدر ما يتطهر القلب من حب الدنيا والهوى ، تتجلى فيه أسرار كلام المولى ، وبقدر ما يتراكم في مرآة قلبه من صور الأكوان ، ينحجب عن أسرار معاني القرآن ولو كان من أكابر علماء اللسان ، فلما كان القرآن هو دواء لمرض القلوب أمر

---

(١) سورة لقمان الآية /٢٧ .

(٢) سورة النساء الآية /٨٢ .

الله المنافقين[1] بالتدبر في معانيه لعل ذلك المرض ينقلع من قلوبهم ، لكن الأقفال[2] التي على القلوب منعت القلوب من فهم كلام علام الغيوب !!

فحلاوة كلام الله لا يذوقها إلا أهل التجريد الخائضون في تيار بحار التوحيد الذين صفت قلوبهم من الأغيار ، وتطهرت من الأكدار ، يتمتعون أولا بحلاوة الكلام ، ثم يتمتعون ثانياً بحلاوة شهود المتكلم ، والله تعالى أعلم »[3] .

من ثم : سرى الاتجاه الصوفي بإشراقه ونورانيته في نتاج هؤلاء الأساطين من أئمة أهل التفسير والتأويل الذين نفذت أضواء التنزيل إلى مرايا قلوبهم بعد انقشاع الحجب عنها – على تفاوت مراتبهم في التصفية والتخلية – لتنعكس في صفحات تفاسيرهم

ومفسرنا الذي نحن بصدد رصد اتجاهه الصوفي في تفسيره الآن : هو الإمام العلامة برهان الدين أبو الحسن : إبراهيم بن عمر البقاعي الخرباوي الشافعي نزيل مصر .

ولد رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى بقرية « خربة روحا » بوادي البقاع من أرض لبنان – في التقسيم الحديث – ومن الأراضي السورية قديما . وكان مولده سنة ٨٠٩هـ كما أخبر بذلك في كتابه : « مصاعد النظر »[4].

---

(١) المراد بهم المنافقون الذين ذكر الله تعالى أحوالهم فيما سبق من قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ – النساء /٨١ .

(٢) هي المذكورة في قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ سورة « محمد » ﷺ /٢٤.

(٣) الإمام أحمد بن عجيبة الحسني : البحر المديد في تفسير القرآن المجيد من الرسالة المخطوطة للباحث أحمد عبد السلام أبو الفضل « بإشرافنا » ص /١٥٩

(٤) البقاعي : مصاعد النظر في الإشراف على مقاصد السور بتحقيق د. عبد السميع حسنين ٢/٤٥٤ .

وقد نشأ البقاعي في أسرة كبيرة يقال لها « بنو حسن » ودرج في سهل البقاع الخصيب في ظل أبوين فقيرين ، وتعلم القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة على عمه « أحمد بن حسن الرباط » - الذي كان من أهل القرآن والعلم . بيد أن أسرته الوادعة قد منيت بكارثة مروعة وهو في الثانية عشرة من عمره ، إذ هجم عليها جماعة يقال لهم « بنو مزاحم » فقتلوا منهم تسعة أنفس منهم والده وعماه ، وضرب هو بالسيف ثلاث ضربات إحداها في رأسه ونجا من الموت بفضل الله تعالى . حيث استمرت هذه الواقعة ثلاثين عاما وقتل فيها نحو ألف شخص .

وعلى أثر هذه الحادثة انتقل مع جده « أبو علي بن محمد السليمي » إلى دمشق ، فجود بها القرآن الكريم وجدد حفظه وأفرد القراءات وجمعها على بعض المشايخ .

وأخذ البقاعي ينهل من ينابيع العلم الدفاقة في عصره على أيدي الأساطين من الشيوخ في مختلف جوانبه وفروعه .

ففي علم القراءات : تلقى عن الإمام الحافظ شمس الدين محمد بن الجزري لما عاد إلى دمشق سنة سبع وعشرين وثمانمائة هـ .

وفي علم الحديث الشريف : أخذ عن صفوة من أعلامه على رأسهم شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر العسقلاني حيث شد رحاله إلى القاهرة سنة أربع وثلاثين وثمانمائة هـ - بعد ارتحال من دمشق إلى القدس – ولازم الحافظ ابن حجر وكتب عنه ، وله ، وقد عده الحافظ من كبار أتباعه ووصفه بالعلامة كما أثنى على مؤلفاته . وتتلمذ في الحديث أيضاً على الحافظ ابن الفرات وابن الصفدي[1] .

---

١) انظر : الضوء اللامع للسخاوي ١/١١٠ ، ٧/٧٨ وعنوان الزمان في تاريخ الشيوخ والأقران للبقاعي =

وكذلك أخذ في علم الفقه : عن نخبة من الأئمة منهم ابن قاضي شهبة وتاج الدين بن بهادر الجلالي والإمام شرف الدين السبكي وغيرهم(١) .

كما درس علوم النحو والأدب والشعر على التاج بن بهادر ومحمد بن زين الدين النحريزي وغيرهم(٢) .

وقد ذكر المترجمون للبقاعي أنه كانت له رحلات كثيرة لطلب العلم والسماع والتلقي عن الشيوخ في البلاد والأمصار كالحجاز والشام ومصر وغيرها ، وكذلك كانت له مشاركة في الحروب التي عاصرها كحرب المماليك مع الصليبيين حيث نازل الأعداء في غزوة «رودس» و « قبرص »(٣) وكان من المرابطين في « دمياط » . وغيرها ، وقد فاخر بفروسيته وجهاده وبوراثته في ذلك لآبائه وأجداده حيث قال :

أنا بنو حسن والناس تعرفنا

وقت النزال وأسد الحرب في حنق

كم جئت قفرا ولم يسلك به بشر

غيري ولا آنس إلا السيف في عنقي(٤)

وهكذا كان البقاعي أنموذجا للعلماء المعايشين لقضايا أمتهم مناضلين

٢٠٧/٤ « مخطوط مصور بدار الكتب رقم (١٠٠١) » ومقدمة مصاعد النظر للبقاعي بتحقيق د/ عبد السميع حسنين « بإشرافنا » ٣٦/١ ومقدمة : نظم الدرر للبقاعي تحقيق ودراسة عبد الرحمن محمد عويس « جزء المجادلة » ص ٦ . وشذرات الذهب لابن العماد ٣٤/٧ .

(١) انظر : عنوان الزمان للبقاعي ١٧٢/١ ، ٤٦٦/٣ ، ٧٢٧/٤ ومقدمة نظم الدرر « تحقيق ودراسة سورة المجادلة للباحث عبد الرحمن عويس ص ٦ » .

(٢) د. محمد أحمد يوسف القاسم : الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن وسوره ص ٧١ والمصدر السابق .

(٣) انظر : كشف الظنون لحاجي خليفة ٨٦/١ .

(٤) انظر: الضوء اللامع للسخاوي ١١١/١ ومقدمة مصاعد النظر بتحقيق د/عبد السميع حسنين ٣٩/١ .

عن دينهم ووطنهم ومزاوجين بين العلم والجهاد الذي هو شرف الأعمال فعاش حياة حافلة حتى توفاه الله تعالى سنة خمس وثمانين وثمانمائة هـ رَحِمَهُ اللَّهُ رحمة واسعة .

مكانته العلمية وآثاره ومصنفاته :

لقد ارتقى البرهان البقاعي إلى قمة شامخة في العلم والمعرفة أشاد بها المؤرخون والعلماء في ترجمته ، كما نطقت بها تصانيفه ومؤلفاته .

فها هو ذا المؤرخ الفقيه الأديب ابن العماد الحنبلي ، يقول عنه في خاتمة ترجمة : « وبالجملة : فقد كان من أعاجيب الدهر وحسناته »[1] !!

وقد أتبع صاحب « معجم المؤلفين » في ترجمته ذكر اسمه ونسبه ومذهبه وموطنه بخمس صفات علمية ، إذ قال : « إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط الخرباوي البقاعي الشافعي نزيل القاهرة ثم دمشق : عالم ، أديب ، مفسر ، محدث ، ومؤرخ »[2] .

فالإمام البقاعي عالم موسوعي ، قرأ وحصل العلم في كل فن تراءى لناظريه ، ومن ثم : تنوعت تصانيفه ومؤلفاته في مختلف الجوانب ، وقد ذكر الدكتور صلاح الدين المنجد أنه يوجد في « ليدن » بألمانيا فهرست لمصنفات البقاعي بخط أحمد بن خليل اللبودي برقم (٢٤٨٣). ولم يرد في التراجم حصر مؤلفاته ، لكن ورد في بعض البحوث والرسائل الجامعية إثبات لتصانيفه بلغ عددها تسعة وأربعين مصنفا لا على وجه الحصر بل هذا مبلغ ما ناله البحث[3] .

---

(١) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ٣٤٠/٧ .

(٢) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ٧١/١ .

(٣) انظر : مقدمة كتاب مصاعد النظر للبقاعي للدكتور عبد السميع حسنين ٦٢/١ .

ففي علم العقيدة – مثلا – نجد من تصانيف البقاعي : كتاب « خير الزاد من كتاب الاعتقاد » وهو منتقى من كتاب « الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد » للإمام البيهقي بعد أن قرأه على الإمام ابن حجر[1] .

كما نجد له كتاب « أحسن الكلام المنتقى من ذم الكلام » وهو منتقى من كتاب « ذم الكلام للإمام أبي عبد الله الأنصاري ﷺ . وله أيضاً : « النكت والفوائد » وهو شرح العقائد للإمام التفتازاني وكتاب « دلائل البرهان لمنصفي الإخوان على طريق الإيمان » .

وفي مجال التفسير والقراءات وعلوم القرآن الكريم : نجد له تفسيره الفريد « نظم الدرر في تناسب الآيات والسور » وقد طبع مؤخرا بالهند في اثنين وعشرين مجلداً ، وهو مجال هذا البحث .

كما نجد له أيضاً « مصاعد النظر في الإشراف على مقاصد السور » وقد قام بتحقيقه والتقديم له والتعليق عليه الدكتور عبد السميع حسنين في رسالته للدكتوراه « بإشرافنا » .

وله أيضا : « كفاية القارئ في رواية أبي عمرو » في القراءات وكذا كتاب « ضوابط الإشارات إلى أجزاء علم القراءات » ويقع في تسعة أجزاء ، وهو فريد في بابه .

وفي علوم الحديث الشريف والسيرة النبوية : له كتاب « النكت الوفية بما في شرح الألفية » وهو شرح على ألفية الحافظ العراقي في علوم الحديث، وكتاب « جواهر البحار في نظم سيرة النبي المختار ﷺ » وهو أرجوزة في السيرة النبوية شرحها في مجلدين .

---

(١) انظر : كشف الظنون لحاجي خليفة ١٣٩٣/٢ .

وفي الفقه وأصوله : له كتاب « شرح جمع الجوامع » للسبكي وكتاب « الإيذان بفتح أسرار التشهد والأذان » وكتاب « الأقوال القويمة في حكم النقل من الكتب القديمة » .

وفي اللغة والنحو والأدب له كتاب « ما لا يستغنى عنه الإنسان من ملح اللسان » و « الإدراك لفن الاحتباك » و « إشعار الواعي بأشعار البقاعي » وهو ديوان شعره .

وفي المجال النقدي الصوفي : نجد للبقاعي كتابين خطيرين هما : « تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد » و « تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي » ، وقد رد الإمام الحافظ السيوطي ﷺ على الكتاب الأخير في كتابه « تنبيه الغبي في تنزيه ابن عربي » .

ثم في مجال التاريخ : نجد للبقاعي : « أخبار الجلاد في فتح البلاد » و« عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران » و « إظهار العصر لأسرار أهل العصر » ، وغير ذلك .

تلك طائفة من مؤلفات البقاعي أثبتناها على وجه التمثيل لا الحصر وهي لاشك تشهد بتبحره وغزارة علمه في شتى العلوم النقلية والعقلية ، بل إن له منظومة في علمي الحساب والمساحة نظمها وهو في الثامنة عشرة من عمره ثم شرحها في « كتاب الإباحة في شرح الباحة » .

تفسير البقاعي وقيمته العلمية :

يعد تفسير البقاعي المسمى « نظم الدرر في تناسب الآيات والسور » فتحا ربانيا في علم التفسير لم يسبق مؤلفه في بابه – فيما انتهى إليه علمنا – ولم يلحق أيضاً !! فهو بحر تتلاطم أمواجه وتزخر أعماقه بجواهر المعاني ودرر الأسرار ، ولقد صدق الشيخ البقاعي وأصاب كبد الحقيقة إذ قال في

وصفه في مقدمته :

« أما بعد : فهذا كتاب عجاب ، رفيع الجناب ، في فن ما رأيت من سبقني إليه ولا عول ثاقب فكره عليه ، أذكر فيه إن شاء الله مناسبات ترتيب السور والآيات أطلب فيه التدبر ، وأنعمت فيه التفكر لآيات الكتاب امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [1] ، واستنانا بما أشار إليه أمير المؤمنين على بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه فيما أخرجه البخاري – في الجهاد – وغيره عن أبي جحيفة قال : « قلت لعلى ﷺ : هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله ؟ قال . لا ، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهم يعطيه الله رجلا في القرآن وما في هذه الصحيفة ... » الحديث[2]... » [3].

إن البقاعي يشير في مقدمة تفسيره – بل يصرح – بأن الحق تعالى أتاه فهماً في القرآن وتدبراً وتفكراً لآياته بعد التعرض لنفحات الله ﷻ ، وأنه جمع فيه بين تفسير العلماء وبين الإلهام الرباني الذي عبر عنه بالتأييد السماوي وبرهن له برؤيا مبشرة كانت إرهاصا بما تحقق له من الفتح في هذا التفسير فيقول رحمه الله تعالى :

« فأمدني فيه – والحمد لله – تأييد سماوي ، فجعلته كالرديف لتفسير القاضي ناصر الدين البيضاوي ، ولعل تسهيله كان ببركة مبشرة من آثار النبوة رأيتها في صباي وأنا في حدود العاشرة من سني في قريتنا من بلاد البقاع : رأيت روح القدس جبريل المنزل لهذا الروح ، والمؤيد بروح القدس محمدا

(١) سورة (ص) الآية : ٢٩ .

(٢) انظر صحيح البخاري : باب كتابة العلم ٣٨/١ وكتاب الديات فيه أيضاً ١٤/٩-١٦ط الشعب .

(٣) برهان الدين البقاعي : نظم الدرر ٢/١ – ٣ ط دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة.

النبي المنزل عليه هذا الروح – صلى الله عليهما وسلم – في صورة شابين أمردين في أحسن صورة ، راكبين فرسين أخضرين في غاية الحسن ، متوجهين نحو المشرق !! فأيدني الله ببركتهما في تفسيره وتصنيفه بروح منه ، كما يشهده من طالعه وتدبره ، والله ولي التوفيق ، وسميته : « نظم الدرر في تناسب الآيات والسور » ويناسب أن يسمى : « فتح الرحمن في تناسب أجزاء القرآن » ، وأنسب الأسماء له « ترجمان القرآن ومبدي مناسبات الفرقان » »[1]

وأقول : حقا أن أنسب أسماء هذا الكتاب هو الأخير ، ووجه أنسبيته : أنه أعطى المسمى حقه في المطابقة ، لأن الاسمين الآخرين يشعران بقصر موضوع هذا الكتاب على المناسبات القرآنية بين الآيات والسور ، ولكنه تفسير للقرآن في المقام الأول ، ومظهر للمناسبات في المقام الثاني وإن كان تحرى المناسبات يسمى طابعا أصيلاً فيه ، فكان حريا أن يكون ترجمان القرآن في صدر تسميته ، للإيذان بحقيقته كتفسير ابتداء ، ثم يأتي عجز العنوان للدلالة على بلوغه الغاية القصوى في علم المناسبات .

وقد أصاب صاحب « كشف الظنون » إذ قال عن تفسير البقاعي بلسان الصدق : « وهو كتاب لم يسبق إليه أحد ، جمع فيه من أسرار القرآن ما تتحير منه العقول » [2] .

كما أجاد الدكتور محمد القاسم في وصفه إذ قال : « ومما لاشك فيه : أن كتاب « نظم الدرر » لم يؤلف كتاب قط مثله ولا قريبا منه ، مستقل بهذا الجانب من تفسير كتاب الله تعالى ، مستوعب آياته وسوره ، فإنه كتاب حافل ، دال على أن صاحبه من أوعية العلم المفرطين في الذكاء ، الجامعين بين علمي

---

(١) المصدر نفسه ١/٤ – ٥ .

(٢) حاجي خليفة : كشف الظنون ٢/١٩٦١ – ١٩٦٢.

المعقول والمنقول ..»[1] .

وقد ظل تفسير البقاعي قيد الخط منذ فرغ مؤلفه من تفسيره سنة خمس وسبعين وثمانمائة هـ حتى أذنت المشيئة الإلهية بطبعه بالهند بمعرفة دائرة المعارف العثمانية المرة الأولى سنة ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م في اثنين وعشرين مجلداً ، ثم طبع طبعته الثانية بدار الكتاب الإسلامي بالقاهرة سنة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م وهي مصورة على الطبعة الأولى .

وقد نهض قسم التفسير بكلية أصول الدين بالقاهرة باضطلاع باحثيه بتحقيق حظ وفير من تفسير البقاعي في الرسائل العلمية وتبعته الأقسام المماثلة في الكليات المناظرة ، ومنها قسم التفسير بكلية البنات الإسلامية بجامعة الأزهر بالقاهرة وقد شاركت بحمد الله تعالى في العديد من مناقشات هذه الرسائل – ماجستير ودكتوراه – مما أتاح لي الوقوف على فضل هذا التفسير الجليل الذي شهد بفضله أجلاء العلماء ، ومع ذلك – ولأجل ذلك أيضاً – لم يسلم الكتاب ومؤلفه من طعن من دب الحسد في قلوبهم من معاصري البقاعي من العلماء كالسخاوي الذي شن عليه غارته كما شنها على من لا يشك في فضله ورسوخه كالإمام السيوطي قدس الله سره ، وغيره من خيرة العلماء[2].

وخلاصة القول : أن تفسير الإمام البقاعي لا نظير له في بابه وطرازه ، وأنه موسوعة علمية حافلة بحصائل علوم اللغة والأدب والأصول والفقه

---

(١) د. محمد أحمد يوسف القاسم : الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره ص٨٥ .

(٢) أورد العلماء على السخاوي وقيعته في أقرانه من العلماء كالبقاعي والحافظ السيوطي وذموا صنيعه هذا حتى قال الشوكاني في ترجمته من كتاب البدر الطالع ١٨٧/٢ « وليت أن صاحب الترجمة – ويعني به السخاوي – صان ذلك الكتاب الفائق – أي الضوء اللامع – عن الوقيعة في أكابر العلماء من أقرانه » : وانظر : الإعجاز البياني للدكتور محمد القاسم ص ١٤٦ .

وزاخرة بنتاج المنقول والمعقول ، وقد حوت من المعارف الربانية والأسرار العرفانية ما يذهل الألباب !! وناهيك بسحر الأسلوب الذي تفرد به البقاعي وصاغ فرائد اللآلئ في عقد مناسبات التنزيل الحكيم .

تصوف البقاعي وموقفه من أئمة الصوفية :

إن إماماً حبرا في منزلة البقاعي له ثقله العلمي في ديوان علماء الأمة لابد أن يرصد موقفه من التصوف ورجاله بمنتهى الحيدة والتجرد ، وذلك لتعرف مدى إفادته من عطائه العلمي في استكناه الحقائق العرفانية ، ومدى ارتقائه في معارج القرب من الحق تبارك وتعالى ، وليس القصد على الإطلاق تزكية التصوف بالرجال ، عملا بالقول المأثور « لا تعرف الحق بالرجال بل اعرف الحق تعرف أهله » !!

وتبلغ أهمية تعرف حقيقة موقف البقاعي من التصوف وأهله ذروتها عندما تميل الأهواء ببعض المتعالمين الجائرين على التصوف ورجاله فيعمدون إلى تراث البقاعي لينتزعوا منه قضية جزئية تتعلق بموقفه من شيخين من أعلام الصوفية هما الشيخ محيي الدين بن عربي والشيخ عمر بن الفارض رضوان الله عليهما ، ويتخذونها ذريعة لضرب التصوف من أساسه مع أن موقف الرجل يختص بالشيخين حيث تناولهما البقاعي بالنقد في كتابيه : « تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي » و « تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الإتحاد » ، إذ راعه ما قرأه لهما في فصوص الحكم » للشيخ محيي الدين ، و « التائية الكبرى » للشيخ ابن الفارض من عبارات جرت على منهج مصطلحات القوم الصوفية توهم الاتحاد أو الحلول – وهما منهما براء – فلم يجنح البقاعي إلى تأويل هذه العبارات عن ظاهرها ، ولم يسلم للقوم بخصوصية أذواقهم ورمزياتهم فعمد إلى خصومتهما والطعن عليهما في الكتابين المذكورين إلى درجة التكفير ، وهو بلا شك جائر في ذلك . ولكن

البقاعي لم يتخذ موقف الطعن والإنكار على التصوف ذاته ، ولا على عامة رجاله ، وهذا ما ينبغي أن يكون معلوما وراسخا في الأذهان ، وهو ما صرح به في كتابه « تحذير العباد من أهل العناد » حيث قال :

« وإن قالوا : أنت تبغض الصوفية ، فقل هذه مباهته ، إنما أبغض من كفره من أجمعنا على أنهم صوفية ، مثل الجنيد ، وسرى ، وأبي يزيد ، وأبي سعيد الخراز ، والأستاذ أبي القاسم القشيري ، والشيخ عبد القادر الكيلاني ، والشيخ شهاب الدين عمر السهروردي - صاحب العوارف - فإن بعضهم قال : « طريقنا مشبك بالكتاب والسنة ، فمن خالفهما فليس منا ، وبعضهم جعل أثر عمر ﷺ أصلاً ، وبنى عليه طريقهم » ، وبعضهم قال : « من قال أن الشريعة خلاف الحقيقة فهو زنديق ، ومن قال أن المراد بمحبة الله تعالى ووصوله إليه غير كمال المتابعة للكتاب والسنة ، أو : بمحبة الله غير إكرامه بحسن الثواب فهو زنديق ، إلى غير ذلك مما حدوه فتعداه من عاديتمونا بسببهم » [1] »

إنه يصرح في هذا النص بأن الحكم عليه ببغض الصوفية مباهتة ، كما يصرح باتفاقه مع أئمة الصوفية المجمع عليهم كالإمام الجنيد ومن ذكر بعده ، وأن عداءه مقصور على من ارتآه في نظره متجاوزا ومتعديا لما اتفق عليه أئمة الصوفية من مطابقة الشريعة للحقيقة .

ولكن أعداء الصوفية قد تجاهلوا هذه الحقيقة ، بل اهتبلوا فرصة هجوم البقاعي على من توهم في كلامهما بدعة الحلول والاتحاد ، وهما الشيخان ابن عربي وابن الفارض فقام عبد الرحمن الوكيل - بتكليف من حامد الفقي - وضم كتابي البقاعي إلى بعض في كتاب وأطلق عليه اسم « مصرع التصوف »

---

(١) البقاعي : تحذير العباد من أهل العناد - المنشور تحت اسم مصرع التصوف بتحقيق عبد الرحمن الوكيل ص ٢٦٠ - ٢٦١ ط : السنة المحمدية .

وقدم له بمقدمة تقطر حقداً على التصوف وبغضاً لأولياء الله تعالى وتهكما بورثة حضرة النبي ﷺ غير عابئ بإنذار الله تعالى لمن عاداهم بقوله في الحديث القدسي : « من عادي لي وليا فقد آذنته بالحرب »[1] .

وإمعانا في العداء : عمد المحقق المذكور إلى كتابي البقاعي - المدمجين - فمزق أوصالهما ، ووضع لفقراتها عناوين مفتراة اجترها من وادي الأباطيل التي وسوس له بها شيطانه والبقاعي منها براء ، فمنها « الكون هو رب الصوفية » « الضال مهتد والكافر مؤمن » !! ، « الشرائع أوهام عند الصوفية » !! وهكذا تلبيس إبليس يكمن في قلوب خصوم الصفوة من أولياء الله تعالى .

ولكن الله تعالى يقيض للحق رجاله لتبديد ظلمة التلبيس ، فها هو ذا إمام راسخ من جبال العلم هو الحافظ ابن حجر الهيثمي ﷺ يجيب في « الفتاوى الحديثية عمن سأله عن حكم مطالعة كتب الشيخين ابن عربي وابن الفارض رضي الله عنهما بقوله :

« حكمهما : أنها جائزة مطالعة كتبهما ، بل مستحبة ، فكم اشتملت تلك الكتب على فائدة لا توجد في غيرها ، وعائدة لا تنقطع هواطل خيرها ، وعجيبة من عجائب الأسرار الإلهية التي لا ينتهي مدد خيرها ، وكم ترجمت عن مقام عجز عن الترجمة عنه من سواها ، وأظهرت من العبارة الوافية عن حال أعجز حال من عداها ، ورمزت من رموز لا يفهمها إلا العارفون ولا يحوم حول حومة حماها إلا الربانيون الذين هم بين بواطن الشريعة الغراء وأحكام ظواهرها على أكمل ما ينبغي جامعون ، فلذلك كانوا بفضل مؤلفيها معترفين ، وعلى ما فيها من الأخلاق والأحوال والمعارف والمقامات

---

(١) أخرجه الإمام البخاري عن سيدنا أبي هريرة ﷺ في كتاب الرقاق من صحيحه ٨٧/٤ ط حجازي .

والكمالات هم المعولون ، ولم لا ، وهذان الإمامان المذكوران في السؤال من أئمة السلوك والمعارف ، ومن الأخيار الذين منحهم الله غايات اللطائف ولطائف العوارف ..»[1] » .

كذلك قيض الله تعالى لكشف وجه الحقيقة في هذه القضية بعض العلماء المعاصرين حيث نشر بحث للدكتور محمد فوقي حجاج في مجلة كلية أصول الدين بالقاهرة – العدد الثاني – عنوانه « الشيخ البقاعي : ومدى خصومته للصوفية ومقدار موالاته لهم » أوضح فيه أن البقاعي لم يكن خصما للصوفية على الإطلاق على وجه العموم وإنما عنى بثورته في كتابيه – السابق ذكرهما – أدعياء التصوف عامة مع الهجوم على الشيخين ابن عربي وابن الفارض ، وقرر في نتائج البحث بالإضافة لما سبق : أن البقاعي كان مخطئا حينما نظم أدعياء التصوف وهذين العلمين – ابن عربي وابن الفارض – في سلك من النقد واحد ، وأنه لم يكن موفقا فيما مال إليه من عدم تأويل كلامهما المشكل[2] .

ولننظر في سيرة البقاعي الذاتية وتاريخه الشخصي لنتعرف حقيقة موقفه من التصوف على هدى وبصيرة ، لقد سجل في تفسيره لمحات من سيرته الذاتية صرح فيها بأنه كان يتبرك بآثار النبي ﷺ ، ويتضرع في أعتاب مسجد صلى فيه النبي ﷺ – مما يعده خصوم التصوف وثنية وشركاً .

يقول البقاعي عند تفسير قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا

---

(١) الإمام الحافظ أحمد بن حجر الهيثمي : الفتاوى الحديثية ص ٢٩٦ ، ط الحلبي الثانية .

(٢) انظر : مجلة كلية أصول الدين بالقاهرة : العدد الثاني بحث بعنوان الشيخ البقاعي ومدى خصومته للصوفية ومقدار موالاته لهم ص ١٦٧ – ١٨٠

﴿ يَشْعُرُونَ ﴾ الآية[1] .

« ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ ﴾ وهو واد بالطائف – كما نقله البغوي عن كعب – وهو الذي تميل إليه النفس ، فإنه معروف إلى الآن عندهم بهذا الاسم ، ويسمى أيضاً « نخب » وزن « كتف » .

وقد رأيته لما قصدت تلك الديار لرؤية مشاهدها ، والتطواف في معابدها ومعاهدها والتبرك بآثار الهادي في الانتهاء والمبادئ ، ووقفت بمسجد فيه قرب سدرة تسمى « الصادرة » مشهور عندهم أن النبي ﷺ صلى به ، وهذه السدرة مذكورة في غزوة الطائف من السيرة الشامية ، واقتصر في تسمية الوادي على « نخب » ، وأنشدت فيه يوم وقوفي ببابه ، وتضرعي في أعتابه :

مررت بوادي النمل يا صاح بكرة
فصحت وأجريت الدموع على خدي
ويممت منه موقف الهاشمي الذي
ملأ الأرض توحيداً يزيد على العد
وكم موقف أفرشته حر جبهتي
وأبديت في أرجائه ذلة العبد »[2]

إننا لنبصر في مرآة هذا النص حقيقة البقاعي الروحية وشفافيته الوجدانية وعاطفته المشبوبة في حب سيد الخليقة صلى الله عليه وآله وسلم والتبرك بالتراب الذي مس قدميه صلوات الله وسلامه عليه ، ومن يقلب صفحات تفسيره « نظم الدرر » ويمعن فيه النظر يتيقن من صوفية هذا الشيخ

(١) سورة النمل الآية /١٨ .

(٢) الإمام برهان الدين البقاعي : نظم الدرر ١٤٢/١٤ ط / الثانية دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة .

واستمداده من بحار علوم القوم وإذعانه لأصولهم وحقائقهم العرفانية والسلوكية ، اللهم إلا ما ند عن طوقه وعزب عن دائرة إدراكه من غوامض أسرار مرامي عبارات الشيخين الجليلين « ابن عربي وابن الفارض » فإن لهما شأوهما الشامخ في أرقى ذرى المعارف ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [1] ، ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ ﴾[2] .

وسنقف من خلال تعرف المعالم الصوفية الآتية على مدى تحقق الإمام البقاعي وسريان الاتجاه الصوفي – بأجلى صوره ومعانيه – في تفسيره :

معالم صوفية في تفسير البقاعي :

المعلم الأول : جمعه بين الظاهر والباطن في تفسيره .

لقد تميز تفسير البقاعي « نظم الدرر » بلغة خاصة تسمو به على عامة التفاسير التي تقتصر على تبيان المعنى الظاهر للنص القرآني ، وصرف الوكد إلى تحليل التراكيب وكشف المدلول اللغوي وتجلية المضمون التفسيري بالاستعانة بالمأثور .

فكانت عبقرية البقاعي أن يثرى عطاءه التأويلي بالمزاوجة بين التفسير الظاهر والتأويل الإشاري الباطن ، وأن يمزج بينهما بصياغة ساحرة تكاد من روعة أخذها أن لا تميز بين ما هو ظاهر وبين ما هو باطن ، حيث مرج البحرين فتدفقا في مجرى تفسيره لإحراز ما هو خليق بأن يعد – عند الراسخين ، تفسيراً . فنجد من أمثلة جمعه بين الظاهر والباطن في تفسيره – مثلاً – :

(أ) عند تفسير قوله تعالى ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى:

---

(١) سورة الأنعام /١٣٢ . (٢) سورة آل عمران /١٦٣ .

« قال الحرالي[1] : واليوم : مقدار ما يتم فيه أمر ظاهر – ثم قال – : و « يوم الدين » : هو يوم ظهور انفراد الحق بإمضاء المجازاة ، حيث تسقط دعوى المدعين ، وهو من أول يوم الحشر إلى الخلود فالأبد .

وهو – في الحقيقة – : من أول يوم نفوذ الجزاء عند مقارفة الذنب في باطن العامل إثر العمل إلى أشد انتهائه في ظاهره ، لأن الجزاء لا يتأخر عن الذنب ، وإنما يخفى لوقوعه في الباطن وتأخره عن معرفة ظهوره في الظاهر ، ولذلك يؤثر عنه عليه الصلاة والسلام : « أن العبد إذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء ..»[2] .

وأيضاً : فكل عقاب يقع في الدنيا على أيدي الخلق فإنما هو جزاء من الله وإن كان أصحاب الغفلة ينسبونه إلى العوائد كما قالوا ﴿ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾[3] ويضيفونه للمعتدين عليهم – بزعمهم – وإنما هو كما قال تعالى ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[4] »[5] .

---

(١) هو الشيخ العلامة : أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن بن أحمد بن إبراهيم التجيبي الحرالي – بتشديد اللام – نسبة إلى حرالة من أعمال مرسيه بالأندلس ، رحل إلى المشرق ثم قفل ثم رجع إلى المشرق وتوفي بحماه سنة ٦٣٠هـ وكان عالما متفننا ، صنف في التفسير « مفتاح الباب المقفل لفهم الكلام المنزل » . وجعله قوانين كقوانين أصول الفقه ، وهو من أبرز مصادر البقاعي (انظر ترجمته بشذرات الذهب ١١٩/٥) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ (أن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء) الحديث ، وقد خرجه النبهاني في الفتح الكبير ٣١٠/١ .

(٣) سورة الأعراف : بعض الآية الكريمة /٩٥ .

(٤) سورة الشورى : بعض الآية الكريمة /٣٠ .

(٥) البقاعي : نظم الدرر ٢٩/١ – ٣٠ .

(ب) وكذلك نجد البقاعي يثبت في تفسيره نقلا عن الحرالي – الذي هو من أوثق مصادره التفسيرية – يصرح فيه بظاهر الخطاب القرآني وباطنه ، وبأن لكل آية ظهرا وبطنا ، إذا يقول في مناسبة البسملة للفاتحة .

« وقال : استفتح أم القرآن بالبسملة لما كانت نسبتها من متلو المصحف والكتب الماضية نسبة أم القرآن من القرآن الكتاب الجامع للصحف والكتب ، لموضع طيها الأسباب كما تضمنت أم القرآن سر ظهور الأفعال بالعناية من الحميد المجيد في آية ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

هذا : في ظاهر الخطاب إلى ما وراء ذلك من باطنه، فإن لكل آية ظهرا وبطنا ، وليلتزمها الخلق في ابتداء أقوالهم وأفعالهم هكذا قال » [1] .

ولقد أصل البقاعي للظاهر والباطن في القرآن العظيم وتولى تبيانه بجلاء ثاقب في كتابه « مصاعد النظر » حيث ساق عدة أحاديث وآثار تدل عليهما ، منها ما رواه البغوي – في شرح السنة – عن على بن زيد عن الحسن البصري – مرسلا – أن النبي ﷺ قال « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حد ومطلع » ثم أتبعه بتخريجه فقال : « ورواه الطبراني – في الأوسط وأبو يعلى – ورجاله ثقات – والبزار »[2] .

ثم أورد العديد من روايات هذا الحديث التي تتعاضد لصحته كما أورد العديد من الآثار والنقول في شرح معانيه ومفرداته واختتمها بهذا التبيان الصوفي الرائع الذي نقله عن الولي الصوفي العارف السهروردي[3] فقال :

---

(١) البقاعي : نظم الدرر ١/ ٢٥ .

(٢) مصاعد النظر ١/ ٣٧٢ وقد علق المحقق عليه بقول الهيثمي في مجمع الزوائد (٧ / ١٥٢) « ورجال البزار أيضاً ثقات » . بين أنه – أي المحقق – ذكر أن ما خرجه البقاعي عن شرح السنة مرويا عن الحسن إنما هو من رواية الإمام ابن مسعود . أما رواية الحسن فهي عن أبي حاتم وأبي عبيد .

(٣) هو الشيخ الجليل قدوة أهل التوحيد وشيخ العارفين أبو حفص وأبو عبد الله عمر بن محمد بن عبد الله بن

« وقال الإمام شهاب الدين عمر بن محمد السهروردي في الباب الثاني من كتاب « عوراف المعارف » - بعد رواية أثر عبد الله بن مسعود - : هذا ، وهذا الكلام محرض لكل صاحب همة أن يصغي إلى موارد الكلام ، ويفهم دقائق معانيه ، وغامض أسراره من قلبه .

فللصوفي – بكمال الزهد في الدنيا ، وتجريد القلب عما سوى الله تعالى – مطلع من كل آية ، وله بكل مرة في التلاوة مطلع جديد ، وفهم عتيد ، وله بكل فهم عمل جديد .

ففهمهم يدعو إلى العمل ، وعملهم يجلب صفاء الفهم ودقيق النظر في معاني الخطاب ، فمن الفهم علم ، ومن العلم عمل ، والعلم والعمل يتناوبان فيه ، وهذا العمل آنفا إنما هو عمل القلوب ، غير عمل القالب ، وأعمال القلوب – للطفها وصقالتها – مشاكلى للعلوم لأنها نيات وطويات ، وتعلقات روحية ، وتأدبات قلبية ومسامرات سرية ، وكلما أتوا بعمل من هذه الأعمال رفع لهم علم من العلم ، واطلعوا على مطلع من فهم الآية جديد .

ويخالج سرى : أن يكون المطلع ليس بالوقوف بصفاء الفهم على دقيق المعنى وغامض السر في الآية ، ولكن المطلع : أن يطلع عند كل أية على شهود المتكلم بها ، لأنها مستودع وصف من أوصافه ونعت من نعوته ، فتجَدد له التجليات بتلاوة الآيات وسماعها ، ويصير له مراء منبئة عن عظيم الجلال .

ولقد نقل عن جعفر الصادق – رضي الله تعالى عنه – أنه قال : « لقد تجلى الله تعالى لعباده في كلامه ولكن لا يبصرون » !! فيكون لكل آية مطلع

محمد التيمي البكري الصوفي الشافعي المتوفى سنة ٦٣٢هـ قال ابن العماد في ترجمته بشذرات الذهب ١٠٣/٥ « وانتهت إليه تربية المريدين وتسليك العباد ومشيخة العراق ، قال الذهبي : لم يخلف بعده مثله » ومن أروع مصنفاته (عوارف المعارف) في بيان طريق القوم .

من هذا الوجه .

فالحد : حد الكلام . والمطلع : الترقي عن الكلام إلى شهود المتكلم . وقد نقل عن جعفر الصادق أيضاً أنه خر مغشيا عليه وهو في الصلاة ، فسئل عن ذلك فقال : مازلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها !!

فالصوفي لما لاح له نور ناصية التوحيد ، وألقى سمعه عن سماع الوعد والوعيد ، وقلبه بالتخلص عما سوى الله تعالى ، صار بين يدي الله حاضراً شهيداً يرى لسانه – أو لسان غيره – في التلاوة كشجرة موسى عليه السلام ، حيث أسمعه الله منها خطابه إياه بأني « أنا الله » فإذا كان سماعه من الله تعالى واستماعه إلى الله ، صار سمعه بصره ، وبصره سمعه ، وعلمه عمله ، وعمله علمه ، وعاد آخره أوله ، وأوله آخره .

ومعنى ذلك : أن الله تعالى خاطب الذر بقوله ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾[1] ؟؟ فسمعت النداء على غاية الصفاء ، ثم لم تزل الذرات تتقلب في الأصلاب وتنتقل إلى الأرحام ، قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾[2] . يعني : تقلب ذرتك في أصلاب أهل السجود من آبائك الأنبياء ، فمازالت تنتقل الذرات حتى برزت إلى أجسادها ، فاحتجبت بالحكمة عن القدرة ، وبعالم الشهادة عن عالم الغيب ، وتراكم ظلماتها بالتقلب في الأطوار .

فإذا أراد الله تعالى بالعبد حسن الاستماع بأن يصيره صوفياً صافياً ، لا يزال يرقيه في رتب التزكية والتحلية ، حتى يخلص من مضيق عالم الحكمة

---

(١) سورة الأعراف الآية /١٧٢ .

(٢) سورة الشعراء : الآيتان /٢١٨ – ٢١٩

إلى فضاء القدرة ويزال عن بصيرته النافذة سجف الحكمة ، فيصير سماعه بـ ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ كشفاً وعياناً ، وتوحيده وعرفانه تبياناً وبرهاناً ، وتندرج له ظُلَم الأطوار في لوامع الأنوار . انتهى »[1] .

لقد آثرت إثبات هذا النقل – على طوله – لعظم مفاده وثرائه بأروع المفاهيم العرفانية المتعلقة بالظاهر والباطن في الخطاب القرآني ، ولعظمة تجسيده لصوفية البقاعي ، وإيمانه العميق بمعارف الصوفية ، حيث نقل هذا النص برمته عن الإمام السهروردي في الظاهر والباطن .

ومما يجدر التنويه به : أن الباطن عند الصوفية مغاير تماماً للباطن الذي تنسب إليه الشيعة الباطنية ، والذي يعد مروقاً وإلحاداً ، لمنافاته لظواهر النصوص الشرعية . أما « باطن » الصوفية : فإنه لا يتعارض إطلاقاً مع الظواهر المرادة ، بل إن له من الشواهد الشرعية ما يؤيده ، ومن الدلالة اللغوية ما يوجهه ، ومن إدراك العقل السليم ما يؤازره .

المعلم الثاني : في الحقيقة المحمدية :

تتجلى صوفية البقاعي في تفسيره – في أوج ارتقائها وذروة تحققها – وهو يتحدث عن الحقيقة المحمدية في مواضع كثيرة يتطرق فيها إلى جوانب عديدة من عظمة الذات المحمدية ويجسد استجماعها لمجامع الكمال المفاض على عوالم الوجود . وهذه نماذج نستجلي من خلالها رؤيته للحقيقة المحمدية في تفسيره من المنظور الصوفي :

(أ) عند تفسير قوله تعالى : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ

---

(١) انظر : مصاعد النظر للبقاعي بتحقيق د/ عبد السميع حسنين : ١/٣٧٦ – ٣٧٨ وانظر عوارف المعارف للإمام السهروردي : ١/ ١٦٤ – ١٦٦ ط / دار الكتب الحديثة .

﴿ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾[1] يربط البقاعي في تفسيره بين التقوى وبين الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة والإنفاق من الرزق ربطا رائعاً يستنبط من خلاله مقومات الخلافة عن الله تعالى التي عقدت لأبينا آدم عليه السلام واكتملت بأعلى مراتبها في سيدنا محمد ﷺ : يقول رحمه الله تعالى : « وهذا الأمر بتمامه هو الذي جعلت الخلافة لآدم به إلى ما وراء ذلك من كمال أمر الله أكمله بمحمد ﷺ ، فالتقوى : قلب باطن ، والإنفاق : وجه ظاهر[2] ، والإيمان فالصلاة : وصلة بينهما . ووجه ترتب الإيمان بالغيب على التقوى : أن المتقي لما كان متوقفا غير متمسك بأمر كان إذا أرشد إلى غيب لا يعلمه لم يدفعه بمقتضى ما تقدم له علمه ، ووجه ترتب الإنفاق على الإيمان بالغيب : أن المدد غيب ، لأن الإنسان لما كان لا يطلع على جميع رزقه كان رزقه غيبا ، فإذا أيقن بالخلف جاد بالعطية ، فمتى أمد بالأرزاق تمت خلافته وعظم فيها سلطانه وانفتح له باب إمداد [3]برزق أعلى وأكمل من الأول ، فإذا أحسن الخلافة فيه بالإنفاق منه أيضا انفتح له باب إلى أعلى إلى أن ينتهي إلى حيث ليس وراءه مرأى ، وذلك هو الكمال المحمدي »[4] .

(ب) وفي تفسير البقاعي للفاتحة : تناول – بلغة أهل التحقيق والعرفان – علاقة الذات المحمدية بالقرآن ، في تنظير رائع بين جامعية الفاتحة للسبع

---

(١) سورة البقرة : ختام الآية الثانية ، والآية الثالثة .

(٢) يلاحظ هنا : مقابلة الظاهر للباطن ، حيث تمثل المزاوجة بينهما طابعا رئيسا في معالجات البقاعي الصوفية .

(٣) وهنا يلاحظ استعمال لفظ (الإمداد) ومن قبله (المدد) وهما من لغة الصوفية في التعبير عن العطاء والإعطاء (تسببا) والله تعالى هو الممد على الحقيقة (خلقا) ومن ثم لا اشتراك في طلب المدد ممن أمده الله تعالى بالعطاء : ﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ .

(٤) البرهان البقاعي : نظم الدرر : ١/ ٨٥ – ٨٦ .

المثاني الجامعة لمقاصد التنزيل وبين جمع القرآن في قلبه الشريف ﷺ بما انتهى به إلى تقرير كونه ﷺ هو الصورة العلمية والمجلى الظاهر لباطن التنزيل الحكيم ، فيقول عليه الرضوان : « وأما الجمع : ففي قلبه نسبة جوامعه السبع في أم القرآن إلى القرآن بمنزلة نسبة جمعه في قلبه لمحاً واحداً إلى « أم القرآن » ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴾[1] فهو جمع في قلبه ، وقرآن على لسانه ، وبيان في أخلاقه وأفعاله ، وجملة في صدره وتنزيل في تلاوته ، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾[2] قال الله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ - أي ذلك أنزلناه إلى ما هو منك بمنزلة سماء الدنيا من الكون ، ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾[3] أي : إلى سماء الدنيا ، ﴿ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[4] على لسانه في أمد أيام النبوة .

وقال [أي الحرالي] في تفسيره : القرآن باطن ، وظاهره محمد ﷺ ، قالت عائشة – رضي الله عنها – « كان خلقه القرآن »[5] ، فمحمد ﷺ صورة باطن سور القرآن ، فالقرآن باطنه وهو ظاهره ، ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾[6] »[7] .

(ج) ونجد البقاعي في تفسير قوله تعالى ﴿ يسٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[8] يصرح بجملة من الحقائق العرفانية التي يذعن لها ويؤمن

---

(١) سورة القمر الآية /٥٠ .
(٢) سورة الفرقان /٣٢ .
(٣) سورة الدخان /٣ .
(٤) سورة الإسراء /١٠٦ .
(٥) أخرجه الأئمة أحمد ومسلم وأبو داود ، وانظر تخريجه في الفتح الكبير للنبهاني ٣٦٦/٢ ط/ الحلبي .
(٦) سورة الشعراء /١٩٣ وبعض الآية /١٩٤ .
(٧) البقاعي : نظم الدرر ٥٢/١ .
(٨) سورة (يس) : ١– ٣ .

بها السادة الصوفية للذات المحمدية ومنها : أولية خلق النبي ﷺ ، وكونه صلوات الله وسلامه عليه : نوراً ، وأن المرسلين والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين خلقوا جميعاً من نوره ﷺ ، وأنه صلوات الله وسلامه عليه وإن كان منهم ظاهراً إلا أنهم – على الحقيقة – منه باطناً . فقال عليه الرضوان : « ولما كان الأنبياء – عليهم السلام – من نوره ﷺ ، لأنه أولهم خلقاً وآخرهم بعثاً[1] . فكانوا في الحقيقة إنما هم ممهدون لشرعه ، وكان سبحانه إنما أرسله ليتمم مكارم الأخلاق ، وكان قد جعل سبحانه من المكارم أن لا يكلم الناس إلا بما تسع عقولهم ، وكانت عدة المرسلين – كما في حديث أبي أمامة الباهلي عن أبي ذر رضي الله عنهما عند أحمد في المسند – ثلاثمائة وخمسة عشر ، وفيه : أن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، وهو في الطبراني الكبير : عن أبي أمامة ﷺ : أن رجلاً سأل النبي ﷺ ، فذكر عدد الرسل فقط ، وكانت عقول العرب لا تسع بوجه قبل الإيمان أنهم منه أقسم سبحانه ظاهراً أنه منهم ، ورمز للأصفياء باطناً إلى أنهم منه ، بجعلهم عدد أسماء حروف اسمه « محمد » ﷺ ، الذي رمز إليه بالحرفين أول السورة فكأنه قال : إنك يا ياسين – الذي تأويله محمد – الذي عدد أسماء حروفه بعددهم لأصلهم[2] ، فصار

---

(١) أخرج الحافظ السيوطي في الجامع الكبير ١/٦٣٠ حديثاً بهذا المعنى من طريقتين :
أحدهما: برواية ابن سعد عن قتادة مرسلا بلفظ : (كنت أول الناس في الخلق وآخرهم في البعث).
والثاني : برواية ابن لال عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعا بلفظ (كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث) .

(٢) هنا نجد البقاعي في استنباطه أن المرسلين – وإن صرح التنزيل ظاهراً بأن سيدنا محمداً ﷺ منهم – هم في الحقيقة باطناً منه : قد اعتمد في ذلك على الدلالة الرمزية لموافقة عدد حروف « محمد » بعد بسطها إلى ميم وحاء وميم وميم – للتشديد – ودال ومجموعها بحساب الجمل ٣١٥ وهو يساوي عدد المرسلين كما ورد في الحديث الشريف ، كما أن مجموع عدد حروف (يس) بعد بسطها إلى ياء وألف وألف – أي الهمزة – وسين وياء ونون ومجموعها العددي هكذا ١٣٣ عدد حروف محمد بدون بسط . بفك إدغام

رمزاً في رمز ، وكنزاً نفيسا داخل كنز ، وسراً من سر ، وبراً إلى بر ، وهو أحلى في منادمة الأحباب من صريح الخطاب »[1] .

من هذا النص يتضح لنا إيمان البقاعي بأن الذات المحمدية هي أصل نوراني خلق من نوره جميع المرسلين ، فهم منه باطناً على الحقيقة وإن كان منهم ظاهراً بدلالة المنطوق القرآني ، وأن الدلالة الرمزية الباطنية في القرآن حقيقة وجودية خوطب بها الصفوة الراسخون المتأهلون لتلقى ما تعجز عنه عقول العامة المغلقة قلوبهم والمحجوبة عقولهم عن فقه أسرار التنزيل .

المعلم الثالث : في الولاية والأولياء :

ونجد الشيخ البقاعي يتناول حقيقة الولاية لله ﷻ وصفات الأولياء في تفسيره لآيات الولاية بما يقطع بخصوصية هذا الطراز الأرفع من عباد الله بعد أنبيائه ورسله ، فمن ذلك :

(أ) عند تفسير قوله تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[2] يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى :

« ... ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ ﴾ : الذين يتولون بالطاعة من لا شيء أعز منه ولا أعظم ويتولاهم ﴿ لَا خَوْفٌ ﴾ أي ثابت عال ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : من شيء يستقبلهم ﴿ وَلَا هُمْ ﴾ أي بضمائرهم ﴿ يَحْزَنُونَ ﴾ أي يتجدد لهم حزن

الميمي الثانية فيه .

(١) البقاعي : نظم الدرر ١٦/٩٠ ومصاعد النظر ٢/٣٩٦ – ٣٩٧ .

(٢) سورة يونس / ٦٢ – ٦٤ .

على فائت ، لأن قلوبهم معلقة بالله سبحانه فلا يؤثر فيهم - لذلك - خوف ولا حزن أثرا يقطع قلوبهم كما يعرض لغيرهم.

وفسرهم بقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي أوجدوا هذا الوصف المصحح للأعمال ، وبه كمال القوة العلمية " وكانوا " أي كونا صار لهم جبلة وخُلقًا ، "يتقون " أي يوجدون التقوى ، وهي كمال القوة العملية في الإيمان والأعمال ويجددونها ، فإنه لا يقدر أحد أن يقدر الله حق قدره ... وهذا الذي فسر الله به الأولياء لا مزيد على حسنه . وعن على ﷺ : هم قوم صفر الوجوه من السهر ، عمش العيون من العبر خمص البطون من الخوى .

وقيل : الولي من لا يرائي ولا ينافق ، وما أقل صديق من هذا خلقه .

وصح عن الإمامين أبي حنيفة والشافعي - كما نقل ذلك عنهما الشيخ محيي الدين النووي في مقدمة شرح المهذب والتبيان - أن كلا منهما قال : إن لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي !! وهذا في العالم العامل بعلمه ، كما بينته عند قوله في سورة الزمر ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1] .

ولما نفى عنهم الخوف والحزن زادهم فقال [مبينا لتوليه لهم بعد أن شرح توليهم له] « لهم » أي خاصة « البشرى » أي الكاملة « في الحياة الدنيا » أي بأن دينهم يظهر وحالهم يشتهر ، وعدوهم يخذل ، وعمله لا يقبل [وبالرؤيا الصالحة] « وفي الآخرة » بأنهم السعداء ، وأعداؤهم الأشقياء ، وتتلقاهم الملائكة « هذا يومكم الذي كنتم توعدون » ... »[2] .

(١) سورة الزمر / ٩ .

(٢) البقاعي : نظم الدرر ١١/١٥٣ - ١٥٤ .

لقد أبان البقاعي في تفسيره لهذه الآيات الكريمات تعريف الأولياء ، وعلة انتفاء الخوف والحزن عنهم ، وأوضح تعريف التنزيل لهم المفيد لاستجماعهم كمال القوتين العلمية والعملية كما أورد تعريف سيدنا على كرم الله وجهه بأوصافهم ، وأتبعه بتعريف آخر لبعض العلماء ، ثم أوضح – بالتخصص – ما نقل عن الإمامين أبي حنيفة والشافعي رضي الله عنهما من أن الأولياء هم العلماء ، فخصهم بالعاملين بعلمهم ، وليسوا مطلق العلماء ، ثم ألمع إلى دلالة صيغة (فعيل) في لفظ الولي على كونه متوليا لطاعة الله – بمعنى فاعل – أو متولي من الله بالبشرى ، بمعنى المفعول . وجسد تخصيصهم بالبشرى الكاملة في الدنيا بظهور دينهم واشتهار حالهم وبخذلان عدوهم الذي ينكر عليهم طريقهم وعلومهم وأحوالهم وإنذاره بحبوط العمل . وأما بشراهم في الآخرة فبحصول السعادة الكبرى لهم والشقاء لأعدائهم ، وأيضاً بحفاوة الملائكة في استقبالهم .

تلك هي مفاهيم البقاعي – الذي يدعى الخصوم عداءه للمتصوف والأولياء – في حقائق الولاية ، فأين الثرى من الثريا ؟؟ .

(ب) وتناول البقاعي تربية الحق لأوليائه في التنزيل ، لجنابه ، والتنزل في أسباب صفاته وأفعاله ، وضرب الأمثال للتفكر المفضي إلى التذكر للتأهل للفناء في ذاته بعد خوض بحار المجاهدات ، والعروج بالمنازلات للتحقق بالمقامات ، فيقول – رحمه الله تعالى – عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] .

« ... « لعلهم يتفكرون » أي : لتكون حالهم عند من ينظرهم حال من يرجى تفكره في تلك الأمثال ، فينفعه ذلك إذا أداه التفكر إلى التذكر ، فرأى

---

(١) سورة الحشر الآية /٢١ .

تنبيه الرسول ﷺ له أن كل ما في القرآن من شيء ففيه مشاهد منه ، فتطابق له كتاب الخلق وكتاب الأمر ، فتخلى عن الشهوات البهيمية ، فنجا من الحظوظ النفسية ، فتحلى بالملابس الروحانية ، فصار بالمجاهدات والمنازلات إلى الصفات الملكية ، فكان أهلاً للمقامات القدسية في الجنان العلية .

ولما أعلى سبحانه أولياءه ، بأن فتح السورة بالإيمان بالغيب – وهو العزيز الحكيم – بعد التنزيه عن نقائص التعطيل وكل شائبة نقص ، وينزل لعباده في أسباب الصفات والأفعال إلى أن أوصلهم إلى محسوس الأمثال ، فتأهلوا للفناء في ذاته ، وما علا من صفاته الموجبة لخشيته ، رقاهم إلى التفكر في تفصيل ما افتتح به »[1] .

(ج) كما نجد البقاعي يعرض في تفسيره لبعض الصور والجوانب السلوكية لأئمة أهل البيت ومعادن الولاية العظمى رضوان الله عليهم أجمعين ويذكر بعض كراماتهم الخارقة العادة التي أثمرها خوضهم لفيافي الصبر وبحار المحبة ، فيوجه لهذه الخوارق ويؤصل لها من الهدى المحمدي الوضاء . فيقول عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾[2] .

« وروى في سبب نزول هذه الآية : أن عليا وابنيه وأمهما فاطمة رضي الله عنهم أجمعين : آثروا على أنفسهم ثلاثة أيام ، وأصبحوا الرابع يرتعشون ، فلما رآهم النبي ﷺ ساءه ذلك ، فأتاه جبريل بهذه السورة مهنئا له بها . ولا يستبعد الصبر على الجوع هذه المدة ، لأنه ربما كانت للنفس هيئة قوية من استغراق في محبة الله تعالى أو غير ذلك ، فهبطت إلى البدن ، فشغلت الطبيعة

(١) البقاعي : نظم الدرر ٢٨/ ٤٦٣ .

(٢) سورة الدهر ٨ – ٩ .

عن تحليل الأجزاء فلا يحصل الجوع كما أنا نشاهد الإنسان يبقى في المرض الحاد مدة من غير تناول شيء من الغذاء ولا يتأثر بدنه لذلك ، فلا بدع أن تقف الأفعال الطبيعية في حق بعض السالكين ، وهو أحد القولين في قول النبي ﷺ : « إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني »[1] ... »[2].

المعلم الرابع : في الشريعة والطريقة والحقيقة والعلم اللدني :

إن الذين لا يؤمنون بالتصوف ومفاهيمه وينكرون على الأولياء سلوكياتهم ومعارفهم ويزعمون أنها بدع مخالفة للكتاب والسنة – كما صنع ملفق « مصرع التصوف » ونظراؤه – لا يعترفون بالطريقة ولا بالحقيقة ، ويسخرون من العلم اللدني !! فماذا يفعلون إذ نباغتهم بتأصيل هذه الحقائق والمفاهيم من كتاب الله تعالى ، وباستنباط البقاعي – بالذات – لها في تفسيره ؟؟

لقد صرح برهان الدين البقاعي باشتمال الدين على مراتب الشريعة والطريقة ، والحقيقة ، وأبان حقائق هذه المراتب بأروع ما نطق به لسان الصوفية في صياغة نورانية ، كما نوه بحقيقة العلم اللدني متفقا تماما مع جمهرة العارفين الصوفية في تقريره وبيان كيفية الوصول إليه بطريق المكاشفة ونستجلي ذلك فيما يلي :

(أ) فيما يتعلق بالشريعة والطريقة والحقيقة : قال البقاعي عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد والشيخان عن سيدنا أنس بلفظ (أني لست مثلكم أني أبيت يطعمني ربي ويسقيني) . كذلك أخرجه البخاري عن الأئمة ابن عمر وأبي سعيد وأبي هريرة والسيدة عائشة رضي الله عنهم أجمعين . انظر التخريج في الفتح الكبير للنبهاني ١/٤٥٩ .

(٢) البقاعي : نظم الدرر ٢١/١٤٠ .

(٣) سورة يونس الآية /٥٧ .

« قال تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ ﴾ أي زاجر عظيم من التخلي عن كل ما يشغل القلب عن الله من المحظورات وغيرها من كل ما لا ينبغي وذلك هو الشريعة » .

ولما كان تناول المؤذي شديد الخطر ، وهو لذيذ إلى النفس لما بينهما من ملاءمة النقص ، وكان الانكفاف عنه أشق شيء عليها رغبها في القبول بقوله ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أي المحسن إليكم ، المدبر لمصالحكم بهذا القرآن .

ولما كان أليق ما يعمل بعد الحمية تعاطي الدواء المزيل للأخلاط الفاسدة من الباطن ، قال : ﴿ وَشِفَآءٌ ﴾ أي عظيم جداً ﴿ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ من أدواء الجهل ، وذلك الشفاء يحصل بتطهير الباطن سالما عن العقائد الفاسدة ، والأخلاق الناقصة كما سلم البدن من الأفعال الدنية ، وهذا هو الطريق . [وفي أصل المخطوطة : وهذا هو الطريقة] .

ولما كانت الروح إذا انصقلت مرآتها فصارت قابلة لتجلي الأنوار عليها بفيض البروق الإلهية والنفحات القدسية ، والمواهب الملكوتية ، لأنها دائمة اللمعان كما قال ﷺ فيما رواه الطبراني عن محمد بن مسلمة ﷺ : « إن لربكم أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها ... » الحديث ، وليس المانع من نزولها في كل قلب إلا عدم القابلية من بعضها ، لتراكم الظلمات فيها من صدأ المخالفة ورين الإعراض والغفلة فيكون بذلك كالمرايا الصدئة ، لا تقبل انطباع الصور بها : قال تعالى ﴿ وَهُدًى ﴾ : إلى الحق ، لأنه نور عظيم يقود صاحبه – ولابد – إلى الطريق الأقوم ، وهذا للصديقين ، وهو الحقيقة »[1] .

(ب) وفيما يتعلق بالعلم اللدني الذي يناله أهل القرب من الله تعالى من

---

(١) البقاعي : نظم الدرر ٩/١٤٥ .

أنبيائه وأوليائه : بين البقاعي حقيقته وكيفية حصوله ومفهومه عند السادة الصوفية وذلك عند تفسير قوله تعالى ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾[1] حيث قال :

« ... ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا ﴾ أي : من الأمور المستبطنة المستغربة التي عندنا مما لم يحدث عن الأسباب المعتادات ، فهو مستغرب عند أهل الاصطفاء « علما » : قذفناه في قلبه بغير واسطة ، قال الأستاذ أبو الحسن الحرالي : ﴿ عِند ﴾ في لسان العرب : لما ظهر ، و ﴿ لَّدُنَّا ﴾ : لما بطن ، فيكون المراد بالرحمة ما ظهر من كراماته ، وبالعلم الباطن الخفي المعلوم قطعا أنه خاص بحضرته سبحانه ، فأهل التصوف سموا العلم بطريق المكاشفة العلم اللدني . فإذا سعى العبد في الرياضات يتزين الظاهر بالعبادة ، وتتخلى النفس عن الأخلاق الرزيلة ، وتتحلى بالأخلاق الجميلة ، وتصير القوى الحسية والخيالية والوهمية في غاية القوة ، وحينئذ : تصير القوة العقلية قوية صافية ، وربما كانت النفس بحسب أصل الفطرة نورانية إلهية علوية قليلة التعلق بالحوادث البدنية ، شديدة الاستعداد لقبول الأمور الإلهية ، فتشرق فيها الأنوار الإلهية وتفيض عليها من عالم القدس على وجه الكمال ، فتحصل المعارف والعلوم من غير تفكر وتأمل ، فهذا هو العلم اللدني »[2] .

المعلم الخامس : في الأحوال والمقامات والتوسل والتبرك :

لقد تناول البقاعي في تفسيره ما يحل بقلوب السالكين لطريق الله تعالى من الأحوال كالمحبة والبقاء والفناء والقرب والمشاهدة ، وكذا المقامات التي يقيم الحق تعالى فيها أولياءه وأصفياءه من العبادات والمجاهدات والرياضات

---

(١) سورة الكهف الآية /٦٥ .

(٢) البقاعي : نظم الدرر ١٢/١٠٧ .

كالزهد والورع والتوكل .

وللبقاعي في تناول هذه الأحوال والمقامات أسلوب فريد يضارع ما أثر عن كبار العارفين أرباب الحقائق ، ونسوق لذلك بعض الأمثلة :

(أ) في تفسير آيات فاتحة الكتاب العزيز : يجسد البقاعي عظمة ترتيب فقراتها وجملها بما تجلى له من أسرارها ، وبما يكشف له من أنوار صفات الذات العلية وأسمائها الحسنى ، فيقول : « والحاصل : أنه لما رفعت تلك الصفات العلية لمخاطبها الحجب ، وكشفت له بسمو مجدها ، وعلو جدها وشرف حمدها جلائل الستر ، وأشرقت به رياض الكرم ، ونشرت له لطائف عواطفها بسط البر والنعم ، ثم اخترقت به مهامه العظمة والكبرياء ، وطوت في تيسيرها له مفاوز الجبروت والعز ، وأومضت له بوارق النقم من ذلك الجناب الأشم : وصل إلى مقام الفناء عن الفاني ، وتمكن في رتبة شهود البقاء للباقي ، فبادر الخضوع له معرضا عن السوى، حاكما على الأغيار بما لها من ذواتها من العدم والتوى ، فقال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، وفي تلك الحال : تحقق العجز عن توفية ذلك المقام ما له من الحق فقال : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

فكشف له الشهود في حضرات المعبود عن طرق عديدة ومنازل سامية ، ورأى أحوالا جمة وأودية مدلهمة ، وبحارا مغرقة ، وأنوارا هادية وأخرى محرقة ، ورأى لكل أهلا قد أسلكوا فجاء تارة حزنا ، وأخرى سهلاً ، وعلم أن لا نجاة إلا بهدايته ولا عصمة بغير عنايته ، ولا سعادة إلا برحمته ، ولا سلامة لغير أهل نعمته ، فلما أشرق واستنار وعرف مواقع الأسرار بالأقدار كأنه قيل له : ماذا تطلب ؟ وفي أي سذهب تذهب ؟ فقال : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ

﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ ... »[1].

هكذا سبح البقاعي في محيط أنوار المعارف الربانية واستجلى في عبابها إشراقات مقامات الفناء والبقاء[2]، والكشف والشهود، وتراءت له أحوال جمة وأودية مدلهمة لا تلوح إلا لأهل الأنوار، وينكرها أغرار الأغيار لما ناط بقلوبهم من الأكدار !!

(ب) وتناول البقاعي أيضاً : مقامي : الجمع والفرق في تفسير قوله تعالى : ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[3] حيث قال : « ... ولما أخبر عن فضله [أي القرآن] للخفايا وكان التفصيل لا يكون إلا بالنور : اقتضى الحال توقع الإخبار بأنه نور، فقال مفتتحاً بحرف التوقع والتحقيق: ﴿قَدْ جَآءَكُم﴾ وعظَّمَهُ بقوله معبرا عنه بالاسم الأعظم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي الذي له الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿نُور﴾ أي واضح النورية وهو محمد ﷺ الذي كشف ظلمات الشك والشرك.

ودل على جمعه مع فرقه[4] بقوله : ﴿وَكِتَٰب﴾ أي جامع ﴿مُّبِين﴾ أي : بين في نفسه، مبين لما كان خافيا على الناس من الحق »[5].

---

(١) البقاعي : نظم الدرر ١/٤٤ – ٤٥ .

(٢) الفناء والبقاء من أعلا مقامات العارفين، ويعرف الفناء بأنه : عدم الإحساس بعالم الملك والملكوت وهو بالاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق تعالى . والبقاء ما لم يزل حقاً بشهود فناء ما لم يكن شيئاً (انظر جامع الأصول لسيدي أحمد ضياء الدين الكمشخانوي – شيخ شيخنا الشيخ جوده إبراهيم النقشبندي رضي الله عنهما – ص ٣١٣ وانظر : التعريفات للجرجاني ص ١٤٨) .

(٣) سورة المائدة /١٥ .

(٤) الجمع هو شهود الأشياء بالله تعالى والتبري من الحول والقوة إلا به . والفرق الأول هو : الاحتجاب بالخلق عن الحق تعالى . والفرق الثاني : هو شهود قيام الخلق بالحق (التعريفات ص ٦٨ ، ١٤٥) .

(٥) البقاعي : نظم الدرر ٦/٦٣ .

ويتوجه إسناد الجمع والفرق هنا إلى حضرته ﷺ على الوجه الذي أبداه الإمام الآلوسي ﷺ في تفسيره بقوله « ولا يبعد عندي أن يُراد بالنور والكتاب المبين : النبي ﷺ ، والعطف عليه كالعطف على ما قاله الجبائي [أي لتنزيل المغايرة بالعنوان منزلة المغايرة بالذات] ولا شك في صحة إطلاق كل عليه عليه الصلاة والسلام ، ولعلك تتوقف في قبوله من باب العبارة ، فليكن ذلك من باب الإشارة »[1] .

(ج) وتتأكد صوفية الإمام البقاعي بإذعانه للتوسل والتبرك بالأنبياء والأولياء وتصريحه بذلك في تفسيره ، ويعد هذا المعلم وحده مقياسا يتقين به تحقق المنزع الصوفي لدى صاحبه ، فإن خصوم التصوف يعدونه – والعياذ بالله – شركا . بيد أن أهل الحقيقة العارفين والعلماء الراسخين يعتدونه طريق الأدب مع الله تعالى ، ومن صميم ما شرعه لعباده كما قرره القرآن الكريم والسنة المطهرة .

فنجد البقاعي يقول عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[2] .

« والسر الذي بينه في هذه الآية في إمهالهم هو أنه ما منعه من الإسراع في إجابة دعائهم [أي على أنفسهم بإمطار الحجارة وبالعذاب] كما فعل في وقعة بدر إلا إجلال مقامه ﷺ بين أظهرهم فقال ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ ﴾ أي مع ما له من صفات الكمال والعظمة والجلال ، وأكد النفي بقوله ﴿ لِيُعَذِّبَهُم ﴾ أي ليجدد لهم ذلك في وقت من الأوقات ﴿ وَأَنت ﴾ أي : يا أكرم الخلق

---

(١) الإمام الآلوسي : روح المعاني ٦/٩٧ – ٩٨ .

(٢) سورة الأنفال /٣٣ .

﴿ فِيهِمْ ﴾ فإنه : لعين تجازى ألف عين وتكرم

ولما بين بركة وجوده أتبعه ما يخلفه ﷺ إذا غاب في العباد من العذاب فقال ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ مُعَذِّبَهُمْ ﴾ أي مثبتا وصف تعذيبهم بحيث يدوم ﴿ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ... »[1] .

(د) وعند تفسير قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال بعد تبيان مراتب الشريعة والطريقة والحقيقة « ولما كان هذا النور إذا زاد عظمة وانتشر إشراقه يفيض بعد الوصول إلى هذه الدرجات الروحانية والمعارج الربانية على أرواح الناقصين فيض النور من جوهر الشمس على أجرام العالم فينير كل قابل له مقبل عليه ، قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي : إكرام عظيم بالإمامية بالغ في الكمال والإشراق إلى حد لا مزيد عليه ، وهذا للأنبياء عليهم السلام ، ولما كان لا ينتفع بأنوارهم إلا من توجه إليهم ، ثم إن الانتفاع بهم يتفاوت بتفاوت درجات التوجه إليهم والإقبال عليهم قال : ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين اتبعوه وهم راسخون في التوجه إلى المرشدين والاستسلام لهم فكان ذلك سبباً لنجاتهم »[2] .

هكذا يصرح البقاعي بإفاضة النور من أرواح الكُمَّل – وهم الأنبياء وورثتهم من الأولياء – كما يفيض نور الشمس على أجرام العالم ، كما ينص على أن الانتفاع بأنوار الكمل متوقف على التوجه إليهم ، والتوجه مرادف

---

(١) البقاعي : نظم الدرر ٢٧١/٨ .

(٢) البقاعي : نظم الدرر ١٤٥/٩ .

للتوسل ، ومن لوازمه التبرك بالصالحين لأنهم مهابط الأنوار ومحل النفحات والأسرار .

إننا بهذا القدر من استشراف معالم الاتجاه الصوفي عند الإمام برهان الدين البقاعي نصل إلى جملة من المعطيات والنتائج :

أبرزها : أن أساطين التفسير والتأويل – ومنهم البقاعي – لم يجدوا بدا من الإذعان لمبادئ وسلوكيات أئمة الصوفية ، وذلك لما وقفوا عليه من دلالات التنزيل الحكيم العرفانية التي ترسخ أصول التصوف الحقيقي في مدارك كل متدبر للتنزيل .

ومن أبرز النتائج : أن الإمام البقاعي الذي اتخذه خصوم التصوف معولا لتقويض أسسه وأصوله قد كشفت الدراسة العلمية الحقيقية أنه صوفي متفق مع أئمة العارفين الصوفية في مبادئهم وسلوكياتهم ، ولا يقدح في ذلك موقفه الخاص من الشيخين الجليلين محيي الدين بن عربي وعمر بن الفارض رضي الله عنهما .

ثم من نتائج هذه الدراسة ثالثاً : تجسيد العطاء التفسيري للتصوف وإبراز مطابقة التفسير الإشاري – الذي أقره أساطين علماء التنزيل – للتفسير الظاهر وأنهما ينبعان في الأصل من معين واحد هو عطاء القرآن وهديه الوضاء .

وفقنا الله تعالى إلى الالتزام بمنهجه والسير على صراطه المستقيم لنحظى بوراثة سيد العالمين سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وآله وورثته القرآنيين .

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
مقدمة	٥
الباب الأول : الاتجاه الصوفي في تفسير أبي حفص النسفي	٩
تمهيد	١١
اقباس من الترجمة الشخصية والعلمية	١٣
تصوف الإمام أبي حفص النسفي	٢٣
المعالم الصوفية في تفسير ابي حفص النسفي	٢٤
المعلم الأول : كثرة نقوله عن الصوفية في تفسيره .	٢٤
المعلم الثاني : في سلوك الطريق والمجاهدة .	٣٣
المعلم الثالث : في الشريعة والحقيقة والظاهر والباطن .	٣٦
المعلم الرابع : في الولاية والأولياء .	٤٠
المعلم الخامس : في الأحوال والمقامات .	٤٦
المعلم السادس : في التوسل والتبرك بالصالحين .	٤٨
الباب الثاني : الاتجاه الصوفي في تفسير الإمام فخر الدين الرازي	٥١
حياة الإمام فخر الدين الرازي	٥٣
مولده ونشأته :	٥٤
مكانته العلمية	٥٤
تجديده للقرن السادس	٥٦
نص رسالة الإمام محي الدين بن عربي إلى الإمام الفخر الرازي	٧١
المعالم والشواهد الثبوتية التي تمثل اكتمال البناء الصوفي بأبعاده وزواياه المختلفة في تفسير الفخر الرازي	٧٨
المعلم الأول : تصريح الفخر نفسه بصوفيته في تفسيره	٧٨
المعلم الثاني : إيمانه العميق بنظرية المعرفة عند الصوفية	٧٩
المعلم الثالث : الشريعة والطريقة والحقيقة	٨٤

الموضـــوع	رقم الصفحة
المعلم الرابع : اتخاذ الشيخ المربى لسلوك الصراط المستقيم.	٨٧
المعلم الخامس : في الذكر وأسراره	٩٢
المعلم السادس : في السلوك والمجاهدات	٩٦
المعلم السابع : في الولاية والأولياء	١٠٠
المعلم الثامن : في التجليات الإلهية	١٠٣
الباب الثالث : الاتجاه الصوفي في تفسير الإمام القرطبي	١٠٧
تمهيد	١٠٩
لمحات شخصية وجوانب علمية	١١١
مولد الإمام القرطبي ونشاته	١١١
شيوخه في التصوف	١١٤
كتبه وتصانيفه	١١٤
تصوفه واخلاقه	١١٧
المعالم الصوفية في تفسير القرطبي	١٢١
المعلم الأول : إصداره عن ائمة الصوفية	١٢١
المعلم الثاني : في الولاية والأولياء	١٢٥
المعلم الثالث : في إثبات الكرامات	١٣٣
المعلم الرابع : في السلوك والمعرفة	١٣٥
المعلم الخامس : في الأحوال والمقامات	١٤٤
المعلم السادس : في التوسل والتبرك	١٥٠
الباب الرابع : الاتجاه الصوفي في تفسير القاضي البيضاوي وحاشية الشهاب الخفاجي	١٥٩
تمهيد	١٦١
معالم شخصية وجوانب علمية	١٦٣
تصوف الإمام البيضاوي واتصال سنده الصوفي بنسبه العمري	١٦٤
المعالم الصوفية في تفسير البيضاوي	١٧٠

الموضـــوع	رقم الصفحة
فالمعلم الأول : في حقيقة المعرفة	١٧٠
المعلم الثاني : في الظاهر والباطن وإصدار البيضاوي عن الصوفية في البطون القرآنية	١٧٩
المعلم الثالث : في السير والسلوك ومنهاج الوصول إلى ملك الملوك ، والمقامات الثلاثة : الشريعة ، والطريقة والحقيقة	١٨٢
المعلم الرابع : في الأحوال والمقامات	١٩١
المعلم الخامس : في التوسل والتبرك	٢٠٠
الباب الخامس : الاتجاه الصوفي في تفسير برهان الدين البقاعي	٢١٣
تمهيد	٢١٥
جوانب في شخصية البقاعي	٢١٧
مكانته العلمية وآثاره ومصنفاته	٢١٩
تفسير البقاعي وقيمته العلمية	٢٢١
تصوف البقاعي وموقفه من أئمة الصوفية	٢٢٥
معالم صوفية في تفسير البقاعي	٢٣٠
المعلم الأول : جمعه بين الظاهر والباطن في تفسيره	٢٣٠
المعلم الثاني : في الحقيقة المحمدية	٢٣٥
المعلم الثالث : في الولاية والأولياء	٢٣٩
المعلم الرابع : في الشريعة والطريقة والحقيقة والعلم اللدني	٢٤٣
المعلم الخامس : في الأحوال والمقامات والتوسل والتبرك	٢٤٥

الصف والإخراج الفني

الخزرجي أفنيك لخدمات الكمبيوتر